تفسير

ابن كمال باشا

تأليف الإمام

شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي الحنفي

المتوفى سنة ٩٤٠ هـ في القسطنطينية

رحمه الله تعالى

يُطبع لأوّل مرّة محققًا على ستّ نسخ خطّية

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبّوش

المجلّد السّابع

مكتبة الإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

ابن كمال باشا

(٧)

الطبعَة الأولى

١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

9 786056 774829

مكتبة الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع - إسطنبول
لصاحبها
محمّد محفوظ أزدمير

İRSAD
KİTABEVİ
SADECE ARAPÇA

تركيا - إسطنبول

هاتف: 0850 480 47 73

İskenderpaşa Mah. Feyzullah Efendi Sok. No 8 Dük:1 Fatih/İSTANBUL

www.irsad.com.tr
info@irsad.com.tr
fb.com /irsadkitabevi
@irsadkitabevi

+90 (0) 531 285 3525

قامت بعمليات التنضيد والإخراج الفني والتنفيذ الطباعي

دار اللباب
للدراسات وتحقيق التراث

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كرتاش - مفرق بنك الكويت
مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları
Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾؛ أي: دنا وقتُ إظهار ما للعبد وما عليه ليُجازَى بهما.

والحسابُ: إخراجُ الكميَّة من مبلغ العِدَّةِ.

والاقترابُ بالنِّسبة إلى ما مضى، لا عند الله تعالى؛ إذ لا نسبة للكائنات بالقرب والبعد إليه تعالى، أو لأنَّ مبدأه الموت، أو هو كنايةٌ عن ظهور بعض أماراته، ويناسبه:

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ تنكيرُها للتعظيم؛ أي: وهم مستقرُّون في غفلة عظيمة لا يُعرف كُنْهُها، وهذا من قَبيل نسبة فعل الأكثر إلى الكلِّ، فلا ينافي كونَ تعريف (النَّاس) للجنس، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ الآية [مريم: ٦٦].

واللَّام صلة لـ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾، أو تأكيدٌ لإضافة (الحساب) إليهم، كما في قولهم: لا أبا لك، والأصل: اقترب حساب النَّاس، ثمَّ: اقترب للنَّاس الحساب، ثمَّ: اقترب للنَّاس حسابهم، ونحوُه في التَّأكيد تكرير الظَّرف، كقولهم: فيك زيد راغب فيك.

﴿مُّعۡرِضُونَ ﴾ عن أسباب التَّنبيه؛ كلَّما كُرِّرَ عليهم التَّنبيه[١]، وجُدِّدَ لهم التَّذكير، وقُرِعَتْ لهم العصا[٢]، وأُحْدِثَ لهم ذِكْرٌ من الآيات التي تُتلى وقتاً بعد وقتٍ = ما تنبَّهوا بواحدٍ من تلك الأذكار، وما استيقظوا مرَّة من تلك المِرَار، إلَّا استمعوه مستسخرين لاهين يلعبون، فقوله:

(٢) ـ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾.

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ﴾ تقرير لتماديهم في الإعراض والغفلة بأنَّ الله تعالى يجدِّد لهم الذِّكر ويكرِّر على أسماعهم الوعظ ليتَّعظوا، فما يزيدهم استماعُ ذلك إلَّا لعباً واستخساراً وتلهِّياً راسخاً في قلوبهم، وجدًّا وعزيمةً في اللَّهو؛ يعني أنَّهم وإنْ فطِنوا فهُم في قلَّة جدوى فطنتهم، وتمادي ذُهولهم وغفلتهم عن التَّأمُّل والتَّبصُّر، كأنَّ الذُّهولَ مركوزٌ في قلوبِهم، لا فطنةَ لهم أصلاً.

قوله: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ خبران، أو الظَّرف حال من المستكِنِّ في ﴿مُّعۡرِضُونَ ﴾.

﴿مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة لـ﴿ذِكۡرٍ﴾، أو صلة لـ ﴿يَأۡتِيهِم﴾.

﴿مُّحۡدَثٍ﴾ لم يُرَدْ به حدوثُ نفسه بمعنى مسبوقيَّته بالعدم وإنْ كان صحيحاً؛ لأنَّ الكلام اللَّفظي حادث عند الجمهور، ولا حدوثُ تنزيله كما زعمته الحنابلة المنكِرون حدوثه؛ لأنَّ كلًّا منهما لا يناسب المقام، ولا يلائم

---

(١) «كلما تكرر عليهم التَّنبيه» سقط من (ف)، وفي (م): «كرر» بدل: «تكرر».

(٢) (قرع العصا) أصله من قولهم: إن العصا قرعت لذي الحلم، يضرب لمن إذا نبِّه انتبه، وانظر قصة المثل في «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٣٨)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٢/ ٢٩) و(١٠/ ٢٨٥).

مساقَ الكلام، بل المراد تجدُّد الذِّكر وقتاً بعد وقت؛ لِمَا عرفْتَ أنَّه أشدُّ تأثيراً في التَّذكير.

وقرئ بالرَّفع حملاً على المحلِّ(١).

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال عن الواو، وكذلك:

(٣) - ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتَّلهِّي، فهما حالان مترادفان.

وهي من لَهِيْتُ عن الشيء لُهِيًّا ولُهْياناً: إذا سَلَوْتُ عنه وتركْتُ ذِكْرَه وأضربْتُ عنه، ويعدَّى بـ(عن) و(من) عند الأصمعي(٢)، وهو في الحديث من باب عَلِمَ؛ أي: مِن لَهِيَ عنِّي يَلْهَى: إذا ذَهَل وغَفَل.

ويجوز أن يكون حالاً من واو ﴿يَلْعَبُونَ﴾، فالحالان متداخلان، وقرئت بالرَّفع(٣) على أنَّه خبر آخر، فالحال واحدة.

وفي قوله: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ مبالغةٌ؛ لأنَّ النَّجوى لا تكون إلَّا خفيَّة؛ أي: بالَغوا في إخفائها(٤).

---

(١) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٠١)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: لها).

(٣) نسبت لعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٤) في هامش (ف): «وينتظم هذا جعلَهم بحيث خفي تناجيهم بها، فمن أخذه مقابلاً له لم يصب، كما لا يخفى. منه».

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بدل من واو ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾، وفائدةُ الإبدالِ: الإشعارُ بأنَّهم الموسومون بالظُّلم الفاحش فيما أسرُّوا به، أو منصوب على الذَّمِّ، أو مرفوع بالابتداء، خبره ﴿أسروا النَّجوى﴾، قُدِّمَ عليه.

وفائدةُ التَّقديمِ: الاهتمامُ ببيان إسرارهم النَّجوى بالتَّسجيل عليهم بأنَّه ظلمٌ؛ لأنَّ الأصل: وهم أسرُّوا النَّجوى، فوُضع المظهَرُ موضع المضمَر، وقدِّم الإسرار؛ لِيُفهَم منه أنَّ الإسرارَ هو الظُّلمُ.

ثم بيَّنَ أنَّ النَّجوى ما هو؟ بقوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ليتمكَّنَ في أنفس السَّامعين بالإبهام(١) والتَّبيين، ويتحقَّق عندهم أنَّ ذلك هو الظُّلم الفاحش بالدَّليل الواضح؛ لتسميتهم المعجِزَ سحراً مُبيناً، وادِّعائهم أنَّ كونه سحراً مشاهداً بيِّنٌ، واعتقادِهم أنَّ رسولَ اللهِ لا يكون إلَّا مَلَكاً، وأنَّ مَن ادَّعى الرِّسالة من البشر فهو ساحرٌ، وإنكارِهم أن يَحضروا السِّحر الذي لا شكَّ فيه.

وإنَّما أسرُّوا تشاوراً في استنباط ما يهدم أمرَه، ويُظهر للنَّاس فسادَه؛ تثبيطاً عنه، وعادةُ المتشاورِين الكتمانُ.

وما ذكر كلُّه في محلِّ النَّصب بدلاً من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾، أو مفعولاً لـ(قالوا) مضمراً.

(٤) ـ ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ﴾ وقرئ: ﴿قَالَ﴾(٢)؛ إخباراً عن الرَّسول وحكاية لقوله:

﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو آكد من قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [طه: ٧]؛ لأنَّه

---

(١) في (س) و(م): «بالإيهام».

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي بالألف، وباقي السبعة بغير ألف. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٤).

عامٌّ يشملُ السِّرَّ والجهرَ، كأنَّه قال: يعلمُ السِّرَّ كلَّه وغيره، كما أنَّ قولَه: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ آكَد من قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨]؛ لعمومه، فعمَّم ولم يقل في مقابلة: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾: (يعلم السِّرَّ)؛ ليؤكِّدَ بالطَّريق البرهانيِّ.

ثم قرَّر ذلك وبيَّن بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: مطلقاً دون غيره، فكيف يخفى عليه ما يسرُّون.

***

(٥) ـ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ الأولى: إضرابٌ عن تجاوزهم في شأن الرَّسول عليه السلام وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاوُلهم في أمر القرآن.

والثَّانية: لإضرابهم عن كونه أباطيل خُيِّلَتْ إليه وخُلِّطَتْ عليه إلى كونه مفتريات اختلقَها من تلقاء نفسه.

والثَّالثة: لإضرابهم منه إلى أنَّه كلامٌ شعريٌّ يُخيِّلُ إلى السَّامع معاني لا حقيقة لها، ويرغِّبه فيها.

ثمَّ إنَّهم تفنَّنوا في مدارج الإضراب، واعتبروا في كلِّ نحوٍ منه نوعاً من الاعتبار اللَّطيف.

قيل: أضربوا عن قولهم: ﴿هو سحر﴾ إلى قوله[1]: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾؛

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الأحسن: (قولهم).

أي: تخاليط رؤيا، ثمَّ إلى أنَّه كلام افتراء، ثمَّ إلى أنَّه قولُ شاعرٍ، على عادة كلِّ مبطِلٍ في اللَّجلَجةِ والتَّزلزل في التحيُّر واللعثمة(١)، وذلك يدلُّ على فساد قولهم وبطلانه.

ولا يذهبْ عليك أنَّ حقَّ النَّظم حينئذ: (قالوا بل)، لا: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ ﴾.

وأمَّا ما قيل: يجوز أن يكون الكلُّ من اللهِ تعالى تنزيلاً لأقوالهم في دَرْج الفساد؛ لأنَّ كونه شعراً أبعدَ من كونه مفترًى؛ لأنَّه مشحون بالحقائق، والحكم ليس فيه ما يناسب قول الشُّعراء، وهو من كونه أحلاماً(٢)؛ لأنَّه مشتملٌ على مغيَّبات طابقَتِ الواقع، والمفترَى لا يكون كذلك، بخلاف الأحلام، وهو [أبعد] من كونه سحراً لأنَّه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق(٣)= فمبناه على أن يكون بين الشِّعر والحكمة بوناً بعيداً، وعلى أن يكون السِّحر كالمعجزة من خوارق العادات، ولا صحَّة لواحدٍ منها:

أمَّا الأوَّل: فظاهرٌ، وكأنَّ هذا القائل غافل عن قوله عليه السلام: «إنَّ مِنَ الشِّعرِ لحكمةٌ»(٤).

وأماَّ الثَّاني: فلأنَّ الحقَّ أنَّ السِّحر إمَّا تمويهٌ لا حقيقةَ له، أو ترتيبٌ لأسبابٍ خفيَّة، وعلى كِلَا التَّقديرين ليس فيه شيءٌ مِن خَرْقِ العادة.

---

(١) في (ف): «التحيز والقلسمة»، وفي (ك): «التحير والعثلمة»، وفي (م): «التحير والعلثمة»، وفي (س): «التحيز» والثانية غير واضحة. ولعل الصواب هو المثبت.

(٢) قوله: «وهو» الضمير فيه راجع لـ«كونه مفترى»، وقوله: «من كونه» متعلق بـ(أبعد) مقدراً. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٤٢). فالمعنى: وكونه مفترى أبعد من كونه أحلاماً.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٤٦)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) رواه البخاري (٦١٤٥) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾: بمعجزةٍ عظيمةٍ، وصحة التشبيه في قوله:

﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنَّه في معنى: كما أتى الأوَّلون بالآيات العظيمة كاليدِ والعصا وإحياء الموتى وإبراء الأكمَهِ؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسلِ متضمِّنٌ للإتيان بها. هذا إذا كان (ما) مصدريَّةً، وأمَّا إذا كانت موصولة، والمعنى: كالتي أرسل بها الأوَّلون، فالتَّشبيه على ظاهره[1].

***

(٦) ـ ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ أراد بالقرية: أهلَها، فالإيجاز من جهة المجاز لا من جهة الحذف، ولذلك قال في التَّوصيف:

﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ دون (أهلكناهم)، يريد[2]: إهلاكهم عند إنكارهم ما اقترحوا من الآيات لَمَّا جاءتهم.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ عند إتيانها، وفي إيلاء الهمزة فاءَ التَّعقيب إنكارُ إيمانهم بعدما لم يؤمن أولئك؛ لأنَّ هؤلاء أعتى منهم وأشدَّ عناداً وتعنُّتاً، فلو أتوا بما يقترحون لكانوا أعصى منهم وأشدَّ كفراً، وتنبيهٌ على أنَّ عدم الإتيان[3] بما اقترحوا إبقاءٌ عليهم؛ إذ لو أتوا به لم يؤمنوا، واستوجبوا عذاب الاستئصال كمَنْ قبلَهم.

***

---

(١) في هامش (ف): «فيه رد للقاضي، حيث فسَّر الكلام على الثَّاني، وأوَّل التَّشبيه على الأوَّل، فتأمَّل. منه».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «يريدون»، والمثبت من (س).

(٣) في (ك): «الإيمان».

(٧) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ جوابٌ لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

فإنْ شككتم فيه:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنَّما أمَرَهم بذلك ليخبروهم أنَّ الرُّسلَ كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكةً.

والمراد من ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: أهلُ الكتاب، وإنما أحالهم إليهم للإلزام؛ فإنَّهم كانوا يشاورونهم في أمرِ الرَّسولِ والرَّدِ عليه، ويثقون بقولهم. وبهذا التَّقرير تبيَّن ما في تحرير القاضي من التَّقصير والخلَل، فتأمَّل.

أو: علماءُ الأخبار، والإحالةُ إليهم لأنَّ إخبارَ الجمِّ الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفَّاراً، وتمام الكلام في هذا المقام قد سبق تفسيره في (سورة النحل).

***

(٨) ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ما جعلنا كلَّ واحدٍ منهم، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج: ٥].

﴿جَسَدًا﴾ الجسدُ: جسم الحيوان، مخصوصٌ به كالبدن، بخلاف الجسم والجِرم، وهو عبارة عن روح وجسد، والرُّوح ما لطف، والجسد ما غلظ، وأصله لجمع الشَّيء واشتداده؛ أي: ما جعلناهم جسداً محضاً ليس فيه[1] روحٌ متصرف حتى يتحلَّل فيحتاجَ إلى البدل، فقوله:

---

(١) «فيه» من (ك) و(م).

﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لذلك المعنى، وجوابٌ لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، ولما كان التَّغدي به من لوازم التَّحليل المؤدِّي إلى الفَناء كان قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ تقريراً وتأكيداً له، ونفيٌ عن الرُّسل لِمَا اعتقدوا اختصاصه بالملَك؛ تحقيقاً لكونهم من جنس البشر.

* * *

(٩) ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾؛ أي: في الوعيد، فنصب بانتزاع الخافض.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ ممَّا حَلَّ بقومِهم ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾؛ يعني: المؤمنين، ومَن في إنجائه[1] حكمة كَمَن سيؤمن هو أو بعض ذرِّيته، ولذلك حُميت العرب عن عذاب الاستئصال.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: المجاوزين الحدَّ بالكفر، ويفهم منه دخول بعض الكافرين تحتَ ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾.

* * *

(١٠) ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ﴾: صِيتُكم وشرفُكم[2]، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو: موعظتُكم، أو: ما تطلبون به حُسنَ الذِّكر من مكارم الأخلاق.

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «إلجائه»، والمثبت من (س).

(٢) في (م): «وما شرفكم».

والكتابُ: القرآنُ، والخطابُ لقريشٍ أو لعامَّة العرب.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتؤمنوا به، والفاء كالتي في: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]، وكذا الاستفهام.

* * *

(١١) ـ ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا﴾ واردةٌ عن غضبٍ[١] شديدٍ؛ لأنَّ القَصْمَ أفظعُ الكسر؛ لأنَّه كسرٌ يَبِيْنُ تلاؤمَ الأجزاء، بخلاف الفصم ـ بالفاء ـ، ولإيردها في صورة التَّكثير.

﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ لَمَّا أُقيْمَتِ القريةُ مقامَ أهلِها، أو تجوَّزَ بها عن (هم)[٢]، وُصِفَتْ بصفتهم، فقيل:

﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا﴾: بعد إهلاكها.

﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم، وللدلالة على تعدِّي الغضب في شأنهم ـ أي: إهلاك قريتهم أيضاً بإخراجها عن صلاحية الانتفاع بها ـ قال: ﴿بَعۡدَهَا﴾، ولم يقل: (بعدهم)؛ إظهاراً للتَّوسُّع السَّابق، واعتباراً لما يقتضيه اللَّاحق، فإنَّ الضَّمير في قوله:

(١٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾.

---

(١) أي: دالةٌ عليه؛ للتعبير فيها بالقصم وهو كسر يفرِّق الأجزاء ويُذهب التئامها، ولذا أتى فيه بالقاف الشديدة، بخلاف الفصم بالفاء الرخوة فإنه لمَا لا إبانة فيه فأتى بتركيب اللفظ على وفق المعنى. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٤٤).

(٢) في (ف): «عنهم».

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ لأهل القرية ﴿بَأۡسَنَآ﴾؛ أي[1]: أدركوا بالحسِّ عياناً ومشاهدةً شدَّة عذابنا، على الاستعارة في الإحساس، ويجوز أن يكون من قَبيل الاستعارة في البأس.

﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا﴾: من القرية، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة.

﴿يَرۡكُضُونَ﴾ الرَّكضُ: ضربُ الدَّابة بالرِّجْلِ؛ أي: يهربون مسرعين، على الكناية. ويحتمِلُ التَّمثيلَ على تشبيههم في الإسراع وشدَّة العَدْوِ بمَنْ[2] يرَكِضُ الدَّابةَ، وأن يكون:

(١٣) ـ ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾.

﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ قولاً بلسان الحال يشير إلى أنَّهم خُلقاء بأنْ يُقال لهم ذلك وإن لم يُقَلْ، أو يُقالُ[3] استهزاءً، والقائل[4] مَلَكٌ أو مَن ثمَّةَ مِنَ المؤمنين. أو حديثاً تُحدِّثُ به أنفسُهم تحسُّراً.

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ من العيش الرافهِ[5] والتَّنعُّم.

والإترافُ: إبطار النِّعمة، والاسم: التَّرفه.

أو: ارجعوا إلى وبالِ ما أُترفتم فيه.

﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ في النَّار، أو: التي كانت لكم.

---

(١) «أي» من (م).

(٢) «بمن» سقط من (م).

(٣) في (س) و(ف) و(ك): «أو المقال».

(٤) في (س) و(ك) و(م): «أو القائل».

(٥) في (ك): «والترفه».

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غداً عن أعمالكم، أو كنايةٌ عن العذاب؛ فإنَّ السُّؤال مُقدِّمتُه، أو تهكُّمٌ وتوبيخٌ؛ أي: ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتى يَسألَكم مَن ينفذ فيه أمرُكم ونهيُكم، أو يسألكم النَّاس في أنديتكم المعاونة[1] في نوازل الخطوب أو يسألكم الوافدون عليكم ويستمطِرون[2] سحابَ ما في أيديكم.

***

(١٤) ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾.

ولَمَّا أخذهم العذاب ولم يروا وجهَ النَّجاة: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بالاقتراف حين لا ينفع الاعتراف.

***

(١٥) ـ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الإشارة إلى ﴿يَـٰوَيْلَنَآ﴾ لأنَّها دعوى؛ أي: فما زالَتْ تلك الدَّعوى دعواهم.

والدَّعوى: الدَّعوة؛ لأن الـمُوَلْوِلُ يدعو الويلَ، ويقول: يا ويلُ تعال[3] فهذا أَوانُكَ.

والويلُ: الوقوعُ في الهلكة.

---

(١) في (ف): «المقاولة»، وفي «الكشاف» (٣/ ١٠٦): (المعاون)، وهي جمعُ المعونة.

(٢) في (م): «وافدون عليكم ويستخطرون».

(٣) في (م): «يقال».

و﴿تِلْكَ﴾ اسم ﴿فَمَا زَالَت﴾، و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ خبرُه، أو بالعكس، وتعيُّنُ الأوَّل إنَّما هو في نحو: ضرب موسى عيسى، مما يَختلف أصل المعنى باختلاف الإعراب.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ الضَّمير المنصوب هو الذي كان مبتدأً، و: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ كانا خبرين، فنصبَهما (جَعَل) جميعاً على المفعوليَّة، لا على أنها تقتضي ثلاثة مفاعيل، بل على أن الأخيرين[1] في حكم الواحد؛ أي: جعلناهم جامعِينَ لمماثلة[2] الحصيد والخمود، كقولهم: هذا حلوٌ حامضٌ؛ أي: جامعٌ للطَّعْمَين.

شُبِّهوا في استئصالهم وسقوطهم بالزَّرع المحصود، وفي دمارهم وسكونهم بالنَّار الخامدة.

وإفراد ﴿حَصِيدًا﴾ دلَّ على أنَّ المِثْلَ مرادٌ، فخرج الكلام عن حدِّ الاستعارة إلى حدِّ التَّشبيه.

* * *

(١٦) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾: ما في جهة العلوِّ والسُّفلِ.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من العجائب والبدائع ولطائف الصَّنائع.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ كما يصنع أبناء الدُّنيا، إنَّما خلقناهما تسبيباً لِمَا تنتظِم به أمورُ

(١) في (ف): «الآخرين».

(٢) في (م): «بمماثلة».

العباد في المعاش والمعاد، وتبصرةً لأولي الألباب والأبصار، وتذكرةً لذوي الاعتبار من النُّظَّار، فليَعتبرْ بها طلَّابُ الكمال، ولا يغترُّوا بزخارفها، فإنَّها سريعةُ الزَّوال، ثمَّ بيَّنَ بقولِه:

(١٧) ـ ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ ﴾ أنَّ السببَ في تركِ اتِّخاذ اللَّهوِ هو الحكمةُ البالغةُ، وإلَّا فالقدرة الباهرة[1] لا تنحسر عن ذلك إن أراد فعله، فإنَّه على كلِّ ما يشاء قدير، والحكمةُ وإنْ لم تكن منافيةً لاتخاذ[2] اللَّهوِ ـ وهو ما يُتلهَّى به، ويندرج فيه اللَّعب ـ لكنَّها منافيةٌ لأنْ يَفعلَ فعلاً يكون به لاهياً.

﴿مِن لَّدُنَّآ ﴾؛ أي: مِن عالَم الغيب، لا من عالَم الشَّهادة؛ لأنَّه أشنعُ وأبعدُ من شأن الحكيم.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ذلك، ويدل على جوابه الجوابُ المتقدِّمُ.

وقيل: ﴿إِن﴾ نافية، وزيادة ﴿كُنَّا﴾ لاستمرار النَّفي، لا لنفي الاستمرار؛ لأنه لا يناسب المقام، والجملة كالنَّتيجة للشَّرطيَّة.

***

(١٨) ـ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ إضراب عن اتِّخاذ اللَّهو، وتنزيهٌ لذاته من

---

(١) من هنا وقع سقط في (م) بمقدار صحيفتين وينتهي عند قوله: «من جملتها»، وسننبه على انتهائه في مكانه.

(٢) في النسخ: «لإيجاد»، والمثبت من «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٤٦)، و«روح المعاني» (١٧/ ٣٩).

اللَّعب؛ أي: بل من شأننا أن نغلِّبَ الحقَّ الذي من جملته الجدُّ على الباطل الذي من عداده[1] اللَّهو.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: فيَمحقُه ويُفنيه، من دُمِغ الرَّجلُ: إذا شُجَّ شجَّةً تبلغُ أمَّ الدِّماغ، فلا يحيى صاحبُها بعدَها أبداً[2].

استعار القذف ـ الذي هو الرَّميُ البعيدُ المستلزِمُ لصلابة المرميِّ ـ لإبطال الباطل بالحقِّ؛ تصويراً لإبطاله به ومحقِه في صورة جِرمٍ صلبٍ ـ كالصَّخرة مثلاً ـ قُذِفَ به على جِرْمٍ رخوٍ أجوفَ فدمغه؛ قضاءً لحقِّ البلاغة.

وقرئ: (فيدمَغَه) بالنَّصب[3]، ووجهُه ـ مع بُعْدِه ـ الحملُ على المعنى، والعطف على ﴿بِالْحَقِّ﴾.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: هالكٌ، الزُّهوق: ذهابُ الرُّوح، وذكرُه لترشيح المجاز.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾: ممَّا تصفونه ممَّا ينافي حكمته ويستحيل عليه، وهو في موضع الحال، و(ما) مصدريَّة، أو موصولة، أو موصوفة.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً.

---

(١) في (ف): «عداد».

(٢) «أبداً» من (ف).

(٣) نسبت لعيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«البحر» (١٥/ ١٩٣).

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ منزلةً ومكانةً، لا منزلاً ومكاناً؛ يعني: الملائكة. شُبِّهوا في كرامتهم عندَ الله وقربهم بالمقرَّبين عند الملوك من زمرة خواصِّهم؛ بياناً لشرفهم.

ويوقف على ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ (مَن) مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: لا يتعظَّمون عنها.

ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والمعنى: له مَن في عالَم الشَّهادة ومَن في عالَم الغيب.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: ولا يَعيَون منها، وإنَّما نُفي الاستحسارُ ـ وهو مبالغةٌ في الحسور ـ للإيماء إلى أن ما هم فيه من دوام العبادة والدور بلا فترةٍ يوجب غاية الحسور[1]، وهم لا يحسرون، وإلَّا لكان نفي أدنى حسورٍ أبلغ[2].

***

(٢٠) ـ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ينزِّهونه ويعظِّمونه دائماً.

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، وهو استئنافٌ، أو حالٌ مِن الضمير قبلَه[3].

---

(١) من قوله: «للإيماء...» إلى هنا ساقط من (ف) و(ك).

(٢) مراد المؤلف والله أعلم: أن صيغة الاستفعال المنبئةِ عن المبالغة في الحُسور ليست لإفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصلِه في الجملة، بل للتنبيه على أن عباداتِهم بثقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستَحسَرَ منها ومع ذلك لا يستحسرون. انظر: «تفسير أبي السعود» (٦/ ٦٠)، و«روح المعاني» (١٧/ ٤٥).

(٣) في النسخ: «من ضمير قبله»، والصواب المثبت، والمراد: ضمير الواو في ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

(٢١) ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ ﴿ أَمِ ﴾ هي المنقطعة بمعنى: (بل) والهمزة؛ للإضراب عمَّا قبلها، والإنكارِ لِمَا بعدَها، وهو اتِّخاذُ آلهةٍ أرضيَّة، وفي قوله:

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ سواءٌ كانَ صفة للآلهة، أو متعلِّقاً بالفعل على معنى الابتداء، تجهيلٌ لهم واستركاكٌ لقولهم، وقوله:

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ تهكُّم بهم، ولومٌ لهم؛ فإنَّهم وإن كانوا لا يصرِّحون بذلك لكنَّه يلزمهم بادِّعاء الإلهيَّة لها، فإنَّ الإلهَ هو الذي يقدر على كلِّ ممكن، والإنشار من جملتها[1]، وهم يُنكِرون نسبةَ البعث وإنشار الموتى إلى الله تعالى القادرِ على كلِّ شيء، ويثبتون الإلهيَّة لأصنام نحتوها فلزمهم حصر الإنشار فيهم، فلذلك[2] أورد ﴿هُمْ ﴾ المفيدَ للحصر؛ مبالغةً في التَّجهيل والتَّوبيخ والتَّهكُّم بآلهتهم، وهو توبيخٌ في توبيخ.

***

(٢٢) ـ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾: صفة لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾، بمعنى: غيرُ الله؛ لتعذُّر الاستثناء[3]، فإنَّ ﴿ءَالِهَةٌ﴾ جمعٌ منكورٌ غيرُ محصور، لا يشمل الله حتى يُستثنى منه، ولدلالته على أنَّ الفساد إنَّما يلزم من وجود آلهة فيهما دونه، والمرادُ لزومُ الفسادِ من وجودِها مطلقاً سواءٌ[4] كانت معه أو لا.

(١) هنا نهاية السقط في (م).

(٢) في (م): «ولذلك».

(٣) في هامش (ف): «لَمَّا تعذَّر الاستثناء تعذَّر الرَّفع على البدل؛ لأنَّه مفرَّع عليه. منه».

(٤) «سواء» من (م).

ثمَّ إنَّ الفسادَ الآتيَ ذكرُه لزومُه ـ على ما ستقف عليه ـ على تقدير مطلق التَّعدُّد في الإله، وإنَّما فَرَض الآلهةَ غيرَ الله تعالى على وَفق معتقَدِهم؛ لزيادة تجهيلهم في هذا الأمر الجليل الشَّأن، فكأنَّه ضمَّنَ إثباتَ مطلقِ[1] التَّوحيد إبطالَ معتقدهم على أفحشِ وجهٍ وأشنعِه[2].

﴿لَفَسَدَتَا﴾: لبطلتا؛ لِـمَا يكون بينهما من التَّمانُع؛ إذ لا مجال للتَّوافق في المراد، وإلَّا يلزم أن تتطارد عليه القُدَر.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المحيطِ بجميعِ الأجرام، الذي هو محلُّ التَّدابير، ومنشأ التَّقادير.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: عمَّا يصفونه به ممَّا لا يليق بشأنه.

***

(٢٣) ـ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعلوِّ سلطنته، وكمالِ علمِه وعظمتِه، وتفرُّدِه بالألوهيَّة، ولَمَّا كان الملوك والجبابرة عادتهم أن لا يُسألوا عن أفعالهم وتدابيرهم في ملكهم تهيُّباً وإجلالاً مع جواز الخطأ عليهم، فلَأَنْ لا يُسأل ربُّ الأرباب ومَلك الملوك خالقُ الكلِّ أولى، مع استحالة ذلك عليه.

﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنَّهم مملوكون مستعبَدون، والضَّمير للآلهة أو للعباد.

***

---

(١) في (س) و(ف) و(ك): «مطلب».

(٢) في هامش (ف): «لا يخفى ما في تقرير القاضي من الخلل فتأمل. منه».

(٢٤) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: من دون الله ﴿ءَالِهَةًۖ﴾: كرَّره استعظاماً لكفرهم، واستفظاعاً لأمرهم، وتبكيتاً وإظهاراً لغاية جهلهم، وضمًّا لإنكار أن يكون لهم دليل من العقل إلى إنكار أن يكون لهم دليلٌ من النَّقل، ولهذا رتَّب على الأوَّل دليلَ العقل، وعلى الثَّاني دليلَ النَّقل(١)؛ يعني: أوجدوا آلهة يُنشرون الموتى فاتَّخذوهم آلهة لِـمَا وجدوا فيهم من خواصِّ الألوهية، أم وجدوا في الكتب الإلهيَّة المنزَّلة الأمرَ بإشراكهم(٢) فامتثلوا الأمر؟!

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ من العقل والنَّقل؛ فإنَّه لا يصحُّ القولُ بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحُجَج على بطلانه عقلاً ونقلاً؟

﴿هَٰذَا ذِكۡرُ﴾؛ أي: هذا الوحي الوارد على الأنبياء عليهم السلام كلِّهم(٣) عِظَةُ ﴿مَن مَّعِيَ﴾ يعني: أمَّته عليه السلام ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ يعني: أممَ الأنبياء الماضين عليهم السلام، فانظروا هل تجدون فيها إلَّا الأمرَ بالتَّوحيد، والنَّهيَ عن الشِّرك؟

وقرئ: (ذكرٌ مَن معي وذكرٌ مَنْ قبلي) بالتَّنوين(٤)، على أنَّ (مَن) منصوب المحلِّ مفعولٌ للذِّكْرِ، وهو الأصل، والإضافة عارضة.

---

(١) في هامش (ف): «وبالجملة: الإعادة لزيادة الإفادة، فإنَّ الأوَّل للإنكار من حيث العقل، والثاني من حيث النقل. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «باشتراكهم».

(٣) في (م): «كله».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ١١١)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢٠١).

وقرئ: (مِن معي ومِن قبلي)(١) على (مِن) الجارَّة، وإدخالُها على (مع) غريب، والوجه أنَّه ظرفٌ نحو: قبلُ وبعدُ وعندَ(٢) ولَدُنْ وما أشبه ذلك، فدخلت عليه (مِن) كما دخلت على أخواته.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بل عندهم(٣) ما هو أصل الشَّرِّ والفساد وأسُّ الغيِّ والضَّلال، وهو الجهل وعدم التَّمييز بين الحقِّ والباطل، فلذلك كانت عادتهم الإعراض عن الحقِّ من التَّوحيد واتِّباعَ الباطل.

وقرئ: (الحقُّ) بالرَّفع(٤)، على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، وهي جملةٌ مؤكِّدة وسِّطت بينَ السَّبب والمسبَّب؛ أي: كون الجهل المحض سبباً للإعراض هو الحقُّ، وقُدِّمَتْ على المسبَّب لشدَّة الاهتمام والاعتناء بأنَّ سبب الإعراض ليس إلَّا الجهل، ويجوز حمل المنصوب على هذا المعنى، كقولك: هذا عبدُ الله الحقَّ لا الباطلَ، و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فعلٌ منسيُّ المفعول، جارٍ مجرى اللَّازم؛ لسلب(٥) مطلق العلم عنهم رأساً، وهذا الوجه أفصح وأعرب.

* * *

(١) أي: بـ(مِـن) الجـارة مـع تنوين (ذكـر) كالتـي قبلها، نسـبت ليحيى بن يعمـر. انظـر: «المختصر في شـواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«المحتسـب» (٢/ ٦١)، و«الكشـاف» (٣/ ١١١)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢٠١).

(٢) «قبل» ضبطت في نسخة نفيسة من «الكشاف» بالضم فوق اللام والتنوين تحتها، وكذا «بعد» بالضم والتنوين، و«عند» بالفتح والتنوين، إشارة إلى جواز الوجهين في كل منها.

(٣) «بل عندهم» من (س).

(٤) نسبت لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٥) في (ف) و(ك): «السبب»، وهو تحريف.

(٢٥) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ؛ لأنَّ ﴿ذكرُ مَن قبلي﴾ خبرٌ للمُشارِ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، فلا يتناول إلَّا ذكر الموجودين بينَ أظهُرهم، وهو الكتب الثَّلاثة، والآية مقرِّرة لِمَا سبقها من آي التَّوحيد.

***

(٢٦) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ نزلَتْ في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بناتُ اللهِ[٦].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له تعالى عن ذلك.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أضربَ عنه ثمَّ أثبت أنهم عباد، والعبوديَّة[٧] تنافي الولادةَ، لكنهم مكرَمون مقرَّبون، فمِن ذلك أخطؤوا وزلَّتْ أقدامُهم.

***

(٢٧) ـ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: لا يقولون شيئاً حتى يقولَه، كما هو دَيْدَنُ العبيد المؤدَّبين، وأصله: لا يَسبق قولُهم قولَه، فنسبَ السَّبق إليه وإليهم، وجعلَ القولَ أداتَه ومحلَّه؛ تنبيهاً على استهجان السَّبق المعرَّض به للقائلين على الله تعالى ما لم يقله.

---

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٣٦).

(٧) في (م): «والمعبودية».

وأُنيب اللَّام مناب الإضافة اختصاراً وتحامياً[١] عن تكرير الضَّمير.

وقرئ: (لا يَسبُقونه) بالضَّمِّ[٢]، من سابقتُه فسبقتُه أَسْبُقُهُ.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كما لا يسبقونه بالقول لا يسبقونه بالعمل، فلا يعملون إلَّا ما أمرهم به.

***

(٢٨) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كالعلَّة لِمَا قبلَه، والتَّمهيدِ لِمَا بعده؛ أي: إنهم بعين الله تعالى يعلَم ما قدَّموا وما أخَّروا من أعمالهم؛ أي: لا يخفى عليه خافية، فلإحاطتهم بذلك يَضبطون أنفسهم ويتحفَّظون ممَّا[٣] لم يؤمروا به قولاً وفعلاً.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابةً منه ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: لمن ارتضاه وأهَّله للشَّفاعة.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: إنَّهم مع ذلك كلِّه قاضون حقَّ الهيبة والعظمة على حذرٍ ورِقْبَةٍ[٤].

والخشيةُ: خوفٌ مع تعظيمٍ، ولذلك خُصَّ بها العلماء.

---

(١) في (ف): «وتجافياً».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٣) في (م): «عما».

(٤) في (م): «ورقية».

والإشفاقُ: خوفٌ مع الاعتناء؛ فإنْ عُدِّي بـ (مِن) فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإنْ عُدِّيَ بـ (على) فبالعكس.

***

(٢٩) - ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾: مِنَ الملائكة، أو مِنَ الخلائق:

﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ﴾ بعدَ أنْ وصفَهم بالكرامة والقُرْب والأوصاف الجميلة والأفعال المرضيَّة هدَّدَ مَن أشركَ منهم على سبيل الفَرْض والتَّقدير، وأنذره بالوعيد الشَّديد، مع إحاطة علمه بأنَّه لا يكون؛ تفظيعاً لشأن المشركين، وتهديداً لهم بتهديد مدَّعي الرُّبوبيَّة، ومبالغةً في نفي الولد؛ إذ لو أمكنَ لكان ربّاً من جنسه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مَن ظلمَ بالإشراك وادِّعاء الرُّبوبيَّة.

***

(٣٠) - ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أولم[١] يعلموا، تقريرٌ، والواو للعطف على مقدَّر؛ أي: أنكروا قدرتنا على البعث ولم يعلموا، والكفرةُ وإن لم يعلموا لكنَّهم متمكِّنون من العلم به بالاستفسار من الأخبار[٢] ومطالعة الكتب، فكأنَّهم علموا.

---

(١) في (م): «أو».

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «من الأحبار»، ففي «روح المعاني» (١٧/ ٧٥): «أو استفسارا من =

وقيل: بالنَّظر؛ فإنَّ الفتقَ به عارضٌ مفتقِرٌ إلى مؤثِّرٍ موجِبٍ بالذَّات ابتداءً أو بوسط[١].

وفيه أنَّ أصالة الرَّتق وعروضَ الفَتق ممَّا لا يستقلُّ في معرفته[٢] العقلُ.

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ إنَّما قال: ﴿كَانَتَا﴾ دون: كنَّ؛ لأنَّ المراد جماعة السَّماوات وجماعة الأرَضين.

﴿رَتْقًا﴾: ذاتَ رتقٍ، وهو الالتحام، أو: مرتوقتين؛ أي: كانتا شيئاً واحداً، وحقيقةً متَّحدةً.

وقرئ: (رَتَقاً) بفتح التَّاء[٣]، على تقدير: شيئاً رَتَقاً، فَعَلٌ بمعنى مفعولٍ، كالنَّقَضِ[٤] والرَّفَض.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ بالتَّنويع والتَّمييز بالصُّوَر المختلفة.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾: وخلقنا من الماء كلَّ حيوانٍ؛ لأنَّه أعظم موادِّه، أو لفرط احتياجه إليه وامتناع وجوده وبقائه بدونه، أو صيَّرنا كلَّ شيء حيٍّ بسببٍ من الماء.

= علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخالطونهم ويقبلون أقوالهم.. أو بمطالعة الكتب السماوية»، ونحوه في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٠).

(١) في (ف): «بوسيط»، والمثبت من باقي النسخ و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٠).

(٢) في (ك): «معرفة».

(٣) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٤) في (م): «كالنفض»، وهو تمثيل صحيح أيضاً، وهو بمعنى المرفوض، ومعناه: ما سقط من الورق والثمر.

وقرئ: (حيًّا)[1] على أنَّه صفة ﴿كُلَّ﴾ أو مفعول ثانٍ والظَّرفُ لغوٌ.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾: ثابتات، مِن رَسى: إذا ثبتَ.

﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ مفعول له؛ أي: كراهةَ أنْ تميدَ بهم، وقيل: لئلَّا تميدَ بهم، فحذف (لا) لأَمْن اللَّبس[2].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: في الأرض أو الرَّواسي[3].

﴿فِجَاجًا﴾: جمع فجٍّ، وهو الطَّريق الواسع، وإنَّما قُدِّمَ على: ﴿سُبُلًا﴾ ـ وهو صفةٌ له ـ ليصير حالاً مقدَّرةً، فيدلَّ على أنَّه حين خلقَها خلقَها مستعدَّة لذلك، أو ليُبدل منها ﴿سُبُلًا﴾ فيدلَّ ضمناً على أنَّه خلقَها ووسَّعها للسَّابلة، مع ما يكون فيه من التَّوكيد، وأُخِّر في قوله: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] للبيان والتَّوضيح بعد الإبهام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: ليهتدوا بها إلى مقاصدهم.

* * *

---

(١) نسبت لحميد ومعاذ القارئ وابن ابي عبلة. انظر: «زاد المسير» (٥/ ٣٤٨)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢١٠).

(٢) في (ف): «فحذف لأمن الإلباس».

(٣) في (ك) و(م): «أو في الرواسي».

(٣٢) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ بقدرتنا من أنْ تقع على الأرض بغير عَمَدٍ[(١)].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾: أحوالِـها الدَّالةِ على وجود الصَّانع وكمال قدرته وحكمته، وهو ما يُحَسُّ منها من الكواكب وحركاتها وأوضاعها، وما يُعلَمُ مِنْ عِلْمَي الهيئة والطَّبيعة.

﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: هم قوم عادتهم الإعراض[(٢)].

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾ بيانٌ لبعضِ تلك الآيات، والمراد بـ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جنسَ الطَّوالع؛ اكتفاءً بأَبْيَنهما.

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ التَّنوين في ﴿كُلٌّ﴾ عوضٌ من المضاف إليه؛ أي: كلُّهم.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ حالٌ من ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أو استئناف، أو خبر ﴿كُلٌّ﴾.

والمراد بالفُلْكِ: الجنسُ، كقولهم: كساهم الأميرُ الحُلَّة.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «قيل: أو استراق السمع بالشُّهب، ويأباه قوله: ﴿سَقْفًا﴾ فإنَّه حينئذ يضيع، ولا يحمله شأن البلاغة و[...] الإعجاز. منه». وما بين معكوفتين كلمة لم تجود، ورسمها مثل: «أتيّ».

(٢) في هامش (ف) و(م): «مبنى هذا على أنَّه لا يقال: مُعرِض، إلاَّ لمن صدر عنه الإعراض مراراً. منه».

قالوا: إنَّ تحتَ السَّماء فُلكاً هو موجٌ مكفوفٌ فيه الكواكب كلُّها، ولذلك قال: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ كما يسبح الإنسان في الماء.

وقيل: شُبِّهَتْ حركتُهما في الإسراع بسباحة السَّابح.

ويردُّه: أنَّ حقَّ التَّشبيه أن يكون المشبَّه به أقوى من المشبَّه في وجه الشَّبه، وعكسه اللَّازم على ما ذُكِرَ مردودٌ في الكلام البليغ، فكيف في المعجِزِ؟!

وإنَّما جُمِعَ جمعَ العقلاء لأنَّهم وُصِفُوا بوصفِهم.

* * *

(٣٤) - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ كانوا يقولون: نتربَّص به ريب المنون، فنزلَتْ[1].

والفاء في قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ لتعليق الشرطيَّة بما قبلَها من التَّمهيد، والهمزةُ لإنكارها بعدما تقرَّر ذلك.

* * *

(٣٥) - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ أي: كلُّ نفسٍ حيوانٍ تذوقُ مرارة مفارقتها جسدها، وهو تقريرٌ لِمَا مهَّده، وبرهانٌ على ما أنكره.

﴿وَنَبْلُوكُم﴾: ونعاملكم معاملةَ المختبِر ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾: بما يجبُ فيه الصَّبر من البلاء، وما يجب فيه الشُّكر من النِّعم، وإنَّما قدَّم الشَّرَّ لأنَّه أنسبُ بالابتلاء.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٧٥).

﴿فِتۡنَةٗۖ﴾: ابتلاءً، مصدر من غير لفظه.

﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ فنجازيكم على حسَب ما يوجد منكم من الصَّبر والشُّكر، والجزَع والكفر.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ من هذه الحياة الدُّنيا الابتلاءُ، والتَّعريضُ للثَّواب والعقاب؛ تقريراً لما سبق.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: ما يتخذونك إلا مهزوًّا به، ويقولون:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ أي: بسوءٍ، وإنَّما أطلقَه لدلالة الإنكار والتَّعجُّب المفهومَيْن مِن قولهم: ﴿أَهَٰذَا﴾.

﴿وَهُم﴾ خاصَّةً ﴿بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: بذكرك للرَّحمن بالخير، وما يجب أن يُذكَر به كالتَّوحيد والثَّناء عليه بما هو أهله من التَّسبيح والتَّمجيد.

﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فهم أحقُّ أنْ يُتَّخذوا هزواً؛ لأنَّك محقٌّ وهم مبطلون، فتقديم ذكر الرَّحمن على الكفر دلالةٌ على تخصيصهم الكفرَ بذكر الرَّحمن دون آلهتهم، فإنَّهم عاكفون على ثنائهم وتعظيمهم.

والجملة في محلِّ النَّصب على الحال؛ أي: يتخذونك هزواً وحالُهم أنَّهم على شيءٍ هو أصل الهزءِ والسُّخرية.

* * *

(٣٧) ـ ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ جعلَ ما طُبِعَ عليه بمنزلةِ ما طُبِعَ هو منه مبالغةً في فرط استعجالِه وقلَّة تأنِّيه، وهو تمهيد لنهيهم عن الاستعجال، ومِن عَجَلَتِه استعجالُ الوعد.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾: نقماتي في الدُّنيا كوقعة بدر، وفي الآخرة عذاب النَّار.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها.

والمفهومُ ممَّا تقدَّم أنَّ الإنسان إذا خُلِّيَ وطبعَه يكون على العجلة، وهذا لا ينافي النَّهي عنها بل يستوجبه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: وقتُ وعدِ العذاب، أو القيامةِ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يعنون النَّبيَّ عليه السلام وأصحابَه رضي الله عنهم.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ ﴾ ذكر الوجوه لأنَّها أشرف ما[1] في ظاهر الإنسان، ومحلُّ حواسِّه، وهو أحرص على الدِّفاع عنه من غيره من أعضائه.

---

(١) في (ف) و(م): «بما»، وفي (ك): «مما»، والمثبت من (س)، وهو الصواب.

﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، و﴿حِينَ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: لو يعلمون الوقت الذي يستسخرون عنه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وهو وقتٌ صعبٌ تحيط بهم النَّار فيه من قدَّامٍ وخلف، فلا يقدرون على دفعها من[1] أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم = لَـمَا كانوا بتلك الصِّفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكنَّ جهلهم به هو الذي هوَّنه عليهم، أو: لَـمَا استعجلوا مستهزئين.

أو منصوب بمضمَر، و﴿يَعْلَمُ﴾ مطلَق بلا مفعول، مُجرًى إجراء اللَّازم؛ أي: لو كان لهم علم لَـمَا كانوا مستعجلين، حين[2] لا يكفُّون عن وجوههم النَّار ولا عن ظهورهم يعلمون أنَّهم كانوا على الباطل، وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم.

وإنَّما وُضعَ الظَّاهر فيه موضِعَ المضمَر[3] للدِّلالة على ما أوجب لهم ذلك.

***

(٤٠) ـ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾: فجأة، مصدر أو حال، أضرب عن كفِّ النَّار عن وجوههم وظهورهم؛ أي: لا يكفُّونها، بل تفجأهم.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: فتغلبُهم، يقال للمغلوب في المحاجَّة: مبهوت.

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: (عن).

(٢) «حين» منصوب بما سيأتي من قوله: «يعلمون»، وهذا الفعل هو المضمر الذي أشار إليه بقوله: «أو منصوب بمضمر».

(٣) في (ف) و(ك): «الضمير».

وقرئ الفعلان على التَّذكير[١]، والضَّمير للوعد أو للحين، وعلى التَّأنيث يجوز أن يرجع إلى العِدَةِ أو الموعدة أو الحين، على تأويل السَّاعة أو النَّار أو البغتة.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾: فلا يقدرون على دفعها.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يمهلون، وفيه تذكيرٌ لهم بإمهالهم في الدُّنيا.

***

(٤١) - ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿فَحَاقَ﴾: فحلَّ ونزلَ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعدٌ له عليه السلام بأنَّه يحيق بهم ما يفعلونه به[٢]، كما حاقَ بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا.

***

(٤٢) - ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أمرَ رسولَه عليه السلام بسؤال المستهزئين عمَّن يحفظهم دائماً، وإنَّما قدَّم اللَّيل لأنَّ الحاجة إلى الحفظ أكثر وأظهر.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: مِن بأسِه إن أراد بكم.

---

(١) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٢) في (ف): «يفعلون به».

قيل: في ذكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تنبيهٌ على أنْ لا كالئ غيرُ رحمته العامة، وأنَّ اندفاع البأس عن النَّاس لا يكون إلَّا بها.

وعندي أنَّ التَّنبيه فيه على أنَّ رحمته العامةَ لا تمنعه عن الغضب، فلا تغترُّوا بها، ولا يخفى أنَّ هذا هو الأنسب للمقام.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ إضرابٌ عن مقدَّر؛ أي: إنهم غير معرضين عن ربهم، وليسوا بغافلين عنه، حتى لا يجدي السُّؤال عنه، كيف وهم يتَّخذون الآلهة ويعبدونها في كلِّ وقت للشَّفاعة عنده تعالى، بل معرضون عن ذكره، فالتذكير يناسب حالهم(١).

وهذا المعنى مع ظهوره من مَساق الكلام، ووضوح انطباقه لمقتضى المقام، قد خفي على النَّاظرين فيه حتى قالوا(٢): لا يُخْطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا كُلِئوا منه عرفوا مَنِ الكالئ، وصلحوا للسؤال عنه.

ولم يتنبَّهوا أنَّه حينئذ لا يبقى وجه للأمر بالسُّؤال، وأيضاً حينئذٍ تضيع عبارة الذِّكر، بل تخلُّ بالمقصود؛ لإيهامها الشُّعور في الجملة.

***

(٤٣) - ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾ تحفظهم مانعين العذاب ﴿مِّن دُونِنَا﴾ أضربَ عمَّا تقدَّم، منكراً لكلاءة آلهتهم ومنعهم من العذاب متجاوزاً منه تعالى، أو من عذاب

---

(١) في هامش (س) و(ف): «فإن الإعراض عن الشيء يكون كناية عن الغفلة والنسيان بخلاف الإعراض عن ذكره فإنه ينبئ عن حضوره في الذهن وشعوره. منه».

(٢) القائل هو الزمخشري وتابعه البيضاوي.

يكون من عنده، بما في ﴿أَمْ﴾ من معنى (بل) والهمزةِ، وهذا الإضراب ليس للإبطال ولا للتَّرقي بل للانتقال من كلام إلى آخر.

قيل: والإضرابان عن الأمر بالسُّؤال على التَّرتيب، فإنَّه عن المعرِض الغافل عن الشَّيء بعيد، وعن المعتقِد لنقيضه أبعد.

وقد عرفْتَ فساد مبناه، ثمَّ إنَّه لا ينتظِم مع ذلك الاعتبارِ ما في الإضراب الثاني من زيادة الإنكار، وبعد اللُّتيا والَّتي قوله[1]: المعتقِد لنقيضه، فريةٌ ما فيها مريةٌ؛ لِـمَا نبَّهت عليه آنفاً.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يجارون، يُقال: صَحِبَكَ الله؛ أي: حفظك وأجارَك، استئناف بإبطال ما ذُكِرَ؛ فإنَّ مَن لا يقدر على نصر نفسه ولا يحفظه الله كيف ينصرُ غيرَه ويحفظه؟!

***

(٤٤) - ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ثمَّ أضرب عن المتوهَّم المتبادِر من ظاهر حالهم بعدما أنكره ببيان أنَّ ما هم عليه من الحفظ والكلاءة إنَّما هو منَّا لا من مانعٍ يمنعهم من إهلاكنا، وإنَّما حفظناهم للاستدراج، وهو تمتيعه تعالى إيَّاهم وآباءهم بما قُدِّرَ لهم من الأعمار، حتى حسبوا بسبب طول[2] مدَّة الإمهال أنَّهم لا يزالون كذلك، وأنَّه بسبب[3] ما هم عليه.

---

(١) في (ك): «قول».

(٢) في (ك): «بطول» بدل «بسبب طول».

(٣) في (س) و(ك): «سبب».

ثمَّ عقَّبه بما يدلُّ على أنَّه أملٌ[١] كاذب وغرورٌ باطل، وهو قوله تعالى:

﴿يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾: أرض الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير ما كان الله تعالى يجريه على أيدي المسلمين، وفي إضافة إتيانهم بأمره إلى نفسه تعظيمٌ لشأنه.

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إنكارٌ لغلبتهم على الرَّسول عليه السلام والمؤمنين بعدَ هذه المغلوبيَّة المتجدِّدة دائماً.

وفي التَّعريف تعريضٌ بأنَّ أعداءهم هم[٢] المعروفون المتعيِّنون بالغلبة دونهم.

* * *

(٤٥) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ﴾: بما أوحيَ إليَّ من الله تعالى، لا مِن قِبَلِ نفسي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وقرئ: ﴿لا تُسْمِعُ﴾ من الإسماع ـ على خطاب الرَّسولِ ـ ونصبِ ﴿ٱلصُّمَّ﴾[٣]، وبالياء على إضماره[٤]، و: (لا يُسْمَعُ) مبنياً للمفعول[٥]، من أُسْمِعَ.

---

(١) في (ف): «أصل».

(٢) «هم» من (س) و(ك)

(٣) قرأ بها ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٤) أي: (يُسْمِعُ) على إضمار الفاعل الذي هو الرسول ﷺ، هكذا ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١١٩) ولم ينسبها. وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي عن اليزيدي عن أبي عمرو: (ولا يُسمِعُ الصُّمَّ الدعاءُ) على إسناد الفعل إلى الدعاء اتساعاً، والمفعول الثاني محذوف، كأنه قيل: ولا يُسمِعُ النداءُ الصمَّ شيئاً. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٢٢٦).

(٥) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

وفي قراءة: ﴿تُسْمِعُ﴾ المبني للفاعل التفاتٌ وتنويهٌ بذكر الرسول وتعظيمٌ له.

وإنَّما سمَّاهم الصُّمَّ ووضعه موضع ضميرهم للدِّلالة على فرط تصامِّهم، وعدمِ انتفاعهم بالأسماع[1]، وإنْ جعلنا اللَّام للجنس كان أبلغَ؛ لِمَا فيه من معنى البرهان بالتَّعميم، ونوع من الكناية، وهو أبلغ مِن التَّصريح.

﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بـ ﴿يَسْمَعُ﴾ لا بـ ﴿الدُّعَآءَ﴾؛ لأنَّه مصدر، فلا يعمل إلَّا منوَّناً.

والتَّقييد به لكون الكلام في الإنذار، وللمبالغة في أنَّهم لا يتأثرون به وقت الإنذار، فضلاً عن أن يسمعوه ثم يَذهلوا عنه، ولكونه كالقرينة في الكناية، كأنَّه أمره بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، ثمَّ قال: ولا يؤثر فيكم، فأنتم صمٌّ، ولا يسمَعُ هذا الجنسُ الدُّعاءَ.

***

(٤٦) ـ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أصل النَّفحِ: هبوب رائحة الشَّيء، ويستعمل في كلِّ قلَّة، يُقال: نفحَتْهُ[2] الدَّابةُ: إذا رمحتْه رَمحاً يسيراً، ونفحه بعطيَّة: إذا رضخه[3]، ففيه مبالغة من جهة مادَّته الدَّالة على معنى النَّزارة، ومن جهة صيغته؛ أي: بناءِ المَرَّة، فإنَّها لأقلِّ ما ينطلق عليه الاسم، ومن جهة تنكيره الدَّال على التَّقليل.

---

(١) في (ف): «بأسماعهم».

(٢) في (ف): «نفحت».

(٣) رضخَ له: أعطاه قليلًا. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: رضخ).

وأمَّا المس فهو أقوى من الإصابة؛ لِمَا في مفهومه من قيدٍ زائد عليها[١]، وهو أنْ تتأثر منه حاسَّة الممسوس[٢]، فإيثاره هنا على الإصابة للدِّلالة على أن عذاب الله تعالى وإنْ كان في غاية[٣] يتأثر منه مَن يصيبُه.

﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: ولئن مسَّهم أدنى شيءٍ من العذاب الذي يُنذَرون به لأذعنوا واعترفوا بظلمهم في تصامِّهم وإعراضهم، داعين على أنفسهم بالويل.

***

(٤٧) - ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾: صفة ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾، ولم يُجمَع لأنَّه مصدر وصفت به للمبالغة كلِّها في أنفسها، عدل، وجاز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: ذواتِ القسط، وقد سبق ما يتعلَّق بوضع الموازين في سورة الأعراف، وما يدلُّ على أنَّه حقيقةٌ لا تمثيل.

واللام في: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للوقت؛ أي: في يوم القيامة.

وقيل: معناه: لجزاء يوم القيامة، أو لأهلهم؛ أي: لأجْلهم، على الحذف.

---

(١) في هامش (س) و(ف): «والقاضي مع اعترافه بهذا على ما صرح به في سورة البقرة كيف قال هنا: (وفيه مبالغاتٌ: ذكرُ المس..). منه».

(٢) في النسخ: «المحسوس»، والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (١٧/ ١١٢). ولم يرتض الآلوسي هذا الكلام.

(٣) لعل المراد: «في غاية القلة».

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ بنقصٍ من ثوابه الموعود، أو زيادةٍ في عذابه المعهود، ويجوز أن يكون معناه: شيئاً من الظُّلم.

﴿وَإِن كَانَ﴾؛ أي: ما يُفعَل به مِنَ النَّقص والزِّيادة أو الظُّلم ﴿مِثْقَالَ﴾: مقدارَ ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وقرئ: ﴿مِثْقالُ﴾ بالرَّفع[1] على (كان) التَّامة.

وتأنيثُ ضمير المثقال في: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ لإضافته إلى الحبَّة، كقولهم: ذهبتْ بعضُ أصابعه.

أي: أحضرناها، وقرئ: (آتينا)[2]، بمعنى: جازينا بها، من الإيتاء، فإنَّه بمعنى الإعطاء[3]، أو من المؤاتاة، فإنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ هذه الثَّلاثة هي التَّوراة؛ فهي فرقانٌ بينَ الحقِّ والباطل، وضياءٌ يُستضاءُ به ويُتوصَّل به إلى سبيل النَّجاة في ظلمات الحيرة والجهالة، وذِكْرٌ؛ أي: شرفٌ، أو وَعْظٌ وتنبيهٌ، أو ذِكْرُ ما يحتاج إليه النَّاس في مصالح دارهم.

---

(١) قرأ بها نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) نسبت لابن عباس ومجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٣) في هامش (ف): «لا قريب منه كما توهم. منه».

ودخلت الواو على الصِّفات كما في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقرئ: (ضياءً) بغير واو[١]، على أنَّه حال من ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾.

ولَمَّا انتفعَ بذلك المتَّقون خصَّهم الله تعالى بقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ومحلُّ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جرٌّ على الوصفيَّة، أو نصبٌ على المدح، أو رفع عليه.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾: القيامة وأهوالها.

﴿مُشْفِقُونَ﴾ الإشفاقُ: خوفٌ مع اعتناء.

وفي تصدير الضَّمير وبناء الحكم عليه مبالغةٌ وتعريضٌ.

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾: كثيرٌ خيرُه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمَّدٍ عليه السلام.

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهامُ توبيخ بعد وضوح إعجازه ووفور بركته.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾: الاهتداءَ لوجوه[٢] الصَّلاح، وإضافتُه ليدلَّ على أنَّه رُشْدُ مِثْله[٣]، وأنَّ له شأناً.

---

(١) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«الكشاف» (٣/ ١٢١).

(٢) في (ف) و(م): «الاهتداء بوجوه»، وفي (ك): «للاهتداء بوجوه». والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ١٢١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٣).

(٣) بإضافة «رشد» إلى «مثله»؛ أي: لتدل إضافة الرشد إلى إبراهيم على أن ما آتاه الله إياه من =

وقرئ (رَشَدَه)، وهو لغة[1].

﴿مِن قَبۡلُ﴾: مِن قبلِ موسى وهارون عليهما السلام، أو: مِن قبلِ محمَّد عليه السلام.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ علمنا أنَّه أهلٌ لما آتيناه، أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الأخلاق.

***

(٥٢) - ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ متعلِّق بـ ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾، أو بـ ﴿رُشۡدَهُۥ﴾، أو بمحذوفٍ؛ أي: اذكر من أوقات رشده وقتَ قوله:

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ تجاهلٌ منه وتَغَابٍ لتحقيرِ شأنها وتوبيخهم على إجلالها؛ فإنَّ التِّمثالَ جمادٌ لا يضرُّ ولا ينفعُ، أصله: الصُّورة المصنوعة مشبَّهةً[2] بمخلوقٍ من مخلوقات الله تعالى، ومنه تمثَّلْتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شبَّهْتهُ به.

واللام للتَّعليل؛ أي: لتعظيمها، و﴿عَٰكِفُونَ﴾ مجرًى إجراءَ اللَّازم، غيرُ منويٍّ

= الرشد هو رشد رسول مثله، وهو رشد خاص كائن مما أوتي مثله من أولي العزم من الرسل. انظر: «حاشية القونوي» و«حاشية ابن التمجيد» (١٢/ ٥٣٥)، وما ذكرناه ملخص كلامهما، فمن أراد التمام فليراجعهما.

(١) نسبت لعيسى الثقفي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢٣٥).

(٢) في (ف): «لشبهه»، وفي (ك) و(م): «شبهه».

المفعـول؛ أي: فاعلـون العكـوفَ لأجلها، وهو اللُّـزوم لأمرٍ من الأمـورِ، أو لتضمُّنِ العكـوف معنـى العبـادة؛ لزيـادة التَّوبيـخِ، ويعضـده مـا فـي جوابهـم[1] مـن قولهم: ﴿لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

* * *

(٥٣) ـ ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ جـوابٌ عـن التَّوبيـخ بأنَّـه طريقـة أسـلافنا، ما أحدثناها.

ولَمَّا ضمَّنوا جوابهم دعوى سواءِ[2] طريقهم بالإسناد إلى الآباء والأجداد، ردَّ عليهم حيث:

(٥٤) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ﴾ تأكيدٌ للمتَّصل في ﴿كُنتُمْ﴾؛ ليصحَّ العطفُ عليه.

﴿وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مستقرُّون في ضلالٍ ظاهر.

والتَّأكيد بالقسم ووصفُ الضَّلال بالمبين؛ لإفادة وضوح استقرار المقلِّدين في ضلالٍ لا يخفى على مَن له أدنى عقلٍ؛ لعدم تمسُّك الفريقَيْن بدليلٍ، والتَّقليد في الأصول غير جائزٍ أصلاً، وفي الفروع إنَّما يجوز لمن علم في الجملة كونَ المقلَّدِ على الحقِّ.

* * *

---

(١) في (ك): «جوابه».

(٢) في (ف) و(ك): «لرد»، والمثبت من (م)، ورسمها في (س) قريب من (م).

(٥٥) ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ لاستبعادهم تضليلَه إيَّاهم وآباءَهم، حسبوا أنَّه إنَّما قال ما قال[1] على وجه المزاح والملاعبة، فقالوا: أبجدٍّ تقولُ أم أنت لاعبٌ؟

وإنَّما غيَّروا النَّظم بإدخال الهمزة على الجملة الفعلية وقرينتها الجملة الاسميَّة لتوطينهم[2] أنفسَهم على أنَّه من اللَّاعبين، ورسوخِ ذلك الاعتقاد عندهم، وأمَّا القِسْمُ الأول فلم يثبت عندهم فأظهروا أنَّه إنْ ثبتَ فشيء اختلجَ في ظنِّه.

* * *

(٥٦) ـ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادَّعاه.

والضَّمير في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ لـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أنشأهنَّ من غير شيءٍ، أو لـ ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾، وهو أَدخَلُ في تضليلهم وإلزام الحجَّة عليهم، فكأنَّه قيل: إنَّه تعالى خالقٌ وهنَّ مخلوقُه، فأنَّى يُعبَد المخلوق ويُجحَدُ الخالق!

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ المذكور من التَّوحيد.

---

(١) «ما قال» سقط من (ك).

(٢) في (ف): «لتوطنهم».

﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من المحققِّين له؛ لأنَّ الشَّاهد هو الذي تحقَّق الشَّيءَ وحققَّه، كأنَّه قال: وأنا أحقِّق ذلك وأُثْبته بالبرهان، لستُ مثلكم فأقولَ ما لا أقدر على إثباته[١] بالحجَّة، وأتمسَّكَ بالتَّقليد كما تمسَّكتم به.

***

(٥٧) ـ ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾.

﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ قرئ بالباء على الأصل[٢]، والتَّاء بدل من الواو المبدلة منها.

والتَّاء في القَسَم تفيد معنى التَّعجب من المقسَم عليه، كأنَّه تعجَّب من تسهُّل ذلك الأمر الصَّعب على يده، ولهذا عبَّر عنه بالكيد المشتمِل على نوعٍ من الحيل.

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الكيدُ: الاحتيال في وصول الضَّرر إلى المَكيد.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾: بعد[٣] ذهابكم عنها.

وعن قتادة: أنَّه قال ذلك سرًّا[٤].

وقيل: سمعه رجلٌ واحدٌ[٥].

فلمَّا ذهبوا بقي إبراهيم عليه السلام فكسر الأصنام، فالفاء في قوله:

---

(١) في (ف): «ثباته».

(٢) نسبت لمعاذ بن جبل. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٢٢)، وزاد في «البحر المحيط» (١٥/ ٢٣٩): الإمام أحمد.

(٣) في (م): «يعني».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٣) عن مجاهد.

(٥٨) ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ فصيحةٌ، والجُذَاذُ: فُعالٌ بمعنى مَفعولٍ ـ كالحُطام ـ من الجذِّ وهو القَطْع، أو جمع جُذَاذة كزُجاجة وزُجاج.

وقرئ بالكسر[١]، وهو لغةٌ فيه، أو جمع جَذيذٍ، كخِفافٍ وخَفيفٍ.

وقرئ بالفتح[٢]، و: (جُذُذاً) جمع جَذيذ، و: (جُذَذاً) جمع جُذَّةٍ[٣].

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: للأصنام، أو للكفَّار. وروي أنه عليه السلام كسرها كلَّها بالفأس إلَّا كبيرَها فعلَّق الفأس في عنقه[٤]:

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾: إلى الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها، فيتبيَّنُ[٥] لهم عجزُه.

وقيل: إلى إبراهيم عليه السلام، فيحاجُّهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ فيَحُجُّهم.

أو: إلى الله؛ أي: يرجعون إلى توحيده عند تحقُّقهم عجز آلهتهم، ويرِدُ عليه أنَّه حينئذ يكون قوله: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أجنبيًّا في البَيْن.

* * *

(١) قرأ بها الكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) نسبت لأبي نهيك وأبي السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢).

(٣) انظر القراءتين في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٢٣) والكلام منه، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢٤٢).

(٤) روي نحوه عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن إسحاق. انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٩٦)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦٣٧).

(٥) في (ف): «فيبين».

(٥٩) ـ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ حين رأوا ذلك بعدَ ما رجعوا:

﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: لشديدُ الظُّلم؛ لجراءته على الآلهة الحقيقَةِ بالإعظام.

***

(٦٠) ـ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بسوءٍ، صفةٌ لـ ﴿فَتًى﴾ مصحِّحةٌ لتعلُّق السَّمع به، وهو أبلغ في نسبة الذِّكْرِ إليه، وقيل: مفعولٌ ثانٍ لسمع، وليس يَثبت.

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ صفةٌ أخرى، و﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ فاعلٌ، يُقال: لأنَّ المراد به الاسمُ لا المسمَّى.

***

(٦١) ـ ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ في محلِّ النَّصب على الحال؛ أي: بمرأًى منهم ومَنظرٍ، بمعنى: معايَناً مشاهَداً متمكِّناً صورتُه[1] في أعينهم تمكُّنَ الرَّاكب على المركوب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما فعله، أو بما يُسمع منه، أو يحضرون عقوبتنا له.

***

(١) في (ك): «صورة»، وسقطت من (ف).

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ بعدما أحضروه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ ﴾ إبراهيمُ عليه السلام:

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ أَسند الفعل إلى السَّبب مجازاً؛ إذ الحاملُ على كسرهم هو؛ لأنَّه لَمَّا غاظه زيادةُ تعظيمهم له تسبَّب لمباشرته إيَّاه.

والأحسنُ الأفصح أنَّه من مَعاريض[١] الكلام، وذلك أنَّه لم يُرِدْ أن ينسبَ الفعل إلى الصَّنم، بل أراد تقريرَه لنفسه على أسلوبِ تعريضٍ مع الاستهزاء بهم بالغاً به غرضَه[٢] من إلزامهم[٣] الحجَّة وتبكيتِهم، لا نفيَه[٤] عن نفسه وإثباتَه للصَّنم؛ لأنَّ إثباته للعاجز ـ والأمر دائرٌ بينهما ـ استهزاءٌ به وإثباتٌ للقادر، وما روي أنه عليه السلام قال: «كذَب إبراهيمُ ثلاثَ كذبات»[٥]، تسميةٌ للمَعاريض[٦] بالكذب لَمَّا شابهت صورتُها صورتَه.

ويجوز أن يكون حكايةً لِمَا يؤدي إليه مذهبهم من جوازه، كأنَّه قال: ليس بمنكرٍ أن يفعل هذا وأشدَّ منه مَن يُدْعى إلهاً.

---

(١) في (ك): «معارض».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «غرضهم»، والمثبت من (س) وهو الصواب.

(٣) في (ك): «إلزام».

(٤) عطف على «تقريره».

(٥) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (ك): «للمعارض».

وقرئ: (فَعَلَّهُ كبيرُهم)[١] بمعنى: فلعلَّه كبيرهم[٢]؛ أي: فلعلَّ الفاعل كبيرهم.

* * *

(٦٤) ـ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ورجعوا إلى عقولهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادةِ مَن لا ينطقُ ولا يمكنه دفعُ الضَّرر عن نفسه، لا مَن ظلمتُموه بقولكم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

* * *

(٦٥) ـ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾ النَّكسُ: جعلُ الشَّيء أسفلَه أعلاه، ومنه نُكِس المريضُ: إذا رجعَ أوَّل حاله.

وهو عبارةٌ عن إطراقهم رؤوسَهم خجلاً، وللمبالغة في هذا المعنى ضمَّنه معنى السُّقوط؛ أي: نُكِسُوا ساقطين ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، وقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ رميٌ عن حيرةٍ، ولهذا[٣] أتَوا بما هو حجَّةٌ عليهم.

وقيل: انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبَّه عَودهم إلى الباطل بصيرورةِ أسفلِ الشَّيءِ أعلاه.

ويَرِدُ عليه أنَّه حينئذٍ يضيع قوله: ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾.

---

(١) نسبت لمحمد بن السميفع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢).

(٢) «كبيرهم»: من (ف).

(٣) في (ف): «ولقد».

وقرئ: (نكِّسوا) بالتَّشديد[١]، و: (نَكَسوا) على البناء للفاعل[٢]؛ أي: نكَسوا أنفسَهم على رؤوسهم.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها؟ وهو على إرادة القول، كان أمرُه ـ عليه السلام ـ بالسُّؤال للتَّوبيخ والتَّبكيت، وحملوه على الحقيقة تجاهلاً، ثم نزَّلوا المخاطب منزلةَ الجاهل بمضمون الخبر، فلذلك أكَّدوه بـ (قد) ولامِ القسم، فكأنَّهم قابلوا توبيخه بنوعٍ من التَّشنيع.

* * *

(٦٦) ـ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ﴾ إنكارٌ لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنَّها جمادات لا تنفع ولا تضرُّ.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ﴾ إنْ عبدتموه ﴿شَيْـًٔا﴾ في موضع المصدر؛ أي: نفعاً مّا ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه.

* * *

(٦٧) ـ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أُفٍّ﴾: صوتٌ إذا صُوِّتَ به عُلِمَ أنَّ صاحبه متضجِّرٌ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وإصرارهم على الباطل بعد وضوح الحقِّ، فتأفَّف بهم.

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«الكشاف» (٣/ ١٢٥).

(٢) نسبت لرضوان بن عبد المعبود. انظر المصدرين السابقين.

واللام في: ﴿لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لبيان المتأفَّف به؛ أي: لكم ولآلهتكم هذا التَّأَفُّفُ.

وقيل: معناه: قبحاً ونَتْناً.

ثمَّ وبَّخهم[1] على تمادي جهلهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أَبَعْدَ وضوحِ الحقِّ وزهوق الباطل لا تدركون قُبْحَ صنيعكم؟!

***

(٦٨) ـ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أخذاً[2] في المضارَّة عند العجز عن المحاجَّة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ بالنَّار؛ فإنَّها أهون ما يُعاقب به وأفظع.

﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فعلاً، وفيه تنزيلٌ لسائر أنواع العذاب منزلةَ العدم في هذا الباب، ولا يخفى لطف هذا التَّعبير البليغ على ذوي الألباب.

***

(٦٩) ـ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ شُبِّهَتِ النَّار لمطاوعتها إرادة الله تعالى وأمرَه بمأمورٍ مطيعٍ لا يتوقَّف في الامتثال عند أمرِ الآمر المُطَاع، وبُولغ في ذلك بإقامة:

---

(١) في (ف) و(ك): «وطنهم».

(٢) في (ف): «أخذ».

كونـي ذاتَ بـردٍ، مقـامَ: ابـرُدي[١]، ثـمَّ حـذف المضـافَ وأقيـم[٢] المضـافُ إليـه مقامه.

﴿وَسَلَٰمًا﴾؛ أي: ابـرُدي بـرداً غيـرَ ضـارٍّ، وقيـل: نصبُـه[٣] بفعله؛ أي: وسـلَّمنا سـلاماً عليه.

روي: أنَّهم وضعوه في المنجنيق مغلولاً فرموه في نارٍ عظيمة[٤]، ولم يحترق منه إلَّا وثاقه، وعلى هذا تكون النَّار على حالها. ولا يناسبه المبالغةُ المذكورة في أمر تبريدها؛ فإنَّها ظاهرة في تحوُّلها[٥] من الحرارة إلى البرودة.

ولا إشعار في قوله: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بعدم التَّحوُّل؛ لأنَّه متعلِّق بقوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لا بقوله: ﴿بَرْدًا﴾، فالمفهوم منه اختصاصُ عدم إضرار البرد به عليه السلام[٦].

* * *

(٧٠) ـ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ احتيالاً في إضراره.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ بتصييرِ سعيهم برهاناً قاطعاً على أنَّه على الحقِّ وأنَّهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

* * *

---

(١) بضم الراء من باب نصر وكرم. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٦٣).

(٢) في النسخ: «وإقامة»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٥).

(٣) في (ف): «نصب».

(٤) في (ف): «عظيم».

(٥) في (ف): «تحويلها».

(٦) في هامش (س) و(ف) و(م): «لا اختصاص برودتها به عليه السلام».

(٧١) ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: من العراق إلى الشَّام.

وبركاتُه الدِّينيَّة العامَّة: بعثُ أكثر الأنبياء عليهم السلام، وانتشار شرائعهم التي هي مَبادي الخيرات في جميع أهل العالم.

وبركاتـه الدُّنيويَّـة: كثـرةُ النِّعم والخصـب بكثرة الـرَّوْضِ[١] والماءِ والشَّـجر، والرُّخـصِ فيه، فهـي الأرض التـي بورك فيهـا مطلقاً.

و﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أبلغ من: باركناها؛ لدلالته على الظَّرفية والاستقرار، فكأنَّ تلك الأرض محيطة لأنواع البركات إحاطةَ الظَّرف للمظروف، وهي مستقرَّة فيها لا تزول عنها.

وروي: أن إبراهيم عليه السلام نزل بفلسطين، ولوطاً[٢] عليه السلام بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة[٣].

* * *

(٧٢) ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ النَّافلةُ: ولد الولد، وهي في الأصل: الزِّيادة والفضل.

قيل: ﴿نَافِلَةً﴾ زيادةً على ما سأَلَ؛ لأنَّه عليه السلام سأل إسحاق فأُعْطِيَه، وأُعْطِيَ يعقوب زيادة على ما سأل وفضلاً، حال مختَّصة، ولا بأس به للقرينة.

---

(١) الرَّوض والرياض: جمع روضة.

(٢) في (ك) و(م): «ولوط».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣١٣) عن ابن إسحاق.

﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: من[1] الأربعة المذكورين ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ لأنَّ الأنبياء هم المصلحون، وشرطُ الإصلاح هو الصَّلاح.

***

(٧٣) - ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدون بهم ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ إلى الحقِّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ للاهتداء أوَّلاً، ثمَّ القيام بالهداية حتى يشملَهم وأممَهم[2] فعلُها، ويتمَّ كمالهم بانضمام العمل إلى العلم.

وأصلُه: أن تُفعل الخيرات، ثم: فِعلاً الخيراتِ، ثم: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بالإضافة، وكذلك قوله:

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو عطف الخاصِّ على العامِّ للتَّفصيل.

وحذف تاء الإقامة المعوَّضة من أحد[3] الألفين لقيام المضاف إليه مقامه.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ مخصِّصين بنا العبادة[4].

***

---

(١) «من» من (ف).

(٢) في (م): «وأمم».

(٣) في (ف): «إحدى».

(٤) في (ف): «العبودية».

(٧٤) ـ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾: حكمةً، وهو فعلُ ما ينبغي فعلُه وجوباً أو ندباً.

وقيل: نبوَّة، أو فصلاً بين الخصوم.

﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمُه للأنبياء عليه السلام.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي سدوم.

﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ﴾ من اللِّواطة وسائر المنكرات التي كانوا يأتونها في ناديهم، وصَفها بصفة أهلها، وأسندَها إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامه، على ما دلَّ عليه التعليل بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ ونكتةُ ذلك الإشعارُ بعلامة السَّببية، فإنَّ للتُّربة تأثيراً في تغيير طبيعة أهلها من السَّداد إلى الفسادِ، ولذلك قال: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: أخلصناه من تلكَ التُّربة الخبيثة.

* * *

(٧٥) ـ ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ﴾؛ أي: في أهل رحمتنا، أو: في الجنَّة.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين سبقَتْ لهم منَّا الحسنى، وهو كالتَّعليل لِمَا تقدَّمَ.

* * *

(٧٦) ـ ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾؛ أي: دعا ربَّه على قومِه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءَه.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الطُّوفان، أو أذى قومه، والكربُ: الغمُّ المفرِط.

* * *

(٧٧) ـ ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ فانتصر[١] ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾ فتعديتُه بـ ﴿مِنَ﴾ بمدلوله إشارةً، لا بما في مفهومه من معنى المنع، ولا بتأويل[٢]: جعلناه منتصراً[٣].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ تعليلٌ لِمَا تقدَّم، وتمهيدٌ لِمَا تأخَّر.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ لذلك ﴿أَجْمَعِينَ﴾ عذاب الاستئصال لشدَّة الغضب، وهي لكمال استحقاقهم له.

* * *

(٧٨) ـ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

---

(١) في (م): «فانتصرنا»، وسقطت من (ف).

(٢) في (ف): «بتأويله».

(٣) في هامش (ف): «فإن الانتصار لازِمُ نصره تعالى لا يتخلف عنه، ففي التَّعدية بذلك الاعتبار تنبيهٌ على أنَّ نصرته تعالى ليس من جنس نصر العباد، فافهم، والله الهادي إلى سبيل الرَّشاد. منه».

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ نصب باذْكُرْ، ﴿إِذۡ﴾ بدلٌ منهما ﴿يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ هو محلُّ الزَّرع.

﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ قال ابن السِّكِّيْتُ: والنَّفْشُ: مصدر نفشْتُ القطنَ وغيره، والنَّفْشُ: أن تَنْفُشَ الإبلُ باللَّيل فترعى[1].

﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ﴾ جمع الضَّمير لأنَّه أرادهما والمتحاكمَينِ إليهما، وقرئ: (لِحُكْمِهِما)[2].

﴿شَٰهِدِينَ﴾: عالِمين.

***

(٧٩) - ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ الضَّمير للحكومة، أو الفتوى.

روي[3] أن داود عليه السلام حكم الغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان عليه السلام - وهو ابن إحدى عشر سنة -: غير هذا أرفق بالفريقَيْن، فعزم عليه ليحكمَنَّ، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود كهيئة يوم أُفْسِدَ،

---

(١) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (١/ ٣٨).

(٢) دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠٨)، ولابن عباس وابن مسعود وابن أبي عبلة في «زاد المسير» (٥/ ٣٧١).

(٣) في (ف): «يروى».

ثـم يتـرادَّان، فقال: القضـاءُ ما قضيْـتَ، وأمضى الحكـم بذلك[١].

وكان ذلك باجتهاد منهما، وهذا كان في شريعتهم، وعدمُ انتقاض حكم الاجتهاد باجتهادٍ آخر في شريعتنا، فلا دلالة فيه على أنَّهما حَكَمَا بالوحي، أو كان حكم سليمان عليه السلام وحدَه بالوحي.

ولَمَّا كان المتبادِر إلى الوهم من تخصيص سليمان عليه السلام بتفهيم الحكومة أنْ لا يكون ما قضاه داود عليه السلام حكماً شرعيًّا دفعَه بقوله:

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالقول السَّابق دلَّ على أنَّ الأصوبَ كان حكمَ سليمان عليه السلام، وهذا القولُ دلَّ على أنَّهما جميعاً على الصَّواب، ففيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ حـال بمعنـى: مسبِّحاتٍ، أو اسـتئنافٌ على تقدير سـؤال سـائل قال: كيف سـخرهنَّ[٢]؟ فقال: يسـبِّحنَ؛ أي: يقدِّسْـنَ اللهَ تعالى. و﴿مَعَ﴾ متعلِّقـة بـه، أو بـ ﴿وَسَخَّرْنَا﴾، وتتمَّة الكلام تأتي في (سـورة سـبأ) بإذن الله تعالى.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو مفعول معه، وإنَّما قدَّم الجبال على الطَّير، وجعلَتْ أصلاً في التَّسبيح؛ لأنَّ تسخيرها وتسبيحها أدلُّ على القدرة، وأدخَلُ في الإعجاز، وأخرقُ للعادة؛ لأنَّها جماد. وقرئ بالرَّفع على الابتداء[٣].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٢٨). رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٢-٣٢٨) عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما.

(٢) في (ك): «تسخرهن».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٧)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٢٦١).

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: قادرين على أمثاله، ليس ببِدْعٍ منَّا وإنْ كان عجيباً عندكم، أو: فاعلين للأنبياء أمثالَ ذلك.

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ اللَّبوسُ: اللِّباسُ، والمراد الدِّرع؛ قال قتادة: كانت صفائح، فأوَّل مَن حلَّقها وسَرَدها داود عليه السلام، فجَمَعَتِ الخفَّةَ[١] والتَّحصين[٢].

﴿لَّكُمْ﴾ متعلِّق بـ (علَّم)، أو صفةٌ لـ ﴿لَبُوسٍ﴾.

﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بدلَ الاشتمال بإعادةِ الجارِّ، والضَّمير لداود عليه السلام، أو لـ ﴿لَبُوسٍ﴾.

وقرئ بالتَّاء للصَّنعة، أو لـ ﴿لَبُوسٍ﴾ على تأويل الدِّرع، وقرئ بالنُّون لله تعالى[٣].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أصله: فهل تشكرون؟ لاقتضاء الاستفهام الفعل، فعدل عن الجملة الفعلية إلى الاسميَّة[٤]، ولم يقل: فهل أنتم تشكرون[٥]؛ لئلا يُفْهَم منه رائحة التَّجدد، ويفهم منه طلبُ دوام الشُّكر، وهو أمرٌ أُخرِجَ

---

(١) في (ف) و(ك): «للخفة»، وفي (م): «الحصنة»، والمثبت من (س) و«الكشاف» (٣/ ١٢٩).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٢٩). وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٩).

(٣) قرأ ابن عامر وحفص: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتَّاء، وأبو بكر بالنُّون، والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٤) في (ف): «اسمية».

(٥) في (ف) زيادة: «أصله»، ولا معنى لها.

فـي صـورة الاسـتفهام، وأُفـرغ فـي هـذا القالـب؛ للمبالغة فـي طلب دوام الشُّـكر مـع التَّقريع.

* * *

(٨١) - ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾: وسخَّرناها له، وإنَّما جيء باللَّام فيه وبـ ﴿مَعَ﴾ في داود عليه السلام على تعلُّقه بـ (سخرنا)؛ لأنَّ نفع تسخير الرِّيح - وهي جريانها بأمره - مختصٌّ به، بخلاف تسبيح الجبال، بعد اشتراكهما في خرق العادة[١].

﴿عَاصِفَةً﴾ وصف الرِّيحَ هنا بالعصف، وهو شدة الهبوب، وفي سورة (ص) بالرَّخاوة لكونها في نفسها رخيَّةً طيِّبةً كالنَّسيم[٢]، وفي فعلها بكرسيه عليه السلام وإذهابِهِ في مدَّةٍ يسيرة عاصفةً.

وقيل: كانت عاصفةً تارة، ورُخاءً أخرى، على حسب إرادته.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾: بمشيئته، حال ثانية، أو بدلٌ من الأولى، أو حالٌ من ضميرها.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ أي: حاملةً لكرسيِّه إليها؛ أي: إلى الشَّام، وكان[٣] منزله بها، وتحمله الرِّيح من نواحي الأرض إليها.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجْريهِ على ما تقتضيه الحكمة.

* * *

---

(١) في هامش (ف): «في تقرير القاضي نوع قصور وخلل، فتأمَّل. منه».

(٢) في (م): «كالنسم».

(٣) في (ف): «وكانت».

(٨٢) ـ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار فيستخرجون نفائسها.

و﴿مَن﴾ منصوب المحلِّ، عطف على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أو مرفوع بالابتداء، و﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ خبره قدِّم[1] عليه، فساغ الابتداء بها وهي نكرة على أنَّها موصوفة.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ويتجاوزون ذلك إلى أعمالٍ أُخَر، على ما فصَّلَ في سورة (ص).

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يميلوا إلى الفساد الذي هو مقتضى جِبِلَّتهم.

***

(٨٣) ـ ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ نصب بإضمار (اذكر)، و﴿إِذۡ﴾ بدل منه.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾؛ أي: بأني، وقرئ بالكسر[2] على إضمار القول، أو تضمُّنِ النِّداء معناه.

﴿ٱلضُّرُّ﴾ بالفتح شائع في كلِّ ضرر، وبالضَّمِّ مختصٌّ بما في النَّفس من مرضٍ وهُزال.

---

(١) في (ف): «مقدم».

(٢) دون نسبة في «الكشاف» (٣/ ١٣٠)، ولأبي عمران الجوني في «زاد المسير» (٥/ ٣٧٥)، ولعيسى بن عمر في «البحر المحيط» (١٥/ ٢٦٨).

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصف ربَّه بغاية الرَّحمة بعدما وصفَ نفسَه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب؛ رعايةً لحسن السُّؤال ولطفه، وقضاءً لحقِّ الأدب.

وكان روميًّا من ولد عيص بن إسحاق عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثر أهله وماله، فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده، وذهاب أمواله، والمرضِ في بدنه ثماني عشرةَ سنة، وقالت له امرأته يوماً: لو دعوْتَ اللهَ تعالى، فقال لها: كم كانت مدَّة الرَّخاء؟ قالَتْ: ثمانين سنة، فقال: أنا أستحي[1] من الله تعالى أن أدعوَه وما بلغَتْ مدَّةُ بلائي مدَّةَ رجائي[2].

* * *

(٨٤) ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ عظيمٍ بالشِّفاء من مرضه.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ لَمَّا كشفَ اللهُ تعالى عنه أَحْيَى ولدَه بأعيانهم، ورزقَه مثلَهم معهم[3].

﴿رَحْمَةً﴾ على أيُّوب ﴿مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: وتذكرةً لغيره من العابدين،

---

(١) في (ك): «أستحيي»، وكلاهما صواب.

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٣١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧) عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة. وخبر ابن مسعود ضعيف لانقطاعه؛ لأنه من رواية الضحاك عنه، وخبر ابن عباس ضعيف جدًّا لضعف رواته.

ليصبروا(١) كما صبرَ، فيثابوا كما أُثِيْبَ في الدُّنيا والآخرة، أو: لرحمتنا للعابدين، وأنَّا نذكُرهم بالإحسان ولا ننساهم(٢).

وإذا أوقعنا الرَّحمةَ والذِّكْرَ على العابدين، ولم نخصِّص الرَّحمةَ بأيُّوب، دخل هو فيهم دخولاً أوَّليًّا، وأفاد أنَّ الرَّحمة والذِّكر بالإحسان إنَّما كانا بسبب العبادة والصَّبر، فكلُّ عابدٍ مرحومٌ مذكورٌ بالإحسان، وكان مِن باب إقامةَ المظهَر مقامَ المضمَر، فكان آكَدَ وأبلغ لإثبات الرَّحمة له بالبرهان.

* * *

(٨٥) ـ ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ﴾ هو إلياسُ عليه السلام، وقيل: يوشعُ، وقيل: زكريَّا، سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان ذا الحظِّ مِنَ الله تعالى، أو تكفَّل أمَّته.

وقيل: كان له ضِعفُ عمل أنبياء زمانه وضِعفُ ثوابهم، والكِفْلُ يجيء بمعنى النَّصيب والكفالة والضِّعف.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كلُّ هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على مشاقِّ التَّكاليف وشدائد النَّوائب.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ﴾ قد سبق تفسيره، وتفسير: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

---

(١) في (ف): «فيصبروا».

(٢) قوله: «أو لرحمتنا للعابدين...» إشارةٌ إلى أن رحمة وذكرى تنازعا قوله: ﴿لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ لا أنه متعلق بذكرى وحده كما في الوجه السابق. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٦٨).

(٨٧) ـ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾: وصاحبَ الحوت يونسَ عليه السلام ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ لقومِه؛ لكثرة ما قاسى في دعوتهم، وشدَّةِ سآمته لطول ما ذكَّرهم فلم يذَّكَّروا، فهاجر عنهم، أو: أغضبهم بمهاجرته لخوفِهم لحوق العذاب بهم، وكان عليه أن ينتظر الإذن، فلم يصبر، وظنَّ أنَّ المهاجرة أولى لكونها للغضب لله ودينه، والبغضِ للكفر وأهله، فابتليَ ببطن الحوت، وهو بناء المغالبة للمبالغة[1]؛ لأنَّ المغالب يُنفذ وسعه في الفعل.

أو بمعنى: مُغْضَباً، وقد قرئ به[2].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ من القَدْر وهو التَّضييق، لا من القدرة، ويعضده أنَّه قرئ مثقَّلاً[3]، ويجوز أن يكون ﴿نَّقۡدِرَ﴾ مخفَّفاً من القدرة، بمعنى: أنْ لن نُعمل قدرتنا فيه.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: في الظُّلْمة الشَّديدة المتكاثفة في بطن الحوت.

---

(١) قوله: «وهو من بناء المغالبة»؛ أي: المفاعلة، واختاره (أي: البيضاوي) لمجانسته المبالغة، ولأنّ التفاعل يكون بين اثنين يَجهد كل منهما في غلبة الآخر، فيقتضي بذل المقدور والتناهي، فاستعمل في لازمه للمبالغة دون قصد مفاعلة. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٦٩).

(٢) نسبت لأبي شرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٣١).

(٣) نسبت لابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢). وقراءة يعقوب المشهورة عنه: ﴿يُقدَر﴾ بالياء مضمومة وفتح الدال. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٤).

وقيل: ظلمات بطن الحوت والبحر واللَّيل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: بأنَّه لا إله إلا أنت، أو بمعنى: أيْ.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أنْ يعجزك شيء.

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجَرة.

***

(٨٨) ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ﴾ بأنْ قذفه الحوت إلى السَّاحل. و﴿ٱلْغَمِّ ۚ﴾: غمُّ الالتقام.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غمومٍ دعَوا الله بالإخلاص. وقرئ: (ننجِّي) مثقَّلاً[(١)].

وفي «الإمام»: ﴿نجي﴾، فلذلكَ أخفى الجماعة النُّون الثَّانية؛ فإنَّها تخفى مع حروف الفم[(٢)]، ومَنْ شدَّد الجيم[(٣)] فوجهُ صحَّته مشكلٌ، لا يكاد يتمشَّى.

---

(١) نسبت للجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٣١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٩). قال الشهاب: قوله: (في الإمام) الإمام اسم للمصحف العثماني، ولا يختص بما كان عنده رضي الله عنه وهو شهيد؛ لتعدده كما بيَّنه القرّاء، وقوله: (نُجي)؛ أي: رسم فيه بنون واحدة، وقوله: (ولذلك...) لا يخفى ما في هذا التعليل، فإنَّ القراءة مبنية على صحة الرواية لا مجرّد متابعة للرسم العثماني كما تُوهمه هذه العبارة، فالظاهر أن يؤوَّل بأن المراد: اختار الجماعة هذا على القراءة بنونين لكونه أوفَق بالرسم العثماني فتأمل، وقوله: (فإنها)؛ أي: النون (تخفى) بالبناء للمعلوم والمجهول، والإخفاء: حالة للحرف بين الإظهار والإدغام، وحروف الفم هي الحروف التي مخرجها من فضاء الفم، وهي ثلاثة: الجيم والشين والضاد، وتسمى: الأحرف الشجرية. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٧٠).

(٣) قرأ ابن عامر وأبو بكر: (نجِّي) بنون واحدة مشدَّداً، والباقون بنونين مخففاً. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٨٩) ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾: وحيداً؛ أي: ارزقني ولداً يرثني.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ استسلام وتفويض بعد السُّؤال؛ لأنَّه اقتراح وجرأة على الله تعالى؛ أي: الأمرُ إليك، فإنْ لم ترزقني فلا بأسَ، وأنتَ خيرُ الوارثين.

***

(٩٠) ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ أي: حسَّنَّا خُلُقَها، وكانت سيِّئة الخُلُقِ.

وقيل: جعلناها صالحة للولادة بعد عُقرها.

وفيه: أنَّ حقَّ النَّظم والتَّرتيب أن يذكر ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾ قبل ﴿وَوَهَبْنَا﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: الأنبياءَ المذكورين ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المسارعةُ: المبادرة، وتعديتُها بـ(إلى)، وإنَّما عدلَ عنها إلى ﴿فِى﴾ للدِّلالة على أنَّهم لا يغترُّون[1] بتحصيل بعض الخيرات، بل يُظهرون الجِدَّ والرَّغبة إلى تحصيل بعضٍ آخر منها، وهذه الدلالة تجعل الخيرات ما فيه المسارعة، لا ما إليه.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: طمعاً وخوفاً، كقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وهما مصدران في موضع الحال، أو المفعولِ له؛ أي:

---

(١) تحتمل في بعض النسخ أو كلها: «يفترون»، والمثبت أوفق بحرف الجر المتعلق به.

للرَّغبة فينا والرَّهبة منَّا، وهو بإشارته إلى أنَّهم يعلمون أنَّ النَّفع والضُّرَّ مِن الله تعالى تمهيدٌ لِمَا دلَّ عليه قوله:

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ من ثباتهم واستمرارهم، على تخصيص الخشوع له تعالى، وقد سبقَ تفسير الخشوع، والمعنى: أنَّهم ما استحقُّوا الإجابة إلى طلباتهم، وما نالوا من الله تعالى ما نالوا، إلَّا بهذه الخِصَال.

* * *

(٩١) - ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ﴾ واذكر التي؛ يعني: مريم، وإنَّما ذكرها بطريق الكناية لأنَّ تنويه الشَّأن بالأسماء حقُّ الرِّجال.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الإحصانُ: إحرازُ الشَّيء عن الفساد، والفاء التفريعية في قوله:

﴿فَنَفَخْنَا﴾ قد دلَّت على أنَّ المراد: حفظُها من الحرام فقط؛ لأنَّ النِّكاح مستحبٌّ، بل سُنَّة قديمة، فلا يصلح الاحتراز عنه منشأً للفضيلة.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: فعلنا النَّفخ في مريم.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾: من جهته، والمراد من الرُّوح: جبريلُ عليه السلام، فإنه نفخ في جيب درعها، فوصل النَّفخ إلى جوفها، وإضافتُه إليه تعالى للتَّشريف.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾؛ أي: حالها وهي ولادتها إيَّاه من غير فحلٍ[1]، ولذلك وحَّدَ قوله:

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «محل»، والمثبت من (س) و«الكشاف» (٣/ ١٣٣).

﴿ءَايَةً﴾ والتَّقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، ويعضدُه قراءة: (آيتين)[(١)].

﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ مَن تأمَّل حالَهما تحقَّق كمال قدرة الصَّانع تعالى.

***

(٩٢) ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمَّة: الملَّة، والإشارة إلى ملَّة التَّوحيد والسَّلام؛ أي: إنَّ هذه الملَّةَ ملَّتُكم التي يجب أن تكونوا عليها.

﴿أُمَّةً﴾: ملَّةً، حالٌ من معنى الإشارة في ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: يُشار إليها أمَّة.

﴿وَٰحِدَةً﴾ غيرَ مختلفةٍ فيما بين الأنبياء عليهم السلام.

قرئ: (أمَّتكم) بالنَّصب على البدل من ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، و(أمَّةٌ) بالرَّفع على الخبر[(٢)].

وقرئ برفعهما[(٣)] على أنهما خبران أو قدِّر للثَّاني مبتدأ على: هي أمَّة.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ ربٌّ واحدٌ لا إلهَ غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ لا غيري.

***

(٩٣) ـ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ كان الخطاب السَّابق عامًّا للنَّاس كافَّة، فالتفتَ إلى الغيبة لينعى على الذين تفرَّقوا في الدِّين وكانوا شيعاً تقبيحَ فعلهم إلى غيرهم؛

---

(١) نسبت لابن مسعود وابن أبي عبلة. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٢١١).

(٢) نسبت للحسن. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٣٤).

(٣) نسبت للحسن وابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«الكشاف» (٣/ ١٣٤).

تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فِرَقاً وأضراباً شتَّى؛ أي: جعلوا أمرَ دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتوزَّع الجماعة الشَّيء ويقسمونه قطعة قطعة[١].

﴿كُلٌّ﴾ ثمَّ توعَّدهم بأنَّ كلَّ واحدة من تلك الفِرَق.

﴿إِلَيْنَا﴾ خاصَّة لا إلى غيرنا ﴿رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم.

* * *

(٩٤) ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ استُعير الكفران لمنع الثَّواب والحرمان كما استُعير الشُّكر لإعطائه وقيل: إنَّ اللهَ شكورٌ[٢]، ونُفِيَ[٣] نَفْيَ الجنس للمبالغة؛ فإنَّه أبلغ من أن يُقال: فلا نكفر سعيه.

ثمَّ بُولِغَ وأكِّد في عدم تضييع سعيه بـ(إنَّ) وتقديم الجارِّ والمجرور فقيل:

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾؛ أي: لذلك السَّعي في صحيفة عمله مُثْبِتون له، فلا تضييع بوجهٍ مّا.

* * *

(١) «قطعة» سقط من (ف) و(م).

(٢) يعني: الكفران مثل في حرمان الثواب، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله: شكور. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٣٤).

(٣) في (ك) و(م): «نفي»، والمثبت من (س) و(ف)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» مع حاشية الشهاب (٦/ ٢٧٣)، وفي «الكشاف» (٣/ ١٣٤): (وقد نفي نفي...).

(٩٥) ـ ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ وَحَرَامٌ ﴾ وقرئ: ﴿وحِرْمٌ﴾[١]، وهما لغتان، كحَلالٍ وحِلٍّ.

﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ أي: ممتنعٌ على أهل قرية.

﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: أردنا إهلاكها باستئصال أهلها.

﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: رجوعُهم إلى التَّوبة أو الحياة، و﴿لَا﴾ صلةٌ، أو: عدمُ رجوعهم للجزاء، و(إنَّ) مع اسمها وخبرها مبتدأ، خبره (حرام).

وقرئ: (إنهم) بالكسر[٢]، على أنَّ الكلام تمَّ قبله، والمبتدأ محذوفٌ دلَّتْ عليه الآية المتقدمة؛ أي: وحرام على قرية أهلكناها ذلك؛ أي: العملُ الصَّالح والإيمانُ والسَّعيُ المشكور غيرُ المكفور، ثمَّ استُؤنف على سبيل التَّعليل، فقيل: إنَّهم لا يرجعون عن الكفر.

وعلى قراءة الفتح أيضاً لا يَبعد هذا الوجه؛ أي: لأنهم لا يرجعون.

***

(٩٦) ـ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾.

﴿ حَتَّىٰ ﴾ هي التي يُحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيُّ الجملة من الشَّرط والجزاء؛ أعني:

﴿إِذَا﴾ وما في حيِّزها.

﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ المفتوح حقيقةً هو السَّدُّ المنسوب إليهما، وإنَّما

---

(١) قرأ بها أبو بكر وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) نسبت للحسن. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤٩٠)، و«الكشاف» (٣/ ١٣٤).

أسند إليهما على التَّجوُّز؛ لعلاقةٍ ظاهرة، ونكتةٍ لا يَخْفَى لطفُ موقعها.

و﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ متعلِّقة بـ ﴿ وَحَرَٰمٌ ﴾، أو بمحذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ أو بـ ﴿لَا يَرْجِعُونَ ﴾؛ أي: يستمر الامتناع، أو الهلاك، أو عدم الرُّجوع، إلى قيام السَّاعة، وفتحُ السَّد من أمارتها كُني به عنه.

﴿وَهُم﴾ يعني: يأجوج ومأجوج ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾: مرتفَعٍ من الأرض، ولفظة ﴿كُلِّ﴾ للمبالغة في الكثرة.

أو المراد النَّاس كلُّهم، ويعضده قراءة ابن عباس رضي الله عنه: (جَدَثٍ) بالجيم والثَّاء[1]، وهو القبر.

﴿يَنسِلُونَ﴾: يسرعون.

* * *

(٩٧) ـ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: القيامة.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب الشَّرط، و(إذا) للمفاجأة سدَّ مسدَّ الفاء الجزائيَّة؛ كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، فإذا جاء الفاء معها تظاهرت على وصل الجزاء بالشَّرط، فيتأكَّد[2]، وتوهُّمُ الجمع بين البدل والمبدَل ساقطٌ؛ لأنَّ (إذا) باقية على حالها، لم تُمحَّض بدلاً حتى يلزم الامتناع.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٣٥).

(٢) في (ف): «فتأكد».

ويجوز أن يكون الضَّمير بعدها ضميرَ القصَّة، و﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ، ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ خبره، وأن يكون ضميراً مبهماً يفسِّره ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ مقدَّر بالقول، واقع موقع الحال من الموصول.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم.

﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسَنا بعدم الاعتبار بإنذار المنذِرين، إضرابٌ عن الإخبار عن استقرارهم في الغفلة، وإبطالٌ له بالاعتراف بما هو الحقُّ.

* * *

(٩٨) - ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أراد الأوثان؛ إذ الخطاب لقريش، لا الشَّيطانَ وأعوانَه؛ لِمَا سيأتي أن (ما تعبدون) لا يتناول ذوي العقول، ولا دلالة على ذلك فيما روي: أنَّه عليه السلام لَمَّا تلا الآية على المشركين قال له ابن الزِّبَعْرَى: خَصَمْتُك وربِّ الكعبة! أليس اليهود قد عبدوا عزيراً، والنَّصارى المسيحَ، وبنوا مليح الملائكة، فقال عليه السلام: «بل هم عبدوا الشَّياطين التي أمرتْهم بذلك»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١][1].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٣٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٩): رواه الطبراني، وفيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة. وانظر: «الكشاف» (٣/ ١٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧٦). ورواه بنحوه دون ذكر الآية الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٨).

وليس فيه تخصيصٌ تأخَّر عن الخطاب؛ لأن (ما) لمن لا يعقل، فلا يتناولهم، دلَّ على ذلك ما رُوي أن النبيَّ[١] عليه السلام قال له: «ما أجهلك بلغة قومك! أما علمت أنَّ (ما) لما لا يعقل»[٢]، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم﴾ الآيةَ لدفع احتمال المجاز والتَّغليب، لا لتخصيص العامِّ كما سبق إلى بعض الأوهام.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الحَصَبُ: ما يُرْمَى به، فَعَلٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي: يُحصب بهم في النَّار، وقرئ بسكون الصَّاد[٣] وصفاً بالمصدر.

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾: استئناف أو بدل من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، واللَّام معوَّضة من (على) للاختصاص والدِّلالةِ على أنَّ ورودهم لأجلها.

* * *

(٩٩) - ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾؛ لأنَّ الورود للنَّار[٤] - وإن لم يلزمه العذابُ على ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] - ليس مِن شأنَّ المعبودِ المختارِ.

﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: العابد والمعبود.

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إنَّما قُرِنوا بآلهتهم لزيادة تعذيبهم؛ فإنَّ ما أصابهم إنَّما أصابهم

---

(١) في (ف): «أنه».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١١١ - ١١٢): لا أصل له، والوضع عليه ظاهر.

(٣) نسبت لابن السميفع. انظر: «المحتسب» (٢/ ٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠١).

(٤) في (م): «في النار».

بسببهم، فإذا قُرِنوا بهم ازداد غمُّهم وحسرتهم للِّقاء المؤذي، ولأنَّهم قدَّروا انتفاعهم في الآخرة بهم، وإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدَّروا لم يكن شيءٌ أبغضَ إليهم منهم، ومن هنا اتَّضح وجهُ خلودها في النَّار.

***

(١٠٠) - ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾: أنينٌ وتنفُّسٌ شديد، وفيه تجوُّزٌ من جهة نسبة فعل البعض إلى الكلِّ، وتغليبٌ من جهة إطلاقهم على مجموع العقلاء وغيرهم، ولا تأثير للتَّغليب في الأوَّل.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهولِ وشدَّة العذاب، وذلك بعد حين؛ لِمَا وردَ في بعض الآيات من مكالمتهم مع[1] خزنةَ النَّار.

***

(١٠١) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾: الخصلة الحسنى، وهي السَّعادة القصوى، أو البُشرى بالثَّواب، أو التَّوفيق للطَّاعة.

﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ بدخول الجنَّة، سبقت الغاية في البداية، فظهرت الولاية في النِّهاية.

وفي عبارة ﴿مُبْعَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يَرِدونها ويقربون منها أوَّلاً، ولـمَّا كان ذلك مظنَّةَ أن يتأذَّوا عنها عند ورودهم إيَّاها وقُربهم منها دفعَه بقوله:

---

(١) «مع» ليست في (ف).

(١٠٢) - ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: صوتَها الذي يُحَسُّ وحركةَ لهبها[1]، حالٌ من ضمير ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ يعني: أنهم في حال سلامتهم عنها وعن آثارها المؤذية يَرِدُونها ويُبعدون عنها.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ الشَّهوةُ: طلبُ النَّفسِ اللَّذَّةَ؛ أي: دائمون في الاستغراق في مشتهياتهم، وتقديم الظَّرف للاختصاص، ومحافظةِ الفواصل.

* * *

(١٠٣) - ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾؛ أي: النَّفخةُ الآخرة[2]؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي: تستقبلهم مهنِّئين.

﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾: يومُ ثوابكم[3]، وهو مقدَّرٌ بالقول.

﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا.

* * *

(١٠٤) - ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

---

(١) في (ف): «صوتها وحركتها التي سجى تلهبها».

(٢) في (ك): «الأخيرة».

(٣) في (ك) و(م): «تقربكم».

والعامل في ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ﴾، أو ﴿الْفَزَعُ﴾، أو ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾.

والطَّيُّ: ضدُّ النَّشرِ، أو: المحوُ، من قولك: اطوِ عنِّي هذا الحديث.

﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكتابِ﴾: كطيِّ الطُّومار لأجل الكتابة، أو: لِمَا يُكْتَب، أو كُتِبَ فيه، ويؤيِّده القراءة على الجمع[١]؛ أي: للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه.

وقيل: السِّجلُّ: مَلَكٌ يطوي كتبَ الأعمال إذا رُفِعَتْ إليه.

وفيه: أنَّ حقَّ التَّشبيه أن يكون بالمعهود المعروف، وطيُّ ذلك[٢] الملَك لم يُعرَف إلَّا مِن هذا الكلام.

وقيل: كاتبٌ كانَ لرسول الله عليه السلام.

وفيه: أنَّه ليس لطيِّه خصوصيَّةٌ زائدة، وتخصيصُ التَّشبيه به يقتضي ذلك.

وقرئ: (السَّجْلِ) كالدَّلْو، و: (السُّجُلِّ) كالعُتُلِّ، وهما لغتان فيه[٣].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعول ﴿بَدَأْنَا﴾، ومحلُّ الكاف النَّصبُ على المصدر، و(ما) كافَّة، أو مصدريَّة؛ أي: مثلَ ما بدأنا أوَّل خلقٍ نعيده.

أو مفعول (نعيد) مضمرٍ يفسِّره ما بعده[٤]؛ أي: نعيدُ أوَّل خلقٍ كما بدأناه.

---

(١) قراءة حفص وحمزة والكسائي، وباقي السبعة بالإفراد. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) «ذلك» من (س) و(ك).

(٣) انظر القراءتين في «الكشاف» (٣/ ١٣٧). والثانية نسبت لأبي هريرة رضي الله عنه وصاحبه أبي زرعة بن عمرو بن جرير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣)، و«المحتسب» (٢/ ٦٧).

(٤) أي: ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعول (نعيد) المضمر الذي يفسره ﴿نُعِيدُهُ﴾ المذكور، وهو ما يسمى النصب =

ويجوزُ أن تكـون الـكاف منصوبـة بفعـلٍ مضمـرٍ يفسِّـره ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ و(مـا) موصولـة و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ نصـب على الظَّـرف[١] لـ ﴿بَدَأْنَآ﴾، أو نصـب على الحال مـن ضمير الموصـول المحذوف المقدَّر[٢] فـي ﴿بَدَأْنَآ﴾؛ أي: نعيدُ مثـلَ الذي بدأنا ونعيـده فـي أوَّل خَلْقِنـا إيَّـاه، أو حـالَ كونـه أوَّل خلـقٍ، شُـبِّهَتِ الإعادة بالإبـداء في تعلُّـق القـدرة بهما على السَّـواء، والمرادُ إثبات صحَّـة الإعادة بالقيـاس على الإبداء؛ لشـمول الإمـكان الذَّاتـي المصحِّـح للمقدوريـة لهمـا؛ أي: كمـا أنَّ أوَّل إيجـاده من عـدم نعيـده ثانياً عـن عدم.

وإنَّما وحَّد ﴿خَلْقٍ﴾ ونكَّر ليفيدَ تفصيلهم واحداً واحداً[٣]، والمعنى: أوَّل الخلائق، كما تقول: أوَّل رجل جاءني، بمعنى: أوَّل الرِّجال، وإنَّما نُكِّرَتْ ووُحِّدَتْ ليفيد تفصيلهم رجلاً رجلاً، هذا تحرير ما قالوا.

والذي يظهر لي: أنَّ الخلق بمعنى المخلوق، وتقييده بالأوَّل لإخراج[٤] المخلوق ثانياً ـ وهو الرُّوح ـ عن متناوَل الكلام؛ لأنَّه في إعادة البدن، وهو المخلوق أوَّلاً؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فتدبَّر.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ مصدر مؤكِّد؛ لأنَّ قوله: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾[٥] عِدَةٌ للإعادة علينا؛ أي: علينا إنجازه.

= على الاشتغال.

(١) في (ف): «الظرفية».

(٢) في (ف): «والمقدر».

(٣) في (ف): «تفصيل واحد واحد».

(٤) في (م): «إخراج».

(٥) في (ف): «نعيد».

﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: عازمين في الأزل على أن نفعل ذلك لا محالة، أو: قادرين على أن نفعل ذلك.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾: في كتاب داود عليه السلام ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ أي: التَّوراة.

﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾: أرضَ الجنَّة، أو الأرضَ المقدَّسة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: عامَّة المؤمنين، أو أمَّة محمَّد عليه السلام.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾؛ أي: فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَاغًا﴾ للغاية، أو: لسبب بلوغ إلى البغية.

﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾: همُّهم العبادة دونَ العادة.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه[1] جاء بما يسعدهم في الدَّارين، ويصلح معاشهم ومعادهم، وازديادُ كفر بعضهم بسببه إنَّما هو من عند أنفسهم وعنادهم لا منه.

---

(١) في (ف): «إنه».

وقيل: كونه رحمة للكفَّار: أمْنُهم به من عذاب الاستئصال والمسخ والخسف، وتأخيرُ عقوبتهم.

***

(١٠٨) - ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (ما) في ﴿إِنَّمَا﴾ كافَّة، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى: إنَّ الذي يوحى إليَّ.

﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لأنَّ المقصود الأصلي من بعثته[1] هو التَّوحيد.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: مخلصون العبادة لله تعالى، على مقتضى الوحيِ المصدَّق بالحجَّة والتَّوحيد ممَّا يصحُّ إثباته بالسَّمع.

***

(١٠٩) - ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا[2] عن التَّوحيد.

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ آذنَ مِن أَذِنَ: إذا عَلِمَ؛ لكنَّه شاع استعماله في الإنذار؛ أي: أعلمتكم[3] ما أمرْتُ به، أو حربي[4] لكم.

---

(١) في (م): «بعثه».

(٢) في (ف): «وتعرضوا».

(٣) في (ف): «أعلمكم».

(٤) تحرفت في النسخ إلى: «جرى»، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٦٢)، و«تفسير أبي السعود» (٦/ ٨٩)، و«روح المعاني» (١٧/ ٢٢٤)

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ نصب على الحال من المخاطَبين؛ أي: مستوين في الإعلام به، أو: مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتُكم به، أو في المعاداة.

أو صفة مصدر محذوف؛ أي: إيذاناً[1] على سواء.

وقيل: أعلمتكم وأنا على سواء؛ أي: عدلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النَّيِّر.

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾: ما توعدونه من غلبة المسلمين، أو من الحشر، لكنَّه كائن لا محالة.

* * *

(١١٠) - ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: ما يجهرون به من[2] الطَّعن في الإسلام.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾: ما تكتمونه من الإِحَنِ والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

* * *

(١١١) - ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾: وما أدري لعلَّ تأخير هذا الوعد افتتانٌ لكم وامتحانٌ لننظرَ كيف تعملون.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: وتمتُّع واستدراجٌ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ليكون ذلك حجَّة عليكم، وليقع الموعَد[3] به في وقتٍ قدَّره فيه بمقتضى حكمته.

---

(١) في (ف): «إنذاراً».

(٢) في (ف): «في».

(٣) في (ف): «الموعود».

(١١٢) ـ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾: اقضِ بيننا وبين أهل مكَّة بالعدل، أمر باستعجال العذاب، فعُذِّبوا ببدر، وكان مقتضى العدل ذلك.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: كثير الرَّحمة على خلقه.

﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾: المطلوبُ منه المعونة.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: ما تصفونه من الحال بأنَّ الشَّوكة تكون لهم، وأنَّ راية الإسلام تخفق أياماً ثم تسكن، فخيَّب الله تعالى آمالهم، وكذَّب ظنونهم، ونصر رسوله عليه السلام والمؤمنين عليهم.

* * *

سُورَةُ الحَجِّ

سُورَةُ الحَجّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أَمرَ بني آدم بالتَّقوى، ثمَّ علَّلَ أمرهم به بفظاعة السَّاعة حيث قال:

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ ليتصوَّروها بعقولهم، ويعلموا أنَّه لا يؤمِّنهم منها سوى التَّدرُّعِ بلباس التَّورُّع، والتَّردِّي برداء التَّقوى، ويُبْقوا على أنفسهم، ويَقوها[1] من الرَّدى[2] بملازمة التَّقوى.

والزَّلزلةُ: شدَّةُ التَّحريك والإزعاج، وأن يُضاعَفَ زليلُ[3] الأشياء عن مقارِّها ومراكزها.

وإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ إضافةُ المصدر إلى الفاعل على التَّجوُّز في الإسناد، كأنَّها هي التي تزلزل الأشياء، أو إلى الظَّرف على إجرائه مجرى

---

(١) في (ف): «وينقوها»، وفي (س) و(ك) و(م): «ويتقوها»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» مع حاشية الشهاب (٦/ ٢٨١). قال الشهاب: أي: يحفظوها، وما في بعض النسخ: (ويتقوها) تحريف.

(٢) في (س) و(ك) و(م): «عن الردى»، والمثبت من (ف)، وليست في «تفسير البيضاوي».

(٣) الزليل: مصدر زَلِلْت: زَلِقت في طينٍ أو مَنْطِقٍ. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: زلل).

المفعول به، أو بتقدير[1] (في) كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

وهذه الزَّلزلة هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ السورة.

عن الحسن: أنها تكون يوم القيامة[2].

وعن علقمة والشَّعبي: عند طلوع الشَّمس من مغربها[3].

وإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ لأنَّها من أشراط السَّاعة.

﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ لَمَّا وصفه[4] بالعِظَم وأبهمها تعظيماً بأنَّها شيءٌ لا يُكتَنَهُ كُنْهُ عظمته، أخذ في تصوير هولها بصورةٍ منكرة[5]، فليسَ المرادُ من قوله:

(٢) ـ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ ذهولَ المرضعة ووضعَ الجنين، بل شدَّةُ الهول، هذا على القول الأوَّل.

والضمير للزَّلزلة، و﴿يَوْمَ﴾ منتصبٌ بـ ﴿تَذْهَلُ﴾، وقرئ: (تُذْهِلُ) معروفاً

---

(١) في (ف): «أو تقدير».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤١)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٣) نحوه عن ابن زيد.

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤١)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٦) عن علقمة في تفسير هذه الآية قال: «قبل الساعة»، وروى عن الشعبي قال: «هذا في الدنيا قبل يوم القيامة».

(٤) قوله: «وصفه» كذا في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: (وصفها).

(٥) في هامش (ف) و(م) و(س): «والقاضي ومن حذا حذوه لم يميزوا في تفسيرهم بين القولين. منه».

ومجهولاً[١]؛ أي: تذهلها الزَّلزلةُ، من الذُّهول، وهو الذَّهاب عن الأمر دهشةً وحيرة، لا من الذَّهْل لأنَّه بمعنى السُّلوِّ، قال الشَّاعرُ:

صَحـا قلبُـه يـا عـزُّ أو كادَ يَذْهَـلُ[٢]

و(ما) مصدريَّة أو موصولة.

والمرضعةُ: هي الَّتي تكون في حال الإرضاع ملقِمةً ثديَها الصَّبيَّ، والمرضعُ التي شأنها أن ترضعَ وإن لم تباشِر الإرضاع.

وأمَّا المعنى على القول الثَّاني ـ وعليه الجمهور ـ أنَّ هولها[٣] بحيث إذا فوجئَتْ به التي ألقمَتْ الرَّضيع ثديَها نزعَتْه مِن فيه وذَهِـلَتْ عنه دهشةً، ولقد أحسنَ مَن قال: تَذهَلُ المرضعةُ عن ولدِها لغيرِ[٤] فِطامٍ، وتضعُ الحاملُ ما في بطنِها لغيرِ تمامٍ[٥].

﴿وَتَرَى﴾: وتظن ﴿ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ حقيقة، لا على التَّشبيه ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ في الواقع.

---

(١) قراءة المبني للمفعول بلا نسبة في «الكشاف» (٣/ ١٤٢).

وقراءة (تُذْهِلُ) بضم التاء وكسر الهاء؛ أي: تذهل الزلزلة أو الساعة (كلَّ) بالنصب. نسبت لابن أبي عبلة واليماني. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٦)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٠٦)، وبلا نسبة في «الكشاف» (٣/ ١٤٢)

(٢) صدر بيت لكثير عزة، وعجزه:

وأضحـى يُريـدُ الصَّـرمَ أو يتبـدَّلُ

انظر: «ديوان كثير عزة» (ص: ١٤٩).

(٣) في (ك): «ذهولها».

(٤) في (ف): «بغير».

(٥) نسب هذا القول للحسن. انظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٦)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٢).

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أذهبَ عقولَهم لشدَّته، وطيَّرَ تمييزَهم بِهَوْلِهِ، فجعلَهم بحيث لا يُفَرَّقُ بينَهم وبينَ مَن يَذهبُ السُّكرُ بعقله وتمييزه.

وإنَّما جمعَ فاعل الرُّؤية أوَّلاً وأفرد ثانياً لأنَّ الأُولى عُلِّقَتْ بالزَّلزلة، والزَّلزلةُ يراها النَّاس كلُّهم، والثَّانيةَ عُلِّقَتْ بكون النَّاس على حال السُّكر، فلا بُدَّ أن يُجعَلَ كلُّ واحدٍ منهم رائياً لأثر السُّكر على صاحبه.

وقرئ: (تُرَى) بالضَّم ونصبِ (النَّاسَ)[1] من أُرِيْتُكَ قائماً، أو: رأَيْتُكَ قائماً[2]، ورفعِه على إسناد (تُرَى) إليهم[3]، [وأنثه] على تأويل الجماعة[4].

و﴿سُكَٰرَىٰ﴾ حال، وقرئ: (سَكْرى) كعطشى[5]؛ إجراءً للسُّكْر مجرى العِلَل.

***

---

(١) نسبت لأبي هريرة وأبي زرعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٢). وسقطت «ترى» من (م).

(٢) في (ف): «أو رُيتك قائما»، وسقطت العبارة من (ك)، والمثبت من (س) و(م)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» مع حاشية الشهاب (٦/ ٢٨٢). والمعنى على الرباعي (أُريتك): تظنُّ أنت الناس سُكارى، أقيم ضميرُ المخاطب مقام الفاعل، ونصب (النَّاسَ) و(سُكَارَى) على أنهما المفعولان الثاني والثالث؛ لأن أُريت مُتعدٍّ إلى ثلاثةٍ، وإن كان من الثلاثي (رأيتُك) فالمعنى: تُظنُّ النَّاسُ سُكارى، أقيم (الناسُ) بالرفع مقام الفاعل، ونُصبَ (سُكَارَى) على المفعولية؛ لأن رأيتُ متعدٍّ إلى اثنين. وجاء في مطبوع «الكشاف» (٣/ ١٤٢): (رُؤِيْتُكَ)، وهي نسخة البخاريين كما قال الطيبي، وزاد: وهو مشكلٌ، فإنا ما وجدنا رأيتُ متعدياً إلى ثلاثة.

(٣) أي: (وتُرَى النَّاسُ) برفع (الناس). وهي في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٦) بلا نسبة، ونسبت في «البحر المحيط» (١٥/ ٣٠٦) للزعفراني وعباس.

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٧).

(٣) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لا يخفى ما في هذا التَّعبير من التَّحقير بشأنه؛ حيث نزَّله بمنزلة مَن احتاج إلى الإخبار عنه بأنَّه من جنس الإنس.

﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾: مَن يخاصِمُ خُصومةً شديدةً.

﴿فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ نزلَتْ في النَّضر بن الحارث، وكان جَدِلاً يقول: الملائكة بنات الله تعالى، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعْثَ بعد الموت[١].

وهي عامَّة في كلِّ مجادلٍ لا يرجعُ إلى علمٍ.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ في جداله وسِيرته، والـمَرِيدُ: المتجرِّدُ للفسادِ.

* * *

(٤) ـ ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾: على الشَّيطان ﴿أَنَّهُۥ﴾: الضَّمير للشَّأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: جعله وليًّا وتبعه.

وقرئ: (إنَّه) بالكسر[٢]، على حكاية المكتوب، أو إضمار القول، أو تضمينِ الكتب معناه.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ خبر لـ ﴿مَن﴾، أو جواب له.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٩) عن ابن جريج، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) نسبها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٧) إلى أبي عمرو، وتعقبه أبو حيان في «البحر المحيط» (١٥/ ٣١٠) بقوله: وليس مشهوراً عن أبي عمرو.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ولا يحصل من ولايته إلَّا الضَّلالُ عن طريق الحقِّ أو الجنَّةِ، والهدايةُ إلى عذاب النَّار، بإغوائه وإغرائه إلى ما يؤدِّي إليه وحمله عليه؛ أي: يلزمه ذلك كأنَّه كُتِبَ عليه إضلال[1] مَن يتولَّاه؛ لأنَّه مجبول عليه.

وقرئ: ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ بالفتح[2] على أنَّه مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: فحقٌّ أنَّه يضلُّه، أو خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: فشأنُه[3] أنَّه يضلُّه، ولا وجه للعطف إلَّا أنْ يُجعَلَ الضَّمير للمجادِل و﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ خبر (أنَّ)، وجاز على هذا أن يكون الضَّمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ له أيضاً.

***

(٥) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً.

وقرئ: (من البَعَثِ) بالتَّحريك كالجَلَبِ والطَّرَدِ[4].

---

(١) في (ف) و(ك): «الضلال».

(٢) وهي قراءة الجمهور، وقرأ: (فإنه) الأعمش، ورويت عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٧)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١٠).

(٣) في (ف): «شأنه».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٧).

وتنوين ﴿رَيْبٍ﴾ للتَّحقير والتَّقليل، ولذلك جيء بكلمة الشَّكِّ؛ أي: اتَّضح دليله، فإنْ بقيَ فيكم أدنى ريبٍ فالنَّظر في بدءِ خلقكم يزيلُه[1].

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ كخلقِ آدم منه، أو من الأغذية المتكوِّنة منه.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي الماء القليل، من النَّطْفِ: وهو الصَّبُّ، والمراد: المنيُّ.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: قطعةٍ من الدَّم الجامد.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي اللَّحمة الصَّغيرة قَدْرَ ما يُمْضَغُ.

﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ يُقال: خَلَّق العودَ: إذا سوَّاه وملَّسه، من قولهم: صخرةٌ خَلْقاءُ: إذا كانت ملساءَ.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ أي: مسوَّاةٍ وغيرِ مسوَّاةٍ؛ كأنَّ اللهَ تعالى خَلَق المُضَغ متفاوتةً[2] في التَّسوية والتَّعديل، فتبع ذلك تفاوتُ النَّاس في الصُّورة والقامة والشَّكل والتَّمام والنَّقص.

أو: مصوَّرةٍ وغيرِ مصوَّرةٍ، أو: تامَّةٍ وناقصةٍ[3].

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التَّدريجِ قدرتَنا وحكمتنا، وأنَّ مَن قدرَ على تغييره وتصويره أوَّلاً قدر على ذلك ثانياً، بل هذا أهون عند العقل وأدخلُ في المقدوريَّة، وإطلاق التَّبيين غير متعدٍّ إلى مفعولٍ؛ إيماءً إلى أنَّ أفعاله هذه يُتبيَّن بها من قدرته وحكمته ما لا يَدخل تحت الذِّكْرِ ولا يُوْصَفُ.

---

(١) في (س): «مزيله».

(٢) في (ك) و(م): «متفاوتاً».

(٣) في (س): «وساقطة».

﴿وَنُقِرُّ﴾: نُثبتُ ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ ثبوتَه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقتُ الوَضْعِ، وعلم منه[1] حالُ قرينهِ المقابلِ له بطريق المفهوم.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ منها ﴿طِفْلًا﴾ حالٌ وُحِّدَت لإرادة الجنس، أو لأنَّه مصدر في الأصل، أو على تأويل: كلّ واحدٍ.

وقرئ: (نُقِرَّ) بالنَّصب وكذا (نخرجَكُمْ) عطفاً على (نبيِّنَ)[2].

والمعنى: إنَّا خلقناكم مدرَّجين لغرضَيْن؛ أحدهما: التَّبيين، والثَّاني: الإقرار في الأرحام حتى تُولَدوا وتنشؤوا وتبلغوا حَدَّ التَّكليف.

والغرضُ في الحقيقة هو الأخير؛ أعني: بلوغَ الأشُدِّ والصُّلوحَ للتَّكليف، لكن لَمَّا كان الإقرار وما تلاه من مقدِّماته صحَّ إدخاله في التَّعليل.

وقرئ بالياء رفعاً ونصباً[3].

و: (نَقُرُّ) بالضَّم[4]، من قررْتُ الماء: إذا صَبَبْتَه.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ الأَشُدُّ: كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتَّمييزِ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يُستَعمل لها واحدٌ، وكأنَّها شدَّةٌ في غير شيءٍ واحدٍ، فبُنِيَتْ لذلك على لفظ الجمع.

---

(١) في (ف): «به»، وسقط من (س).

(٢) نسبت لعاصم ويعقوب. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٨)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١٣). والمشهور عن عاصم ويعقوب كقراءة الجماعة. وهي في «الكشاف» (٣/ ١٤٤) دون نسبة، وعنه نقل المؤلف هذه القراءات.

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٨)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١٣).

(٤) نسبت ليعقوب. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٨).

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشُدِّ، أو قبلَه، أو بعدَه قبل الهرم.

وقرئ: (يَتوفَّى)[1]؛ أي: يتوفَّاه الله تعالى.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: الهَرِمِ والخَرَف.

﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾: ليعودَ كهيئته الأُولَى في أوان طفوليَّته، سخيفَ العقل، قليلَ الفهم.

والاستغراق المستفاد في ذكر ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النَّفي للمبالغة في نسيانِه ما عَلِمَه، وإنكارِه لِمَا عَرَفَهُ.

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾: ميِّتة يابسة، من همدَتِ النَّارُ: إذا صارَتْ رماداً.

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾: تحرَّكَتْ بالنَّباتِ.

﴿وَرَبَتۡ﴾: وانتفخَتْ، وقرئ: ﴿ورَبَأَتْ﴾[2]؛ أي: ارتفعَتْ.

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ﴾: مِنْ كلِّ صِنْفٍ ﴿بَهِيجٖ﴾ البهيجُ: الحسنُ السَّارُّ للنَّاظرِ إليه.

وهـذه دلالـة ثانيـة على البعـث، كرَّرهـا الله تعالى فـي كتابه لظهورهـا وكونها مشاهَدة.

***

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤).

(٢) في النسخ: «أربأت»، والصَّواب المثبت. وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٥). وانظر كذلك: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٦٦)، و«المحتسب» (٢/ ٧٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٥) والكلام منه.

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما ذُكِرَ مِن خلق الإنسان في أطوارٍ مختلفةٍ، وتحويله على أحوالٍ متضادَّةٍ، وإحياءِ الأرض بعد موتها، وهو مبتدأٌ خبرُه:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: حاصلٌ بسببِ أنَّ اللهَ هو الحقُّ الثَّابت الوجودِ في نفسه، الذي تتحقَّق به الأشياء.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأنَّه يقدر على إحيائها، وإلَّا لَمَا أَحيَى النُّطفةَ والأرضَ الميتةَ.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ قدرته لذاته، ونسبتُها إلى الكلِّ سواءٌ، فَلَمَّا دلَّتْ المشاهدة على إحياء بعض الأموات لزم اقتدارُه على الكلِّ.

* * *

(٧) ـ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا ينبغي أن يُرتَابَ فيها؛ لأنَّ التَّغيُّر من مقدِّمات الانصرام وطلائعه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: إنَّه تعالى حكيمٌ لا يُخْلِفُ ميعادَه، وقد وَعَدَ السَّاعةَ والبعثَ، فلا بُدَّ أن يفيَ بما وعدَ، ولَمَّا كان المرادُ إحياءَ موتى الإنسان عبَّر عنها بما هو مِن خصائصهم، فمعنى ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: مَن ماتَ مِن جنسِ الإنسانِ بطريق الكنايةِ.

* * *

(٨) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾: في صفاتِه، فيصفُه بغير ما هو له، نزلَتْ في أبي جهل[١].

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروريٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ كسبيٍّ، فإنَّه غالباً يكون بتعليم الغير وإرشاده ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾؛ أي: وحي.

أي: يجادلُ بتخمينٍ وتقليدٍ، لا بأحدِ هذه الثلاثة.

* * *

(٩) ـ ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ ثنيُ العَطْفِ كنايةٌ عن الكِبْر والخيلاء بالتَّبختُرِ، أو عن الإعراض عن الحقِّ استخفافاً. وقرئ بفتح العين؛ أي: مانعَ تَعَطُّفِهِ[٢].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ للمجادلة.

وقرئ بفتح الياء[٣]، على أنَّ إعراضَه عن الهدى المتمكِّن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروجٌ من الهدى إلى الضَّلال، وأنَّه من حيث هو مؤدَّاه كالغرض له.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ هو ما أصابَه يوم بدرٍ.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾: عذابَ النَّار المحرقة.

* * *

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٦) عن ابن عباس، وفي «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٢٧): (وأكثر المفسرين أنها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى، فهما من فريق واحد، والتكرير للمبالغة في الذم). ويعني بالآية الأولى الآية (٣) من هذه السورة.

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٦).

(٣) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٤).

(١٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: إشارةٌ إلى الخزيِ والعذابِ، وغيَّرَ النَّظمَ بالالتفات إلى الخطاب، وأتى بلفظ البعيد؛ للتَّنبيه، وتعظيمِ الموعَدِ به وتهويله، والإيماءِ إلى تفاقم الخَطْبِ، وإلى أنَّه بسبب ما اقترفه من الكفر والمعاصي.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على ﴿بِمَا﴾؛ أي: وبأنَّ الله تعالى؛ يعني: أنَّ العدلَ هو الذي[1] اقتضى ذلك، لا الظُّلمَ، ولفظ المبالغة لأنَّ قليلَ الظُّلم منه مانعٌ مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منَّا، وللإيماء إلى أنَّ مَن هو في غاية الكمال شأنُه أن يكون وصفُه كذلك.

***

(١١) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طرفٍ من الدِّين، لا في وسطِهِ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ كالَّذي يكون على طرفِ الجيش؛ فإنْ أحسَّ بالظَّفر قَرَّ؛ وإلَّا فَرَّ.

روي أنَّها نزلَتْ في أعاريب قدموا المدينةَ، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه ونُتِجَتْ فرسُه مُهراً سريًّا، وولدَت امرأتُه غلاماً سويًّا، وكثر ماله وما يشتهيه قال: ما أصبْتُ منذ دخلْتُ في ديني هذا إلَّا خيراً، واطمأنَّ[2]، وإنْ كانَ الأمرُ بخلافه قال: ما أصبْتُ إلَّا شرًّا، وانقلَبَ[3].

---

(١) «الذي»: ليست في (م).

(٢) في (ك) و(م) زيادة: «به».

(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٠٧)، «الكشاف» (٣/ ١٤٦) وعنه نقل المؤلف. وروى =

وذِكْرُ الفِتنةِ في مقابلةِ الخيرِ للتَّنبيه على أنَّ الشَّرَّ لا يصدر عنه تعالى قصداً، إنَّما المقصود منه الابتلاء.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ بذهاب عصمته ﴿وَٱلْأَخِرَةَ﴾ بحبوط عمله بالارتداد.

وقرئ: (خاسِرُ) بالنَّصب على الحال وبالرَّفع[1] على الفاعليَّة، أو على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، وعلى الأوَّل يكون من باب وضع الظَّاهر موضع الضَّمير تنصيصاً عليه بالخسران.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾: الظَّاهر الذي لا يخفَى على أحدٍ.

* * *

(١٢) ـ ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ﴾؛ أي: لا يقدرُ على شيءٍ أصلاً، فإنَّ النَّفع والضُّرَّ في التَّعبير بهما عن جميع الآثار كالسَّماء والأرض في التَّعبير بهما عن جميع الأجسام.

وإعادة كلمة ﴿مَا﴾ للدِّلالة على استقلالِ كلٍّ من الوصفَيْنِ المذكورَيْنِ في إخراج موصوفه إلى معرض الذَّمِّ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن المقصدِ، مستعارٌ من ضلالِ مَن أبعدَ في التِّيهِ فطالَتْ وبَعُدَتْ مسافةُ ضلالِه.

* * *

= نحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٧٢ ـ ٤٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما وجمع.

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤٧). والنصب منسوب لحميد ومجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(١٣) ـ ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾.

﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ ﴾ بكونه معبوداً لإيجابه القتلَ في الدُّنيا والعذابَ في الآخرة.

﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ ﴾ الذي يُتوقَّع بعبادته، وهو الشَّفاعةُ والتَّوسُّلُ بها إلى الله تعالى.

وإنَّما قال: ﴿أَقْرَبُ ﴾ ولا قُرْبَ للنَّفع؛ تهكُّماً واستهزاءً بهم.

واللَّام معلِّقة لـ ﴿ يَدْعُواْ ﴾ من حيث إنَّه بمعنى: يَزعم، والزَّعمُ قولٌ مع اعتقادٌ.

وقيل: إنَّها داخلةٌ على الجملة الواقعة مقولاً؛ إجراءً له مجرى (يقول)؛ أي: يقول الكافر ذلك بدعاءٍ وصُراخٍ حين يرى استضراره به.

ويأباه ما في عبارة ﴿أَقْرَبُ ﴾ من معنى التَّفضيل.

ويجوز أن تكون مستأنفة على أنَّ ﴿ يَدْعُواْ ﴾ تكريرٌ للأوَّل، و﴿مَن ﴾ مبتدأ خبرُه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾: النَّاصرُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾: المخالطُ.

***

(١٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ من إثابةِ المؤمن الصَّالح، وعقابِ الكافر الطَّالح، لا دافِعَ له ولا مانِع.

***

(١٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ كلامٌ فيه اختصارٌ، معناه: أنَّ اللهَ تعالى ناصرٌ رسولَه في الدُّنيا والآخرة، فمَن كانَ يظنُّ من حاسديه وأعاديه أنْ لا يفعل ذلك ويغيظه ما يفعل الله:

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فلْيَستفرِغْ وُسْعَهُ في إزالة غيظِه إلى سماءِ بيتِه، كما يفعل مَن بلغَ به الغيظ كلَّ مَبلغٍ، ثمَّ ليختنق. سمَّى الاختناقَ قَطعاً لأنَّ المختنِقَ يقطعُ نَفَسَهُ بحبسِ مجاريه، ومنه قيل للبُهْر: القُطْع[1].

أو فليمدُدْ حبلاً إلى السَّماءِ المُظلَّة وليصعَدْ عليه، ثمَّ ليقطعِ الوَحيَ أنْ ينزلَ عليه.

﴿فَلْيَنظُرْ﴾: ولْيتصوَّرْ في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ هل يُذْهِبُ نصرَ اللهِ الذي يغيظه إنْ فعلَ ذلك!

وسمَّى فعلَه كيداً لأنَّه وضعَه موضعَ الكيدِ، حيثُ اجتهدَ فلم يقدِرْ إلَّا عليه، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه إنَّما كادَ به نفسَهُ.

﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظَه، أو: الذي يَغيظُه من نصر الله.

* * *

(١٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الإنزال، والإشارةُ إلى مصدر الفعل المذكور بعدَه، لا إنزالٍ آخر يُقصد تشبيهُ هذا الإنزال به[2]، فالكافُ مُقْحَمٌ إقحاماً كاللَّازم، لا يكادون يتركونه في لغة العرب وغيرهم.

---

(١) «البهر» بضم الباء: العلة التي تمنع التنفس. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٤٥٤). والقُطع بضم القاف بمعناه. انظر: «القاموس» (مادة: قطع).

(٢) «به» من (م) و(س).

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: أنزلنا القرآنَ كلَّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: واضحاتٍ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾: ولأنَّ الله يهدي به، أو يثبِّتَ على الهداية.

﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته، أو ثباته، أنزله لذلك[1] مبيِّناً.

***

(١٧) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يعني: عبدةَ الأوثانِ.

قيل: الأديان خمسةٌ؛ أربعةٌ للشَّيطان وواحدٌ للرَّحمن. والصَّابئون نوعٌ من النَّصارى، فلا تكون ستَّةً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في الأحوال والأماكن، فلا يجازيهم جزاءً واحداً، ولا يجمعهم في موطنٍ واحدٍ، أو: بالحكومة بينهم وإظهارِ المُحِقِّ منهم مِن المُبْطِلِ.

وإنَّما دخلَتْ ﴿إِنَّ﴾ على كلِّ واحدٍ من طَرَفي الجملة لمزيد التَّأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالمٌ به، مراقِبٌ لأحواله، فلينظرْ كلُّ امرئ معتقدَه وقولَه وفعلَه. وهو أبلغُ وعيدٍ.

***

---

(١) في (م): «أنزله كذلك».

(١٨) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلمْ علماً يقومُ مَقامَ العَيانِ.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استُعِيرَ السُّجودُ للانقياد والمطاوعة لِمَا يريدُ الله تعالى من الأفعال؛ لأنَّه هيئةٌ من هيئات المكلَّف، لا هيئةَ أدَلَّ منها على الذِّلَّةِ والتَّسخير.

و﴿مَن﴾ يعمُّ أولي العَقلِ وغيرهم للتَّغليب، فيكون قوله:

﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذِّكْرِ لِشُهرَتِها واستبعادِ ذلك منها في العادة.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تخصيصٌ بعدَ التَّعميم؛ للإيماءِ إلى أنَّ مِن النَّاس مَن لا ينقاد لحكمِه ولا يتسخَّر لأمره.

ولا يلزمُ مِن[1] عطفِه على سائر السَّاجدين المحذورُ عند[2] الجمهور ـ لِمَا فيه مِن استعمال اللَّفظ الواحد مجازاً وحقيقةً في حالة واحدة ـ إذ يجوز أن يُجْعَلَ فاعلَ فعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه ﴿يَسْجُدُ﴾؛ أي: يسجد له كثيرٌ مِنَ النَّاسِ السُّجودَ الحقيقيَّ، ويجوز أن يكون مبتدأً محذوفَ الخبر، مدلولاً عليه بخبرِ قسيمه؛ أي: حَقَّ له الثَّواب، أو الخبر مذكور[3] على ما سيأتي.

---

(١) «من» سقط من (ك) و(م) و(س).

(٢) في (ك): «المحذور عن».

(٣) في (ف): «المذكور».

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ بكفرِه وإبائِه عن الطَّاعة، ويجوز أن يكون (كثيرٌ) الثَّاني تكريراً للأوَّل مبالغةً في تكثير المحقوقِين بالعذاب، وأن يُعطَفَ به على السَّاجدين بالمعنى العامِّ، موصوفاً بما بعدَه.

وقرئ: (حقٌّ) بالضَّمِّ، و(حقًّا)[1]؛ أي: حقَّ عليهم العذاب حقًّا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأنْ حكم عليه بالشَّقاوة.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ يجعله سعيداً، وقرئ بالفتح[2] بمعنى الإكرام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾ من الإهانة والإكرام.

***

(١٩) ـ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾.

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾؛ أي: فريقان يختصمان، ولذلك قال: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ حملاً على المعنى، ولو عكَس وقال: هؤلاء خصمان اختصما، جاز. والمرادُ بهما: المؤمنون والكافرون.

﴿فِي رَبِّهِمۡ﴾ في دينِه، أو: في ذاته وصفاته.

روي أنَّ أهل الكتاب والمؤمنين تخاصموا، فقال أهلُ الكتاب: نحنُ أحقُّ بالله وأقدم منكم كتاباً، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله، آمنَّا

---

(١) نسبت الأولى لجناح بن حبيش، والثانية ذكرها ابن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٧) والكلام منه.

(٢) بفتح الراء، ذكرها أبو معاذ كما قال ابن خالويه، ونسبت لابن أبي عبلة كما ذكر غيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١١٣)، و«البحر» (١٦/ ٣٣٠).

بمحمَّـدٍ ونبيِّكـم، وبمـا أنـزل الله من كتـابٍ، وأنتـم تعرفون نبيَّنـا وكتابَنا ثـمَّ كفرتم به حسـداً. فنزلَتْ[(١)].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فصلٌ لخصومتهم، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: ١٧].

﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ علـى مقاديـر جثثِهـم ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ نيـرانٌ تُحِيـطُ بهـم إحاطةَ الثِّياب.

واختير لفظ الماضي لأنَّه كائن لا محالة.

﴿يُصَبُّ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾.

﴿مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾: الماء الحارُّ.

***

(٢٠) ـ ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾: حالٌ من ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾، أو مِنَ الضَّمير في ﴿رُءُوسِهِمُ﴾، والصَّهرُ: الإذابةُ. وقرئ بالتَّشديد[(٢)] للتَّكثير.

﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مـن الشُّـحوم ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ فأنَّـى اللحـوم؟! أي: يؤثـر من فرط حرارتـه فـي باطنهـم تأثيره فـي ظاهرهم، فيُـذابُ ما فـي باطنهـم[(٣)] وظاهرهم.

***

---

(١) روى نحوه الطَّبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(٣) في (م): «بطونهم».

(٢١) ـ ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: سِياطٌ منه، جمع مِقْمَعة[١]، وحقيقتُها: ما يُقْمَعُ به؛ أي: يُكَفُّ بعنف.

* * *

(٢٢) ـ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من النَّارِ ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدلُ اشتمالٍ من ﴿مِنْهَا﴾ بإعادة الجارِّ، أو الأُولى لابتداء الغاية، والثَّانيةُ بمعنى: مِن أَجْل؛ يعني: كلَّما أرادوا الخروجَ مِنَ النَّار مِن أجلِ غَمٍّ يلحقهم.

وإرادةُ الخروجِ كنايةٌ عن القرب منه، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧][٢].

﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ بالمقامِع. والمرادُ إعادتُهم إلى معظم النَّار، لا أنَّهم يخرجون منها ثمَّ يعودون إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، ولقوله: ﴿فِيهَا﴾ دون: إليها.

﴿وَذُوقُوا﴾؛ أي: وقيل لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: النَّارَ البالغةَ في الإحراق.

ثمَّ ذكر جزاء الخصم الآخر بقوله:

* * *

(١) في هامش (س) و(ف): «بكسر الميم المقرعة يقمع بها المضروب. منه».

(٢) في هامش (ف) و(م) و(س): «ولو كان مساق الكلام على خروجهم لقيل: كلما خرجوا منها أعيدوا؛ إذ حينئذ يضيع ذكر الإرادة، وما روي عن الحسن: أنَّ النَّار تضربهم بلهبها صريحٌ في أنَّ الإرادة ليست على حقيقتها. منه».

(٢٣) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ تغييرُ النَّظم في التَّفصيل بترك العطف، واستئنافِ الكلام، وإدخال حرف التَّأكيد، وإسناد الإدخال إلى الله تعالى، تعظيمٌ لشأن المؤمنين وإحمادٌ لحالهم.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من حَلِيَتِ المرأةُ: إذا لبست الحليَّ، فهي حاليَةٌ، شُدِّدَ للنَّقل[١]، وقرئ مخففاً مبنيًّا للمفعول[٢].

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف، والأساور: جمع أَسْوِرة، وهي جمع سِوَارٍ.

﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانٌ له.

﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ عطف على ﴿أَسَاوِرَ﴾، أو ﴿ذَهَبٍ﴾ على أنَّها مرصَّعة [به][٣].

وقرئ منصوباً[٤] على إضمار فعلٍ؛ أي: يلبسون أو يُؤتون، أو عطفاً على محلِّ الجارِّ والمجرور.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ تغيير الأسلوب فيه للدِّلالة على أنَّ الحريرَ لباسُهم المعتاد، مع رعاية الفاصلة.

***

(١) أي: شدد الفعل للنقل من اللزوم إلى التعدية. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٣٣٤).

(٢) أي: (يُحْلَون). انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٣٣٤).

(٣) أي: على أن الأساور مرصعة به. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٦٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) قرأ نافع وعاصم: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصب، وباقي السبعة بالخفض. انظر: «التيسير» (٦/ ٧٥).

(٢٤) ـ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أُبهم الفاعل، ولم يُقل: (وهداهم الله)؛ إيفاءً لحقِّ التَّعظيم، وأُبهمَ القولُ، وجيء بـ ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ ثمَّ بُيِّن تفخيماً لشأنه، وإيماءً إلى أنَّه هذا الملقَّبُ بالطَّيِّب، وهو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، أو كلمةُ التَّوحيد.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كرَّر ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ تنبيهاً على أنَّ كلَّ واحدٍ منها أمرٌ مرضيٌّ بالأصالة، تامٌّ معتدٌّ به في الهداية إليه.

واختير اسم ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ من أسماء الله تعالى للإشارة إلى خصوصيَّة القول الطَّيِّب؛ أي: إلى طريق المستحِقِّ لذاته الحمدَ، وهو الله تعالى، أو أرادَ: المحمود عاقبتُه، وهو الإسلام.

وقيل: طريق الجنَّة، وأضيف إلى الله تكريماً للجنَّة بنسبتها إليه، وأن طريقَها طريقُه.

* * *

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه جواب الشَّرط؛ أي: إنَّ الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧]؛ أي: يواظبون على الصُّدود، وهو الصَّرف عن الخير خاصَّة، وليس المراد الحالَ أو الاستقبال، بل

استمرارُ وجودِ الصَّدِّ منهم في جميع الأزمان، كقولهم: فلانٌ يُحسن للفقراء[١] ويكرم الضِّيفان، ولذلك حَسُن عطفه على الماضي.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ مطلقاً من غير فرقٍ بين حاضر وبادٍ، فإنْ أُرِيدَ بالمسجد الحرام مكَّةُ، ففيه دليلٌ على أنَّه لا يجوز بيع أرض مكَّة ولا إجارتُها، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠] لأنَّ الإضافة باعتبار أنَّهم يملكون البناء، ولا شراءَ عمر رضي الله عنه داراً يسجنُ فيها؛ لأنَّه اشترى البناءَ دونَ الأرضِ[٢].

وإن أريد به البيت فالمعنى: أنَّه قِبلةٌ لجميع النَّاس، والأوَّل هو الظَّاهر؛ لقوله تعالى:

﴿سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ﴾: المقيمُ بمكَّة ﴿وَٱلْبَادِ﴾؛ أي: السَّاكنُ في البادية؛ أي: ليسَ لأحدٍ أن يمنعَ أحداً عنه.

قيل: كانت بيوتُ مكَّةَ لا يُتَّخذُ لها أبوابٌ حتى ظهرَتِ السَّرقةُ فيهم، فقال عمر رضي الله عنه لرجلٍ منهم ـ وهو أوَّل مَنِ اتَّخذ باباً ـ: اتخذْتَ باباً لتحتَجِبَ به؟ فقال: لا، ولكنْ أحرزْتُ المتاعَ عن السَّرقة. فقال له: إنَّه لا يحلُّ لأهل مكَّة أن يأخذوا أجورَ بيوتهم[٣].

---

(١) في (ف) و(م) و(س): «الفقراء».

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٢١٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٢٠١)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٠٧٦).

(٣) لم أجده.

وفي جوازِ بيعِ أرضِ مكَّةَ عن أبي حنيفةَ روايتان؛ قال في «الجامع الصغير»: لا يجوز[١].

وروى ابن زياد عنه أنَّه يجوز[٢].

و﴿لِلنَّاسِ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، و﴿سَوَآءً﴾ خبر مقدَّم، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مبتدأٌ، والجملة حالٌ، أو مفعول ثانٍ، و﴿لِلنَّاسِ﴾ حال.

وقرئ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصب[٣] على أنه مفعول ثانٍ أو حالٌ.

و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مرفوع على الفاعلية؛ أي: مستوياً العاكفُ فيه والباد، وقرئ: (العاكفِ) بالجرِّ[٤] على أنَّه بدل من (النَّاس).

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ تُرِكَ مفعولُه ليتناولَ كلَّ متناوَلٍ، وقرئ بالفتح[٥] من الورود.

﴿بِإِلْحَادٍ﴾ الإلحادُ: العدولُ عن القَصْد، وأصلُه: إلحادُ الحافرِ.

﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حقٍّ.

وهما حالان مترادفان، أو الثَّاني بدل من الأوَّل بإعادة الجارِّ، أو صلةٌ له؛ أي:

---

(١) ونص قوله: (ولا بأس ببيع بناء بيوت مكة ويكره بيع أرضها)، وقال في شرحه: (قوله: ويكره بيع أرضها، هذا عند أبي حنيفة، وعندهما لا بأس ببيع أرضها أيضاً لأنها مملوكة لهم كالبناء، ولأبي حنيفة أن مكة حرة محرمة بالنص فلا يجوز بيعها). انظر: «الجامع الصغير وشرحه النافع الكبير» (ص: ٤٨١).

(٢) انظر: «عيون المسائل» للسمرقندي (ص: ٢٦٧).

(٣) قرأ حفص بالنصب والباقون بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١١٥٧).

(٤) نسبت للأعمش في رواية. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١١٥).

(٥) حكاها الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

ملحداً بسبب الظُّلم، كالإشراك واقتراف الآثام، وعلى قراءة فتح الياء في (يَرِدْ) تكون الباء في ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ للتَّعدية؛ أي: ومن أتى فيه بإلحاد ظالماً.

﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب لـ (مَن).

***

(٢٦) - ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: واذكرْ حين جعلنا لإبراهيمَ مكانَ البيت مباءةً؛ أي: مرجعاً يَرجع إليه للعبادة، ولَمَّا كان المقصود من التَّبوئة العبادةَ فُسِّرَتْ بالنَّهي عن الشِّرك والأمرِ بتطهير البيت، فـ ﴿أَن﴾ في قوله:

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ مفسِّرةٌ، كأنَّه قيل: تعبَّدْنا إبراهيم قلنا له: لا تشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي عن الأوثان والأقذار أنْ تُطرح حوله للطَّائفين والمصلِّين، وإنَّما عَبَّرَ عن الصَّلاة بأركانها للدِّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعَتْ.

وفصلَ بين الأوَّلِ والأخيرَيْنِ بالواو، وجمع بينَ الأخيرَيْن بغير واو؛ لأنَّ القيامَ تعظيمُ اللهِ تعالى، والرُّكوعَ والسُّجودَ تذلُّلٌ له، فاتَّحد هذان وغايرهما[١] الأوَّل.

وقيل: هي مصدريَّة موصولة بالنَّهي؛ أي: فعلنا ذلك لئلَّا تُشرك بعبادتي، وتطهِّرَ[٢] بيتي.

***

(١) في النسخ: «وغيرهما»، والصواب المثبت.

(٢) أي: ولتطهر بيتي، وفي (م): «وطهر».

(٢٧) ـ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾: نادِ فيهم. وقرئ: (آذِنْ) من الإيذان[١].

﴿بِٱلۡحَجِّ﴾ بدعوته والأمر به. والحجُّ: القصْدُ البليغُ إلى مقصدٍ منيعٍ.

روي أنَّه[٢] عليه السلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها النَّاس، حجُّوا بيتَ ربِّكم، فأجابَ مَن قُدِّرَ له أن يحجَّ من الأصلاب والأرحام بـ: لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْكَ[٣].

وعن الحسن: أنَّه خطابٌ لرسول الله ﷺ، أُمِرَ أنْ يفعلَ ذلك في حجَّة الوداع[٤]. والأوَّل أظهر.

وجواب الأمر: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾: مشاةً، كقائم وقيام.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ معطوف على (رِجَال)، كأنَّه قال: رجالاً وركباناً. والضَّامِرُ: البعيرُ المهزولُ.

والإطناب المعنوي، وزيادة لفظ ﴿كُلِّ﴾؛ للمبالغة في تعميم الأمر لكلِّ مَن يقدر على المركب ولو ضعيفاً، وقدِّم الرِّجال على الرُّكبان إظهاراً لفضيلة المشاة، كما ورد في الحديث[٥].

---

(١) نسبت للحسن وابن محيصن. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١١٧).

(٢) أي: إبراهيم عليه السلام.

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٠٩٩) عن علي، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهم.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ١٨)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٢).

(٥) لعله يقصد ما رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ٧)، والبزار في «مسنده» (٤٧٤٥)، وابن خزيمة في =

﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمع، وقرئ: (يأتون)[١] صفة للرِّجال والرُّكبان، أو استئناف فيكون الضمير للناس.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾؛ أي: طريق واسع.

﴿عَمِيقٍ﴾ وإنَّما عبَّرَ عن البعد بالعمق ليناسب الغرض المعتبَر في مفهوم الفجِّ[٢].

وقرئ: (مَعِيْقٍ)[٣]، والمعنى واحد.

***

(٢٨) ـ ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾: ليحضروا، متعلِّق بـ﴿وَأَذِّن﴾، أو ﴿يَأْتُوكَ﴾.

= «صحيحه» (٢٧٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١٦٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج ماشياً كتب له بكل خطوة سبع مئة حسنة من حسنات الحرم» قال بعضهم: وما حسنات الحرم؟ قال: «بكل حسنة بمئة ألف حسنة». وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بقوله: ليس بصحيح. وقال البوصيري في «إتحاف المهرة» (٣/ ١٥١): رواه أبو يعلى، ورجاله على شرط مسلم إلا أنه منقطع، ورواه ابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وصححه، والبيهقي وقال: تفرد به عيسى بن سوادة وهو مجهول، وقال ابن خزيمة: إن صح الخبر؛ فإن في القلب من عيسى بن سوادة. قال الحافظ المنذري: قال البخاري: منكر الحديث. قلت: وكذا قال أبو حاتم، وقال ابن معين: كذاب رأيته. وانظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/ ١٠٧).

(١) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(٢) في (م): «الحج».

(٣) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٥٢)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٠).

﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ دينيَّةً ودنيويَّة، وتنكيرها لأنَّ المراد نوعٌ منها مختصٌّ بهذه العبارة.

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ عندَ إعداد الهدايا والضَّحايا وذبحها.

وقيل: كُني بالذِّكر عن النَّحْرِ لأنَّ ذبح المسلمين لا ينفكُّ عنه؛ تنبيهاً على أنَّه المقصود ممَّا يُتقرَّب به إلى الله تعالى.

﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ هي عشر ذي الحجَّة وأيَّام النَّحر ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ الله ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ علَّقَ الفعل بالمرزوق وبيَّنه بالبهيمة تحسيناً للكلام بنوعٍ من البلاغة لم يوجد في غير هذه العبارة، وتنبيهاً على الكناية بالقرينة، وتعظيمُ المرزوق بالإبهام والتَّوضيح للتَّحريض على التَّقرُّب به، وقد سبق في (المائدة) ما يتعلَّق بتفسير ﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[1].

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمر إباحةٍ؛ إزاحةً لِمَا عليه أهل[2] الجاهلية من التَّحرُّج فيه، أو ندباً لِمَا فيه من مواساة الفقراء ومساواتهم، واستعمالِ التَّواضع، وهذا في هَدْي التَّطوُّع والمتعة والقِران؛ لأنَّه دمُ[3] نُسكٍ فأشبهَ الأضحية دونَ سائر الهدايا.

﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ﴾: الذي أصابه بأسٌ؛ أي: شدَّة ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾: المحتاج. الأمر فيه للوجوب، وقد قيل به في الأوَّل.

---

(١) تفسير سورة المائدة غير موجود كاملاً والموجود منها في بعض النسخ إلى الآية رقم (١٢) منها، وقد نبهت النسخ كلها كما تقدم على ذلك.

(٢) «أهل» ليست في (ف).

(٣) في (ف): «لأنه عليه السلام»، ولعله وهم من الناسخ، ظن (دم): (ع م) وهي في أكثر النسخ رمز لـ(عليه السلام).

(٢٩) ـ ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾: ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم، كذا قال نفطويه[١].

وقيل: قضاء التَّفث: قصُّ الشَّارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، وذلك عند الإحلال، ولذلك صدَّره بكلمة التَّراخي.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾: مواجبَ حجِّهم، والعرب تقول لكلِّ مَن خرج عمَّا وجبَ عليه: وفَّى بنذره وإن لم ينذر، أو: ما ينذرونه من أعمال البرِّ في حجِّهم.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ طوافَ الزِّيارة الذي هو ركن الحجِّ، ويقع[٢] به تمامُ التَّحلُّل.

وقيل[٣]: طواف الوداع.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: القديم؛ لأنَّه أوَّل بيت وُضِعَ للنَّاس، أو: الكريم، ومنه: عِتاق الخيل، لكرائمها، وعتاق الرَّقيق: الخروج مِنْ ذُلِّ[٤] العبودية إلى كرم الحريَّة، أو: المعتَق من الغرق لأنَّه رُفِعَ من الطُّوفان، أو مِنْ تسلُّط الجبابرة، فكم مِن جبَّار سارَ إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى، وأمَّا الحَجَّاجُ فإنَّه قصدَ إخراج ابن الزُّبير رضي الله عنه ـ الذي تحصنَ[٥] به ـ منه، دون التَّسلُّط عليه.

***

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٣/ ٢٢٢)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٤٣٧). ونفطويه هو إبراهيم بن محمد بن عرفة توفي سنة (٣٢٣هـ). ويعرف بابن عرفة وبنفطويه.

(٢) في (ف) و(ك): «قد يقع».

(٣) في (ك): «وقبل».

(٤) في (ك) و(م): «عن ذل».

(٥) في (م): «تحصر».

(٣٠) - ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمرُ ذلك، وهو وأمثاله للفصل بين كلامَيْن.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الحرمة: ما لا يَحلُّ هتكُه[1]، وجميع ما كلَّفه الله تعالى بهذه الصِّفة، فيجوز أن يكون عامًّا في جميع أحكامه، وأن يكون خاصًّا فيما يتعلَّق بالحجِّ.

وقيل: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: البيت الحرام، والمشعَر الحرام، والشَّهر الحرام.

﴿فَهُوَ﴾؛ أي: التَّعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ والتَّعظيمُ: القيامُ بمراعاتها مع اعتقاد أنَّها واجبة المراعاة.

﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: في الآخرة.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمُه، وهو ما حُرِّمَ منها لعارض كالميتة وما أُهلَّ به لغير الله، فلا تحرِّموا منها[2] غيرَ ما حرَّم الله تعالى كالبَحيرة والسَّائبة.

وفي عبارة ﴿يُتْلَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ التَّحريم لا يكون إلَّا من الشَّارع بنصٍّ متلوٍّ.

---

(١) في (ف): «اهتكه».

(٢) في (ف): «فيها»، وسقطت من (س). والمثبت من (ك) و(م) وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٠).

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ صدَّره بالفاء السَّببيَّة لأنَّه لَمَّا حثَّ على تعظيم حرمات الله تعالى لزم وجوب المحافظة على حدوده وأعظمُها التَّوحيد، فدخل وجوب الاجتناب من عبادة الأوثان فيه دخولاً أَوَّليًّا، وتسبَّبَ منه .

و﴿مِنَ﴾ للبيان؛ أي: الرِّجسَ الذي هو الأوثان، وهو غاية المبالغة في النَّهي عن تعظيمها، حيث سمَّاها ﴿ٱلرِّجْسَ﴾، وعرفه بلام الجنس، وأمر بالاجتناب عن عينه، وبيَّنه بـ ﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾، كأنَّ جنس الرِّجس ما هو الأوثان، كلُّ ذلك تنفيراً عن عبادتها خصوصاً جَعْلُها الرِّجس الذي ينفر الإنسان عنه بطبعه .

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ قرنه بالشِّركِ في وجوب الاجتناب عنه، ولم يعطف، بل كرَّر (اجتنبوا) تنبيهاً على أصالة تحريمه، وتعميماً لِمَا ذُكِرَ؛ فإنَّ الشِّركَ يلزمه قول الزُّور؛ إذ المشرك يدَّعي ألوهيَّةَ الوثن، ويدخل فيه تحريم البَحائر وغيره من مفترياتهم[1]، فيكون كالعلَّة لتحريم الشِّرك بتحريمِ لازِمه الأعم.

وقيل: المراد بـ ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: شهادةُ الزُّور؛ لِمَا روي أنَّه عليه السلام قال: «عَدَلَتْ شهادةُ الزُّور الإشراكَ بالله» ثلاثاً، وتلا هذه الآية[2].

والأظهرُ العمومُ ليتناول الشَّهادةَ وسائرَ الأكاذيب.

---

(١) في (ك) و(م): «مقترحاتهم».

(٢) رواه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢)، من حديث خريم بن فاتك رضي الله عنه. قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٩): إسناده مجهول.

والزُّورُ: مِنَ الزَّوَرِ، وهو الانحراف، كما أنَّ الإفْكَ مِن الأَفْكِ وهو الصَّرفُ، فإنَّ الكذبَ منحرِفٌ ومصروفٌ عن الواقع.

* * *

(٣١) - ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾: مستقيمي الطَّريقة على أمر الله، وأصلُ الحَنَفِ: الاستقامةُ، وقيل للمائلِ القدمِ: أحنف؛ تفاؤلاً بالاستقامة.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ غيرَه في العبادة. وهما حالان[١] من الواو.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ لَمَّا أخذَ في التَّمثيل عدلَ عن الضَّمير إلى الاسم الظَّاهر في التَّفخيم المناسب لمقام التَّهويل.

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: سقطَ منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾: الخَطْفُ: الاستلابُ بسرعةٍ.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ أي: تسقطُه[٢]، والـهُويُّ: السُّقوطُ.

﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: بعيدٍ، شبَّهَ حالَ المشرك في هلاكه هلاكاً لا خلاص معه[٣] بحالِ مَن يخرُّ مِنَ السَّماء فاختطفه الطَّير فتفرَّقَ قطعاً في حواصلها[٤]، أو عصفَتْ به

---

(١) في (م): «حال».

(٢) في (ف): «أي تسقط»، وفي (م): «أو تسقطه».

(٣) في (ك): «له»، وسقطت من (ف).

(٤) في هامش (م) و(س): «من قال: إلى الأرض، لم يصب لأن الفاء الدالة على تعقيب الخرور بالخطف يأباه».

الرِّيح فهوَتْ به في بعض المهالك البعيدة، هذا إذا جعلْتَه من باب التَّشبيه المركَّب وتمثيلِ صورةِ حاله بصورةِ حالِ مَن هلك على إحدى الصُّورتَيْن[١].

وإنْ جعلْتَه مِنْ بابِ التَّشبيه المفرَّق[٢]: شُبِّهَتِ الفطرةُ القابلة للتَّوحيد في علوِّ رتبتها بالسَّماء، والمشرك بالسَّاقط، والأهواءُ المُرْدِيَةُ الموزِّعةُ أفكارَه[٣] بالطَّير المختطفة، والشيطان الذي يطوحُ به في تيه الضَّلال بالرِّيح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[٤]، والشرك الذي فيه[٥] بالمكان السَّحيق.

و﴿أَوْ﴾ للتخيير كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [البقرة: ١٩] أو للتَّنويع، فإنَّ مِن المشركين مَن لا خلاص له أصلاً، ومنهم مَن يمكن خلاصُه بالتَّوبة لكن على بُعْدٍ[٦].

***

(٣٢) - ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: الأمر ذلك.

---

(١) في هامش (س): «لا تشبيه هلاكه بهلاك أحد الهالكين كما توهمه القاضي، إذ حينئذ لا يكون من تشبيه المركب بالمركب بل من تشبيه المقيد بالمقيد، والفرق واضح عند أهل البيان».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «المفرد».

(٣) أي: أفكار المشرك. انظر: «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٠٥)، و«روح المعاني» (١٧/ ٣١٢)

(٤) في (م): «المختلفة»، وفي (س): «المتعلقة».

(٥) «فيه»: ليست في (م).

(٦) في هامش (م) و(س): «من قال: شبهت بالتوحيد، فكأنه غافل عن أن المشرك بمعزل عن مقام التوحيد، فأنَّى السقوط!».

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معالمَ دينه، أراد بها الهدايا؛ لأنَّها من معالم الحجِّ، والمخصِّص ما قبلها وما بعدها[١].

وتعظيمُها: اعتقادُ كونِ التَّقرُّب بها من معاظم الطَّاعات، واختيارُها حِساناً سماناً غاليةَ الأثمان، وتركُ المكاس في شرائها.

روي أنَّ عمرَ رضي الله عنه أهدى نَجِيْبَةً طلبت منه بثلاث مئة دينار[٢].

جزاؤه محذوفٌ تقديرُه: فهم متَّقون حقًّا[٣]؛ لدلالة التَّعليل القائم مقامه، ولهذا أدخل الفاء الجزائية عليه.

والضمير في: ﴿فَإِنَّهَا﴾ لتعظيمات مَن عظَّموا[٤] شعائر الله.

﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾؛ أي: ناشئةٌ منها.

واللَّام عوض عن[٥] المضاف إليه؛ أي: مِن تقوَى قلوبهم، وإضافتُها إليها للاحتراز عن تَقْوَى الـمُرائي.

---

(١) في هامش (س): «سيظهر وجه هذا القيد عند بيان وجه إضافة التقوى إلى القلوب».

(٢) رواه أبو داود (١٧٥٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) في هذا الجزاء خلاف أساسه جعلُ قوله: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ هو الجزاءَ مع تقدير العائد، وفيه بحث طويل تفصيله في «روح المعاني» (١٧/ ٣١٥ ـ ٣١٨)، ثم ختمه الآلوسي رحمه الله بما لعله عنى به المؤلفَ وتقديرَه فقال: (وذهب بعض أهل الكمال إلى ان الجزاء محذوف تقديره: فهم متقون حقا؛ لدلالة التعليل القائم مقامه عليه). ثم أورد عليه تعقُّبا، وتعقَّبه، فقال: (وتُعقِّب بأن الحذف خلاف الأصل، وما ذكر صالح للجزائية باعتبار الإعلام والإخبار كما عُرف في أمثاله)، وتعقبه بقوله: (وأنت تعلم أن هذا التقدير ينساق إلى الذهن، ومثله كثير في الكتاب الجليل).

(٤) في (ك): «عظم»، وفي (ف) و(م): «عظمها»، والمثبت من (س).

(٥) في (ف): «من».

(٣٣) - ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ كثيرةٌ؛ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ، مِن دَرِّها ونسلها وظهرها وصوفها، والتَّصدُّقِ بفوائدها[١].

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: إلى وقتِ نحرها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾: ثمَّ موضِعُ حِلِّ نحرها ينتهي إلى البيت أو قريب إليه[٢]، وهو الحرم، و﴿ثُمَّ ﴾ يَحتمِل التَّراخيَ في الوقت والتَّراخيَ في الرُّتبة؛ أي: لكم فيها منافع دنيويَّة إلى وقت النَّحر، وبعده منافع دينيَّة أعظمُ منها.

***

(٣٤) - ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾: أهلِ دِيْنٍ ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾: متعبَّداً، أو قرباناً[٣] يتقرَّبون به إلى الله تعالى.

وقرئ بالكسر[٤]؛ أي: موضِعَ نُسكٍ.

﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ علَّةٌ للجَعْلِ مبيِّنةً أنَّ المقصودَ مِن المناسكِ ذكرُ اللهِ عزَّ اسمُه عليها.

﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ القربان لا يكون إلَّا مِنَ النَّعم.

---

(١) في (ف) و(م): «بعوائدها».

(٢) في (ف): «منه».

(٣) في (م): «وقربانا».

(٤) أي بكسر السين. وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٧).

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ الفاء في الموضعين للسَّببية، وتقديم (له) للتَّخصيص؛ أي: لَمَّا كان المقصدُ الأصليُّ[1] مِن وَضْعِ المناسك ذكرَ اللهِ تعالى وتوحيدَه، فاعلموا أنَّ إلهكَم وإلهَ جميعِ الأمم إلهٌ واحدٌ، فله خاصَّة أخلصوا الذِّكْرَ دون غيره، واجعلوه له سالماً؛ أي: خالصاً لا تشوبوه بالإشراك البتَّة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المتواضعين الخاشعين، مِن الخَبْتِ، وهو المطمئن من الأرض.

***

(٣٥) - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾: خافَتْ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ منه هيبةً لإشراق أشعَّة جلاله عليها.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من المحنِ والمصائب.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

***

(٣٦) - ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «الأصل».

﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾: جمع بَدَنة، كخُشْبٍ وخَشَبة[١]، وأصله الضَّم، وقد قرئ به[٢].

وإنَّما سُمِّيَتْ به لِعِظَمِ بَدَنها، مأخوذ من بَدُنَ بَدَانَةً، وهي الإبل خاصَّة، وقد دلَّ عليه إلحاق رسول الله ﷺ البقرَ بالبَدَنَةِ حين قال: «البُدْنُ عن سبعةٍ، والبقر عن سبعةٍ»[٣]، ولا دلالة فيه على صيرورة البدنة متناوِلة للجنسين في الشريعة.

وانتصابه بفعلٍ يفسِّرُه: ﴿جَعَلْنَـٰهَا لَكُم﴾ وقرئ بالرَّفع[٤] على الابتداء، كقوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ ﴾ [يس: ٣٩].

﴿مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من أعلام الشَّريعة التي شرَعَها الله تعالى، وإضافتُها إلى اسمه تعظيم.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافعُ دينيَّة ودنيويَّة.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند النَّحْرِ: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، اللَّهمَّ منك وإليك[٥].

﴿صَوَآفَّ﴾ حال من الهاء؛ أي: قائماتٍ، من صففْنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ.

---

(١) تجمع أيضاً على: خَشَبٌ، وخُشُبٌ. انظر: «تاج العروس» (مادة: خشب).

(٢) أي: (البُدُن)، نسبت للحسن وعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(٣) رواه مسلم (١٣١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفيه: «البدنة» بدل «البدن».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٥٨)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٥٩).

(٥) روى الحاكم في «المستدرك» (٧٥٧١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قال: «قياماً على ثلاث قوائم معقولة، بسم الله، والله أكبر، اللَّهمَّ منك وإليك» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقرئ: (صَوَافِنَ)[١] مِنْ صُفونِ الفرس، وهو أنْ يقومَ على ثلاثٍ، وطَرَفِ سُنْبُكِ الرَّابعةِ؛ لأنَّها تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث.

و: (صوافناً) بالتَّنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف[٢].

و: (صَوَافِيَ)[٣]؛ أي: خوالصَ لوجه الله.

و: (صَوَافٍ)[٤] على لغةِ مَن يسكِّن الياء مطلقاً، نحو مثل العرب: أعطِ القوسَ باريها[٥].

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: سقطت على الأرض بعد نحرها قائمةً، وهو كناية عن موتها.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾؛ أي: إذا مات حلَّ لكم الأكل منها والإطعام.

والقانع: الرَّاضي بما عندَه، وبما يُعطى من غير سؤالٍ، مِن قَنِعْتَ قُنوعاً وقَناعةً، يؤيِّده أنَّه قرئ: (القَنِعَ)[٦]، وهو الرَّاضي.

---

(١) نسبت لابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«البحر» (١٥/ ٥٩).

(٢) نسبت لعمرو بن عبيد. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٥٨).

(٣) نسبت لأبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٨)، و«البحر» (١٥/ ٥٩).

(٤) نسبت للحسن أيضاً. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٨) وعنه نقل المؤلف هذه القراءات مع توجيهها، و«البحر» (١٥/ ٥٩).

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٥٨). وهذه قطعة من بيت كما في «جمهرة الأمثال» (١/ ٧٦)، وتمامه:

يا باريَ القوسِ بريًا لَيسْتَ تُحكمُه لا تظلمِ القوسَ أعطِ القوسَ باريها

(٦) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٣).

والمعترُّ: المتعرِّض بالسُّؤال[١].

وقيل: القانع: السَّائل، مِن قَنَعْتُ إليه: إذا خضعْتَ له وسألتَه، قُنوعاً.

والمعترُّ: المتعرِّض بغير سؤال.

وقرئ: (والـمُعْتَرِي)[٢]، يقال: عَرَّهُ وعَرَاهُ، واعْتَرَّهُ واعْتَراهُ بمعنى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ما وصفناها قياماً معقولةً أيديها ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها وفَرْط قوَّتها، حتى تأخذوها فتعقلوها وتحبسوها صافَّةً قوائمها، ثم تطعنون في لَبَّاتها[٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامَنا عليكم بالتَّقرُّب والإخلاص.

***

(٣٧) ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾: لن يصيبَ رضاه، ولن يقعَ منه موقعَ القَبولِ ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المهراقةُ عندَ النَّحر من حيث إنها لحوم ودماء.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾: ولكن يصيبُه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمر الله، والتَّقرُّب إليه، والإخلاص له، والتَّحرُّز عنها.

---

(١) «المتعرض بالسؤال»، كذا في النسخ، وفي مطبوع البيضاوي (٤/ ٧٢): «المعترض بالسؤال»، وفي «حاشية القونوي» (١٣/ ٦٩) مثل النسخ، فلعله من اختلاف نسخ البيضاوي، والمؤدى واحد.

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(٣) اللَّبَّات: جمع اللَّبَّة، وهي موضع النَّحر. انظر: «المصباح المنير» (مادة: لبب).

قيل: كانَ أهلُ الجاهليَّة إذا نحروا البُدْنَ نضحوا الدِّماءَ حول البيت ولطَّخوه بالدَّم، فلمَّا حجَّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلَتْ[١].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرَّرَ التَّسخيرَ؛ تذكيراً للنِّعمة، وتعليلاً بقوله:

﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: لتَعْرفوه[٢] بإقداره إيَّاكم، وتعلموا أنَّه القادر على ما لا يقدر عليه غيره، فتصفوه بالكبرياء، وتشكروه على إنعامه عليكم بالهداية إلى طريق تسخيرها وكيفيَّة التَّقرُّب بها. فتعديتُه بـ ﴿عَلَىٰ﴾ على تضمين معنى الشكر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: المخلصين فيما يأتون به ويذرونه، وإنَّما ترك المُبَشَّر به للإشارة إلى أنَّه ممَّا لا يُعيِّنه العبارة[٣].

* * *

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾ وقرئ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾[٤]؛ أي: يبالغ في الدَّفع مبالغةَ مَن يُغالِبُ فيه.

﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ﴾ حذف المفعول للتَّعميم، ثمَّ علَّلَ بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانةِ اللهِ ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته؛ أي: لا يحب

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٠) عن ابن جريج.

(٢) في (ك): «لتفردوه»، وفي (ف): «لتفرحوا». وفي «تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٢): «لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء».

(٣) في(ف): «مما يعينه العبارة»، وفي (م): «مما لا يفيه العبارة».

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يدفع﴾، والباقون: ﴿يُدَٰفِعُ﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٧).

أضدادهم[١]، وضمَّنه الإيماءَ إلى أن أعاديَهم الواجبَ دفعُهم هم المشركون، والتَّنصيصَ عليهم بأنَّهم الخوَّانون الكفَّارون، والتَّعريضَ بأنَّ أضدادهم المؤمنين هم الأمناء الشَّاكرون، وأنَّ الله تعالى يحبُّهم، وعلى مقتضى ما ضمَّنه أتى بصيغة المبالغة، وإلَّا فمقتضى الظَّاهر نفي محبَّته عن كلِّ خائنٍ وكافرٍ، بل إثباتُ بغضه لهما.

***

(٣٩) ـ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

﴿أُذِنَ﴾: رُخِّصَ ﴿لِلَّذِينَ﴾ حذف المأذون فيه لدلالة: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ عليه، وقرئ: ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التَّاء[٢]؛ أي: للَّذين يقاتلهم المشركون.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾: بسبب أنَّهم ظُلِموا، وهم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونَه مِن بين مضروبٍ ومشجوجٍ يتظلَّمون إليه، فيقولُ لهم: «اصبروا فإنِّي لم أؤمر بالقتال»، حتى هاجر، ثم نزلَتْ هذه الآية[٣].

وهي أوَّلُ ما نزلَ في القتال[٤]، بعدَما نُهي عنه عليه السلام في نيفٍ وسبعين آيةً.

---

(١) في (ف): «لأنَّه لا يحبُّ كلَّ أحد أضدادهم»، وفي (ك): «لأنه يحب أضدادهم»، وفي (س): «لأنه لا يحب أضدادهم»، والمثبت من (م).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٧).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٥) وعزاه للمفسرين، وذكره ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٩١٨) عن قتادة ومقاتل.

(٤) قطعة من خبر رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٠٨)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٥)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي (٣٠٨٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولم يرد عنده قول ابن عباس: (هي أول آية...).

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم واردٌ على سَنَنِ كلام الملوك المقتدرين الجبَّارين، وتأكيدٌ لِمَا سبقَ من الوعد بدفع أذى الكفَّار؛ فإنَّ النَّصر ليسَ مطلقَ العون، بل العونُ بدفع الضَّرر.

***

(٤٠) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في محل الجرِّ، بدل من (الذين)، أو نصب بـ (أعني)، أو رفع بإضمار: (هم).

﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ يعني: مكَّة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: بغير[1] موجِبٍ استحقُّوا به الإخراج.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ إبدال ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ من ﴿ حَقٍّ ﴾، تأكيدٌ للمدح بما يشبه الذَّمَّ على طريق قول النَّابغة:

ولا عيْبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُم بهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ[2]

أي: بغير موجِبٍ سوى التَّوحيدِ الموجِبِ للإعزاز والتَّمكين والإكرام.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين على المشركين بالجهاد.

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ الهدمُ كنايةٌ عن الإبطال والتَّعطيل على وجه أبلغ؛ أي: لاستولى المشركون على أهل المِلَلِ وعطَّلوا متعبداتهم.

---

(١) في (ف) و(ك): «يعني».

(٢) انظر: ديوانه (ص: ١١). وقد تقدم في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ الصَّوامعُ: جمع صومعةٍ، وهي متعبَّد الرَّهابنة.

والبِيَعُ: جمعُ بِيْعَةٍ، وهي متعبَّد النَّصارى ومصلَّاهم.

والصَّلوات وهي كنيسةُ اليهود، سُمِّيَتْ صلاة لأنَّها يُصلَّى فيها، وقيل: كلمة معرَّبة أصلها بالعبرانيَّة: صلاة.

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ ومساجد المسلمين، إنَّما خصَّ التَّعبير بالمسجد عن مصلَّاهم[1] لأنَّ السَّجدة من أركان صلاتهم خاصَّة، وإنَّما أُخِّرَتْ عن غيرها لِمَا في التَّقديم مِن القُرْبِ من التَّهديم.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ لا في المساجد خاصَّة، بل في جميع ما ذُكِرَ؛ لأنَّه كالتَّعليل لصونها عن التَّهديم بالدَّفع المذكور.

﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: ذكراً كثيراً.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾؛ أي: ينصرُ دينَه ورسلَه. إخبارٌ من الله عن الغيب، ووعدٌ أنجزه بتسليط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره، وفيه تأكيدٌ لوعده.

* * *

(٤١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(١) في (س) و(ف) و(ك): «بمصلاهم».

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل مِن ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، أو صفةٌ أخرى لـ ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ إلخ اعتراضٌ بين الصِّفتَيْن[١].

﴿إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبسطنا لهم في الدُّنيا.

﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: قاموا[٢] بأمر الدِّين حقَّ القيام.

وعن عثمان رضي الله عنه: هذا والله ثناءٌ قبل بلاءٍ[٣]؛ أي: أثنى عليهم قبلَ أن يُحْدِثوا من الخير ما أَحْدثوا، وفيه دليلٌ على صحَّة أمر الخلفاء الرَّاشدين؛ إذ لم يَسْتَجمع ذلك غيرُهم[٤] من المهاجرين.

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: مرجعُها إلى حكمِه وتقديرِه، وفيه أيضاً تأكيدٌ لوعدِه.

***

(٤٢) ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ تسليةٌ لرسوله عليه السلام من تكذيبِ قومِه إيَّاه؛ أي: لسْتَ بأوحديٍّ في التَّكذيب.

---

(١) «بين الصفتين» ليس في (ف).

(٢) في (ف): «أقاموا».

(٣) رواه خليفة بن خياط في «تاريخه» (ص: ١٧١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٤٧).

(٤) في (ك) و(م): «في غيرهم» والمثبت من (س) و(ف)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٣)، وعبارة «الكشاف»: (وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأنّ الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين، لا حظ في ذلك للأنصار والطلقاء).

﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ قومَكِ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً عليه السلام ﴿وَثَمُودُ﴾ صالحاً عليه السلام.

ولم[1] يقل فيهما: (قوم صالح وقوم هود)؛ لأنَّ الأصل في التَّعبير هو العَلَم، والعدول في غيرهما إلى التَّعبير بالأمر العام لضرورة فَقْدِ العلم.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً عليه السلام.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ شعيباً عليه السلام، ولم[2] يقل هاهنا: (وقوم شعيب) لأنَّ المكذِّبين له من قومِه أصحابُ مدين خاصَّة.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ غُيِّر النَّظم فيه، ولم يُقَلْ: (وقوم موسى)؛ لأنَّ قومَه بنو إسرائيل لم[3] يكذِّبوه، وإنَّما كذَّبه القِبْط، وأُفرد له الفعلُ لتعظيمه وبيان أنَّ تكذيبه كان أشنع، وآياتِه كانت أعظمَ وأسبغ، كأنَّه قيل: وكُذِّبَ موسى مع عظم آياته ووضوح معجزاته، فما ظنُّك بغيره؟!

---

(١) في (ك) و(م): «لم».

(٢) في (م): «لم».

(٣) في (ك) و(م): «ولم».

وبُني الفعل للمفعول إتماماً للكلام بالتَّجريد لِمَا سِيْقَ له.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: فأمهَلْتُهم[1] إلزاماً للحُجَّةِ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقَبْتُهم على كفرهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بتغيير النِّعمةِ نَقمةً، والحياةِ هلاكاً، والعمارةِ خراباً، والبقاءِ استئصالاً.

* * *

(٤٥) - ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوبُ المحلِّ[2] بفعلٍ مقدَّرٍ يفسِّرُهُ: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أو مرفوعةٌ بالابتداء، والخبر ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾. يعني: بإهلاكِ أهلها.

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: أهلُها، حال.

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ جملة معطوفة على ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب على الأوَّل، وفي محلِّ الرَّفع على الثَّاني.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ متعلقة بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾، أو خبرٌ بعد خبرٍ.

والخاوي: السَّاقط، من خَوَى المنزل: إذا خلا من أهله.

والعرشُ: كلُّ مرتفعٍ مُظِلٍّ من سقفٍ أو خيمةٍ أو كَرْم.

أي: ساقطةٌ على عروشها بأنْ خَرَّتِ[3] السُّقوف على الأرض، ثمَّ سقطَتْ

---

(١) في (م): «فأمهلتهم أي: فأمهلهم».

(٢) «المحل» سقط من (ك).

(٣) في النسخ: «خوت» والمثبت من «الكشاف» (٣/ ١٦١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٤).

جدرانها[١] فوقَ السُّقوف، أو: خاليةٌ مع بقاء عروشها وسلامتها، وعلى الوجه الثَّاني من الإعراب: فهي خاويةٌ وهي قائمة مع عروشها، أو مائلة مشرفة على السُّقوف السَّاقطة، بأنْ سقطَتِ السُّقوف على الأرض وبقيَتِ الجدران مشرفةً عليها.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على ﴿قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكم بئر عامرة في البوادي فيها الماء عُطِّلَتِ وتُرِكَتْ لا يُستقى منها لهلاك أهلها. وقرئ بالتَّخفيف مِنْ أَعْطَله، بمعنى عَطَّله[٢].

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: مجصَّصٍ، مِن الشِّيْد وهو الجصُّ، أو: مرفوعِ البنيان، مِن شادَ البناء: إذا رفَعه.

أخليناه عن ساكنيه، حُذِفَ لدلالة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ عليه.

والأنسب لهذا أن معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خالية مع عروشها، والأظهر أنَّ البئر والقصر على العموم؛ أي: أهلكنا[٣] البادية والحاضرة جميعاً، فخلَتِ القصور عن أربابها، والآبار عن وارديها.

***

(٤٦) ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على السَّفر ليعتبروا بما رأوا من مصارع

(١) في (م): «جداراتها».

(٢) نسبت للحسن. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٢).

(٣) في (ك): «أهلكناها».

الـمُهلَكين، وبقاء آثارهم، وهم وإن كانوا قد سافروا ولكنَّهم لم يعتبروا، فكأنَّهم لم يسافروا لعدم الفائدة لهم[(١)].

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾: ما يجب أن يُعْقَلَ من توحيد الله تعالى وقدرته عند الاعتبار والاستبصار.

﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: ما يجبُ أنْ يُسمَعَ من الوحي والتَّذكير بحالِ مَن شاهدوا آثارَهم، وإنَّما ذكَرَ الأُذنَ دون البصر ـ مع أنَّه أنسب أنْ يُذْكَر ـ نظراً إلى اتِّساق الكلام للاعتبار بالآثار؛ لأنَّ المقصود بيانُ حصول طريقي[(٢)]: العلمِ الاستدلالي، والأخذِ من أفواه الرِّجال، والوصولُ إليهما[(٣)] بالسَّير للاعتبار، والبصرُ من وسائل الطَّريق الأوَّل، فلذلك لم يُذْكَرْ أصالةً[(٤)].

﴿فَإِنَّهَا﴾ الضَّمير للقصَّة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (فإنَّهُ)[(٥)] على تأويل الشَّأن، ويجوز أن يكون ضميراً مُبْهماً يفسِّره ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وفي ﴿تَعْمَى﴾ راجع إليه، أو الظَّاهرُ أُقِيمَ مقامَه.

﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾؛ أي: ما عميت أبصارهم عن الإبصار[(٦)]، بل قلوبهم عن الاعتبار، والآفَةُ في قلوبهم باتِّباع الهوى والتَّقليد.

---

(١) «لهم» ليست في (ف).

(٢) في (ف): «طريق».

(٣) في (ف): «إليها».

(٤) «أصالة» لسيت في (ف) و(ك).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٥٩٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٦٢).

(٦) في (ك): «البصائر».

﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ تأكيدٌ لنفي التَّجوُّز، فإنَّه يُقال: القلبُ لُبُّ كلِّ شيءٍ، والتَّنبيه على أنَّ العمى المتعارَف الذي في البصر لا اعتبار له[1]، وليس بعمًى في الحقيقة بالنِّسبة إلى عمى القلوب؛ فإنَّ العمى الحقيقيَّ هو عمى القلب الذي محلُّه الصَّدر، فهو مقرِّر لِمَا ذُكِرَ أنَّ الأمر على خلاف ما عليه الجمهور مِن أنَّ العمى إنَّما هو في البصر حقيقةً وفي القلب استعارةً.

قيل: لما نزل ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أمِّ مكتومٍ: يا رسول الله، أنا في الدُّنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلَتْ[2].

ويَرِدُ عليه أنَّه حينئذ يكون المعنى: لا تعمى الأبصار في الآخرة ولكن تعمى القلوب، ويردُّه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ﴾ لا بالإهمالِ ولا بالإمهال؛ لأنَّه المحال في حقِّ الملك المتعال.

وحقيقة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: إخبار في معنى الاستفهام على سبيل الإنكار؛ أي: لِمَ يستعجلون بالعذاب المتوعَّد به كأنَّهم شاكُّون في وقوعه، ومحالٌ أنْ يخلفَ الله وعدَه، فلا بُدَّ من وقوعه وإنْ طالَ الزَّمانُ.

---

(١) في (ك): «به».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٤٢٠).

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي: كيف يستعجلون بعذابٍ من يومٍ واحدٍ من أيَّام عذابه في طول ألفِ سنة من سنيكم؛ لأنَّ أيَّام الشَّدائدِ طِوال.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كرَّره للتَّهويل، وتصويرِ حالهم في الإملاء، وبيانِ أنَّ الظَّلَمَةَ لا يُهمَلون غيرَ معذَّبين؛ أُمْهِلوا أو لم يُمْهَلوا، وإنَّما عطف الأوَّل بالفاء لكونها بدلاً من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وبقائها على التَّسبُّب، وأمَّا حكم هذه فحكمُ ما تقدَّمها من الجملتَيْن المعطوفتَيْن بالواو، وهما: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، و﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ على سبيل الاعتراض، وبيانِ أنَّ الاستعجالَ أمرٌ منكَر؛ إذ لا بدَّ من تحقُّق العذاب.

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمهلْتُكم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلَكم.

أصل ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: من أهلِ قرية، فحُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامَه في الإعراب، ورجع إليه الضَّمائر والأحكام مبالغةً في التَّعميم والتَّهويل.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب.

﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: حكمي مرجعُ الجميع، وتقديم (إلى) للاختصاص، والمبالغةِ في الوعيد[١]؛ أي: لا إلى غيري[٢].

* * *

---

(١) في (ك) و(م) و(س): «والمبالغة للوعيد».

(٢) في (م): «غيره».

(٤٩) - ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الخطاب عامٌّ للمؤمنين والكفَّار، والمنذَر به قيام السَّاعة، وإنَّما كان عليه السلام نذيراً مبيناً لأنَّ بعثته من أشراطها، فاجتمع فيه الإنذار بها قالاً وحالاً، فقوله: ﴿أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كقوله عليه السلام: «أنا النَّذير العُرْيان»[١]، وقد دلَّ على ذلك تعقيب الخطاب بالإنذار بتفصيل حال الفريقَيْن عند قيامها بقوله:

(٥٠) - ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم عند الحساب؛ لأنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السِّيئات.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنَّة. الكريم من كلِّ نوعٍ: ما يَجْمَع[٢] فضائلَه.

***

(٥١) - ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرَّدِّ والإفساد، وبالطَّعن فيها حيث سمَّوها سحراً أو شعراً أو أساطير الأوَّلين[٣]، وتثبيطِ النَّاس عنها، يُقال: سعى في أمرِ كذا: إذا أصلحه أو أفسده بسَعْيه.

﴿مُعَٰجِزِينَ ﴾: سابقين في السَّعي جادِّين فيه، مشاقِّين له، أو: سابقين في زعمهم، طامعين أنَّ كيدهم للإسلام يَتمُّ لهم. من عاجَزَه فأعجَزَه: إذا سابَقَه

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) في النسخ: «اجتمع»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٥).

(٣) في (ك) و(س): «وشعرا وأساطير»، وسقطت «الأولين» من (س).

فسبَقَه؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتسابِقَيْن في طلب إعجاز الآخر عن اللَّحاق به، وإذا سبقَه قيل: أعجَزَه وعجَّزَه.

وقرئ: (مُعْجِّزِيْنَ)(١) على أنه حالٌ مقدَّرة؛ أي: مثبِّطينَ النَّاسَ عن الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: النَّارِ الموقَدةِ، وقيل: اسمُ دَركَةٍ من دَرَكاتِها.

***

(٥٢) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ قد سبق تفسيرُهما في سورة الأعراف وسورة مريم(٢)، وبيانُ الفرق بينهما بعموم الثَّاني وخصوص الأوَّل، ومَن شرَط في(٣) الرَّسول شريعةً مجدِّدة(٤) فكأنَّه نسي ما زعمه(٥) من الدِّلالة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] على أنَّ الرَّسول لا يلزم أنْ يكون صاحب شريعة.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: تلا، قال الشَّاعِرُ:

تمنَّى كتابَ اللهِ أوَّلَ ليلِهِ ... تَمَنِّيَ داودَ الزَّبورَ على رِسْلِ(٦)

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) «في سورة الأعراف وسورة مريم» من (م)، ووقعت هذه العبارة في هامش (س) و(ف) مع زيادة: «منه».

(٣) في (ف): «من».

(٤) في (ف): «محددة».

(٥) في هامش (س) و(ف) و(م): «إنما قال: زعمه، لفساده على ما بين في سورة مريم. منه.».

(٦) دون نسبة في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٥١)، و«المحكم» لابن سيده (١٠/ ٥١١). وجعلوهما بيتين صدرهما واحد، وعجز الآخر: =

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: في تلاوته.

قالوا: إنه عليه السلام قرأ في نادي قومه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فلمَّا بلغَ قولَه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ سكَتَ، فقال الشَّيطان: تلك الغرانيق العُلى، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجى، وقرأها متَّصلاً بقراءة النَّبيِّ عليه السلام، فوقعَ عند بعضهم أنَّه عليه السلام هو الذي تكلَّم بها، وهذا معنى إلقاء اللَّعين في قراءة سيِّد المرسلين[(١)].

وكان يتكلَّم في زمنِ النَّبيِّ عليه السلام، ويُسْمَع[(٢)] كلامه، فقد روي أنه نادى يوم أحد: ألا إنَّ محمَّداً قد قُتِلَ، وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[(٣)].

وهذا لا يُخلُّ بالوثوق على القرآن؛ للاندفاع بقوله:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: يَذْهَبُ به ويُبْطلُه، ويُخْبِرُ أنَّه من الشَّيطان.

= وآخِـرَه لاقـى حِمـامَ المقـادر

وذكر ابن الأنباري أنه في رثاء عثمان، وعزاه الآلوسي في «روح المعاني» (١٧/ ٣٦٠) لحسان.

(١) رويت في هذه الحادثة مرسلات عن قتادة والضحاك وأبي العالية وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وغيرهم، وروي فيها خبر من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، لكن إسناده ضعيف جدا. انظر هذه الأخبار في «تفسير الطبري» (١٦/ ٦٠٤ ـ ٦١٢).

وللعلماء كلام كثير في توهين ما روي في هذه القصة. انظر: «الشفا» (٢/ ١١١)، وقد رأى ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩) أن كثرة الطرق تدل على أن للقصَّة أصلاً، ثم ذكر مسالك العلماء في تأويلها لعدم جواز الحمل على الظاهر، فراجع كلامه إن شئت.

(٢) في (ك): «وسمع».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٤) و(٢/ ٧٨).

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يُثْبِتُها ويحفظُها عن تطرُّق النُّقصان، ولحوق الزِّيادة من الشَّيطان.

ولَمَّا كان الإحكام بهذا الوجه على رتبةٍ من النَّسخ المذكور صدَّره بكلمة ﴿ثُمَّ﴾.

ولا احتمال لأنْ يكون هذا الكلام ونظائرُه كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أيضاً من زيادة الشَّيطان؛ لأنَّ ظهور الإعجاز عند انضمامه إلى ما يَبلغ به المجموع مقدار أقصر سورة من القرآن دلَّ على أنَّه من الرَّحمن؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]، فلا دلالة في الآية على جواز السَّهو على الأنبياء عليهم السلام وتطرُّقِ الوسوسة إليهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إلى نبيِّه عليه السلام وبقصَّة الشَّيطان.

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يدعُه حتى يُكْشَفَ ويزيله، ثم ذكر أن ذلك ليفتنَ اللهُ تعالى به قوماً بقوله:

***

(٥٣) ـ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾: محنةً وابتلاءً.

﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شكٌّ وتردُّد.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الجازمين بمعتقدهم الباطل، مُظْهَراً كان ذلك أو مضمراً، ومن زعم أن المراد من الأوَّل المنافق فكأنَّه غافل عن أنَّ المنافق أقسى قلباً من الكافر المجاهر.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من باب وضع الظَّاهر موضع الضَّمير تسجيلاً على الفريقَيْن بالظُّلم؛ لأنَّ القياس أن يقول بعد ذكرهما: وإنهم.

﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾: خلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ، ويلزمه البعد عن الرَّسول وعن المؤمنين.

***

(٥٤) - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: الاعتقادَ المطابق للواقع، وهم المؤمنون.

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أنَّ القرآن هو الحقُّ النَّازل من عند الله، فلا يلتبسه[1] ما يلقي[2] الشَّيطانُ من الباطل ولا يدخل فيه.

﴿فَيُؤْمِنُوا۟﴾: فيعتقدوا ﴿بِهِۦ﴾ ويطيعوا بأحكامه[3].

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالخشوع والخضوع والخشية.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أشكلَ عليهم بالتَّوفيق للنَّظر الصَّحيح، وللكشف بنور هدايته.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريق التَّأويل لِمَا يتشابه بالتطبيق على الأصول المحكمة، فلا يلحقهم حيرة[4] ولا يعتريهم شبهة.

---

(١) في (ف): «يلبسه».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «ما بلغ».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «بإمكانه».

(٤) في (ف) و(ك): «ضيرة».

(٥٥) ـ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ قد سبقَ في أوَّل سورة البقرة الفرق بين المرية والشَّك والرَّيب.

﴿مِّنْهُ﴾: من القرآن.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامة، والمرادُ إتيانُ الموت، فإنَّه من طلائِعها(١)، ولذلك قال عليه السلام: «مَن مات فقد قامت قيامته»(٢).

﴿بَغْتَةً﴾: فجأة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: يومِ حربٍ يُقْتَلون فيه كيوم بدرٍ، وإنَّما وُصِفَ يومُ الحرب بالعُقْمِ لأنَّ أولاد النِّساء يُقتَلون فيه، فيَصِرْنَ كالعُقم(٣).

وقيل: العقيم الذي لا خير فيه، يقال: ريح عقيم: إذا لم تُنشئ مطراً ولم تُلْقِح شجراً(٤).

***

---

(١) في هامش (ف): «ضرورة أن مريتهم لا تبقى إلى قيام الساعة بل تزول عند الموت. منه».

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (١١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠١٣): رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الموت» بإسناد ضعيف. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٨) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه موقوفاً.

(٣) في النسخ: «كالعقر»، والمثبت من المصادر. انظر: «الكشاف»، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٦)، و«تفسير أبي السعود» (٦/ ١١٥)، و«روح المعاني» (١٧/ ٣٦٤).

(٤) في هامش (ف) و(س): «فوصف اليوم بوصفين اتساعاً. منه.».

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، والتَّنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلَّتْ عليها الغاية؛ أي: يوم تزول مِرْيَتِهم.

﴿لِّلَّهِ﴾ فلا منازع له فيه.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ بالمجازاة، والضَّمير يعمُّ الفريقَيْنِ، دلَّ عليه تفصيل الحكم بقوله:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، الفاء في خبر الثَّاني دون الأوَّل تنبيهٌ على أنَّ إثابة المؤمنين بالجنَّات تفضُّل مِن الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ عن أعمالهم، ولذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾، ولم يقل: (هم في عذاب) كما قال: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وفي تقديم الجار والمجرور دلالة على أنَّ العذابَ المهين مخصوصٌ بهم لا يشاركهم فيه المؤمنون.

ثمَّ خُصَّ قومٌ من الفريق[1] الأوَّل بفضيلة فقال:

(٥٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ حَتْفَ أنوفهم.

(١) في (ف) و(ك) و(م): «بالفريق»، والمثبت من (س).

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الرِّزْقُ الحسنُ: الذي لا يلحقه ألمُ الانقطاع، ولا يسبقه تعبُ الكَسْبِ، وذلك في البرزخ قبلَ دخول الجنَّة؛ لأنَّ الرِّزقَ الحسنَ في الجنَّة لا اختصاص له بالمجاهدين من المؤمنين، وإنَّما سوَّى بينَ مَن قُتِلَ في الجهاد ومَن ماتَ حَتْفَ أنفه في الموعد؛ لاستوائِهما في القَصْدِ، وما في وسعهما من العمل.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنَّه يرزق بغير حساب.

***

(٥٩) ـ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ هو الجنَّةُ، دلَّ هذا على أنَّ ما تقدَّم من التَّرزيق قبل دخولها.

بَدلٌ من قوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾، و﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ صفة المُدْخَل، وهذا وصف لها بكلِّ جميل؛ لأنَّ ما وقع[1] موقعَ الرِّضى فقد كَمَلَ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال مَنْ قضى نحبَه مجاهداً، وآمالِ مَن مات[2] وهو ينتظر مُعاهِداً ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال مَن قاتلهم معانداً.

رُوِيَ أنَّ طوائفَ مِنْ أصحاب رسولِ الله ﷺ قالوا: يا نبيَّ الله، هؤلاء الذين قُتِلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا[3] معك؟ فأنزل الله تعالى هاتين الآيتَيْنِ[4].

---

(١) في (ف): «يقع».

(٢) في (ك): «يمت».

(٣) في (ك): «قبضنا».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٧).

(٦٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ للفصل بين الكلامين؛ أي[1]: الأمرُ ذلك، فما بعده مستأنف.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ أي: لم يزد في القَصاص، وإنَّما سُمِّيَت الجناية المبتدأة باسم جزائها الذي هو العقاب؛ لِمَا بينَ السَّبب والمسبَّب من الملابسَةِ، فأُطلقَ اسمُ المسبَّب على السبب مجازاً، أو للازدواج، وليُتصوَّر سرعة أداء السَّبب إليه.

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مَن جازى بمثلِ ما فُعِلَ به من الظُّلم ثمَّ ظُلِمَ بعد ذلك فحقٌّ على الله أن ينصرَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾: يمحو آثارَ الذُّنوبِ ﴿غَفُورٌ﴾: يسترُ أنواعَ العيوب.

وإنَّما وعدَ المنتصِر بهما لأنَّه اتَّبع هواه في الانتقام، وأعرضَ عمَّا نَدب الله إليه بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وفيه تعريضٌ بالحثِّ على العفو، فإنَّ الله تعالى مع كمالِ قدرتِه وتعالي شأنِه لَمَّا كانَ يعفو فغيرُه بذلك أولى.

وتنبيهٌ على أنَّه قادرٌ على العقوبةِ؛ إذ لا يُوصَفُ بالغفور إلَّا القادر على ضدِّه.

* * *

---

(١) في (ف): «أن».

(٦١) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: ذلك النَّصر بسببِ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على التَّصرُّف في العالم على وفقِ مشيئته ومقتضى حكمته، وما ذكر من التَّغييب خاصَّةً في المَلَوَيْنِ[١] بتغييب أحدِهما في[٢] الآخر كنايةٌ عن التَّصرُّف في الأفلاك بالتَّحريك على وجهٍ عليه مَدارُ الكائنات[٣] في عالم الكون والفسادِ[٤] كيف يشاء، والنصر المذكور من جملة ما تقتضيه الحكمة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لما يقولون، ولا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ وإنِ اختلفَتِ[٥] الأصوات في النَّهار بفنون اللُّغات.

﴿بَصِيرٞ﴾ بما يفعلون ولا يستتر عنه شيء بشيء في اللَّيالي وإنْ توالَتِ الظُّلُمات.

***

(٦٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: ذلك الوصفُ بكمال القدرة والعلم بسبب

---

(١) (المَلَوَانِ): اللَّيلُ والنَّهار، الواحدُ (مَلاً) مقصورٌ. انظر: «الصحاح» (مادة: ملا).

(٢) في (ف): «على».

(٣) في (م): «الكنايات».

(٤) الكون: الخروج من العدم إلى الوجود، والفساد عكسه. انظر: «حاشية الشهاب» (٤/ ١٥٤).

(٥) في (م): «اختلف».

أنَّ اللهَ هو الحقُّ الثَّابت في نفسه، الواجب لذاته[١]، وكلُّ ما كان كذلك كان مبدأً لِمَا سِواه، عالِـماً بذاته ممَّا عداه، أو الثَّابتُ الإلهيَّة، ولا يصلح لها إلَّا مَن كان عالماً قادراً.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله إلهاً.

وقرئ بالتَّاء على مخاطبة المشركين[٢]، وبالبناء للمفعول[٣]، فتكون الواو لـ ﴿مَا﴾ فإنه مِن معنى الألوهيَّة[٤].

﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: المعدوم في حدِّ ذاته، أو الباطل الألوهيَّة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾؛ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بالقَهْرِ والسُّلطان بدون توهُّمِ المكان.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يساويَه شيء، فضلاً عن أن يكون أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

* * *

(٦٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «ولا حاجة إلى التقييد بالوحدة لأن الواجب لذاته لا يكون إلا واحداً، ومن قال: إن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ الكل، فقد أوهم التشريك في الاقتضاء المذكور بين وصفي الوجوب الذاتي، وليس كذلك، فإن المقتضي هو الوجوب الذاتي وإن الوحدة من جملة مقتضياته. منه».

(٢) قرأ بها الحرميان وابن عامر وأبو بكر، وباقي السبعة بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٣) نسبت لليماني وموسى الأسواري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦).

(٤) في «الكشاف» و«البيضاوي»: (في معنى الآلهة)، بدل: «من معنى الألوهية».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهامُ تقرير، ولهذا رُفع:

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطفاً على ﴿أَنزَلَ﴾؛ إذ لو نُصِبَ جواباً له[1] لدلَّ على نفيِ الاخضرار، كما في قولِكَ: ألم تر أني أنعمْتُ عليكَ فتشكرُ[2]، والمقصود إثباته، والرفع لعطفه على ﴿أَنزَلَ﴾، وتسبُّبه منه مثبتٌ البتَّة، كذلك في المثال؛ لأنه عطف على (أنعمتُ)، وأما النَّصب فلا وجه له إلَّا التَّسبُّب عن الاستفهام، ويَؤُول المعنى في المثال إلى: ما رأيتَ فما شكرْتَ؛ أي: لو رأيْتَ لشكرْتَ، وكذلك في الآية.

على أنَّ فيها مانعاً آخر، وهو أنَّ إصباحَ الأرضِ مخضرَّةً لا يصحُّ أنْ يتسبَّب عمَّا بعد الاستفهام، وإنما عدل عن الماضي ولم يقل: (أصبحَتْ) لاستحضار الحال الماضية، والتَّنبيه على كمال صنع الصَّانع بالمشاهدة، والدِّلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان.

وقرئ: (مَخْضَرَة)[3] على وزن: مَفْعَلَة؛ أي: ذاتَ خضرةٍ، كمَبْقَلَة ومَسْبَعَة[4].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ واصلٌ فضلُه وعلمُه إلى كلِّ شيءٍ.

﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

* * *

---

(١) «له» سقط من (ف) و(ك).

(٢) إن نصبته فأنت نافٍ لشكره شاكٍ تفريطَه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٨).

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٨).

(٤) في (ف) و(ك): «كمبقلة ومسغبة»، وفي (م): «كمقبلة ومسبغة»، والمثبت من (س). وانظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٣٩٨).

(٦٤) ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ مُلْكاً ومِلْكاً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كلِّ شيءٍ، وما سواهُ محتاجٌ إليه.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجِبِ للحمدِ بصفاته وأفعاله.

* * *

(٦٥) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَنَّ علينا بتسخيره لنا ما بنا حاجةٌ إليه في معاشنا من الحيوان وغيره، فلا أصلبَ من الحجارة والحديد، وقد ذلَّلهما نتَّخذ منهما ما نريد، فقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ، لكنَّ المراد منه ما ينفعنا بقرينة قوله: ﴿لَكُم﴾.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿مَّا﴾. وقرئ بالرَّفع[1] على الابتداء.

و﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حال منهما، أو خبر.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بيد القدرة ﴿أَن تَقَعَ﴾: من أن تقعَ، أو كراهةَ أن تقع ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إلَّا بمشيئته.

وفيه رَدٌّ لاستمساكها بذاتها، وأما ما قيل: إنها مساوية لسائر الأجسام في الجسميَّة فتكون قابلة للميل الهابط قَبولَ غيرها[2]؛ منظور فيه.

---

(١) نسبت للأعرج والسلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦).

(٢) «قبول غيرها» من (س). وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بفتحه عليهم أبوابَ المنافع، ودفعِه عنهم أسباب المضارِّ.

والرَّؤوفُ أبلغ من الرَّحيم، وإنَّما قُدِّمَ عليه محافظةً على الفاصلة، وكذا تقديم ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ عليهما لها(١).

***

(٦٦) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً تراباً ونطفةً وعلقةً ومضغةً.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾: لجحودٌ لِمَا أفاضَ عليه مِنَ النِّعَمِ مع ظهورها.

***

(٦٧) ـ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ كرَّره بغير واوٍ للتَّأكيد والتَّعميم، وتعليقِ الزِّيادة به، وجيء بالواو في الأوَّل لأنَّها وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك(٢)، فعطف عليها، وأمَّا هذه فواقعةٌ مع أجانب من معناها، فلم تجد معطفاً(٣).

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ هم عاملون به.

---

(١) أي: للفاصلة.

(٢) في (ف): «المناسك»، وفي (ك) و(م): «التناسك».

(٣) في (ف) و(ك): «مقطعاً».

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائرُ أرباب الـمِلَلِ.

﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الدِّين والنسائك[١]؛ لأنَّهم جُهَّالٌ أو أهل عناد[٢]، أو لأنَّ أمر دينك أظهر من أن يَقبل النِّزاع.

وقيل: إنَّه نهيٌ لرسول الله ﷺ عن التَّعرُّض لمنازعتهم بالمناظرة المؤدِّية إلى نزاعهم، فإنَّها إنَّما تنفع طالب الحقِّ، وهم أهل مراءٍ وعناد؛ أي: لا تلتفِتْ إليهم ولا تمكِّنهم من أن يتنازعوا، أو عن منازعتهم[٣]، كما تقول: لا يضارِبَنَّكَ فلان؛ أي: لا تضاربه[٤] البتَّة، ولهذا إنَّما يجوز في الفعل الذي بين اثنين.

وروي أنَّها نزلت في الخزاعيين قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتُم، ولا تأكلون ما قتله الله[٥]؟! يعني: الميتة.

وقرئ: (فلا يَنْزِعُنَّكَ)[٦]؛ أي: اثْبُتْ في دينك ثباتاً لا يمكنهم أن يزيلوك

---

(١) في (ف): «والمناسك»، وفي (ك) و(م): «والتناسك».

(٢) في (ف) و(ك): «أو أهل فساد»، وفي (م): «وأهل فساد».

(٣) قوله: «عن منازعتهم» معطوف على قوله: «عن التعرض لمنازعتهم»، لكن في عبارة المؤلف نظر؛ لعدم ظهور الفرق بين المعطوف والمعطوف عليه، وعبارة البيضاوي في «تفسيره» (٤/ ٧٨): (وقيل: المراد نهي الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية... أو عن منازعتهم...). ونحوه في «الكشاف» (٣/ ١٦٩).

(٤) في (ك): «لا يضار بك فلان أي لا تضار به».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٣)، و«الكشاف» (٣/ ١٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٢٣) عن عكرمة: أن ناساً من المشركين دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: «الله قتلها»، قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

(٦) نسبت لأبي مجلز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«الكشاف» (٣/ ١٦٩).

عنه، والمرادُ: زيادةُ التَّثبيت بما يُهيِّج حميَّته ويُلهب غضبه لله ولدينه.

وقال الزَّجَّاج: هو من باب المغالبة؛ أي: لا يغلِبُنَّكَ[1] في المنازعة، من نازَعْتُهُ فنزعتُه؛ أي: غلبتُه في النِّزاع[2].

﴿وَٱدْعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى عبادة ربِّك.

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريقٍ إلى الحقِّ سويٍّ.

***

(٦٨) ـ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وإنْ أبوا إلَّا المجادلة بعد وضوح أمر دينك واجتهادك في ترك النِّزاعِ، فادفعهم بأنَّ اللهَ أعلمُ بما تعملونه من الجدال الباطل والعناد، فمجازيكم عليها، وهذا وعيدٌ مع رفق.

***

(٦٩) ـ ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾: يفصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين يوم القيامة، كما فَصَلَ في الدُّنيا بالآيات والبيِّنات.

﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين.

الخطاب عام، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بما يَلقى منهم[3].

---

(١) في (م): «يغالبنك».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٧).

(٣) في هامش (ف) و(س): «قد سبق وجهها في هذه السورة. منه».

ومن تمام التَّسلية تقرير علمه بمضمون ما ذكره بقوله:

(٧٠) - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الغيب والشَّهادة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللَّوح المحفوظ، كتبه فيه قبل حدوثه. وتنكيره لأنَّه ليس من جنس الكتب المتعارفة.

ولَمَّا كان الإثبات في اللَّوح المحفوظ مَظِنَّة الحاجة في الحفظ إلى الكَتَبة دفعه بقوله:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الإحاطة به وإثباته في اللَّوح المحفوظ.

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لعدم الحاجة إلى الآلة؛ فإنَّ علمه تعالى بذاته، فلا يخفى عليه شيءٌ، فلا يهمَّنَّكَ أمرُهم.

* * *

(٧١) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ما لم يتمسكوا في جواز عبادته ببرهانٍ نازلٍ بالوحي من عند الله[1]، ولا بعلمٍ ضروريٍّ أو نظريٍّ؛ أي: ليس لهم في ذلك مستندٌ لا من جهة النَّقل ولا من جهة العقل، وإنَّما قدَّم الوجه

(١) في هامش (ف) و(م): «قد مرَّ وجه الفرق بين مطلق الحجة وبين البرهان والسلطان وبيان مزيتهما عليها في سورة الأعراف. منه».

النَّقلي لأنَّه الأصل في أمر العبادة، وفي العبارة عنه بما ذكر إشارةٌ إلى أنَّه مع انقسامه إلى أربعة أقسام مذكورة في علم الأصول مرجعُه إلى الوحي.

وإعادة عبارة ﴿مَا﴾ مع عدم الحاجة إليها في إفادة المعنى المذكور كإعادتها في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ [الحج: ١٢].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: وما للذين ظلموا هذا الظُّلمَ الشَّنيع ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يُعِينهم بدفع العذاب عنهم(١)، ووُضع(٢) الظَّاهر موضعَ الضَّمير للتَّسجيل على المشركين بالظُّلم.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: واضحاتِ الدِّلالة على العقائد الحقَّة.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: يظهر فيها ظهوراً بيِّناً حتى يَعرفُه كلُّ مَن يراه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: الإنكارَ؛ لفرط نكيرهم للحقِّ وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً. وهذا مُنتَهى الجهالة، وللإشعار بذلك وضع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضَّمير.

أو: الأمرَ المنكرَ الفظيع من آثار الغيظ وما يقصدونه من الشَّر.

---

(١) في هامش (ف) و(س): «قد مر أن معنى الدفع معتبر في معنى النصر. منه».

(٢) في (ف): «وضع».

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ السَّطوُ: الوثبُ والبَطشُ.

﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ هم النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: من غيظكم على التَّالِينَ[١] وسطوِكم عليهم، أو: ممَّا أصابكم من الكراهة والضَّجر بسبب ما يُتلَى عليكم.

﴿النَّارُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، كأنَّ قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: النَّار، أو مبتدأٌ خبره: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقرئ بالنَّصب[٢] على الاختصاص، وبالجر[٣] بدل من (شرٍّ)، وعلى هذين الوجهَيْن يحتمل أن تكون الجملة حالاً بإضمار (قد)، وأن تكون استئنافاً كما إذا وقعت خبراً.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النَّارُ.

***

(٧٣) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بُيِّنَ لكم حالةٌ غريبةٌ، سُمِّيَتْ مثلاً على سبيل

---

(١) في (ف) و(ك): «القالين».

(٢) بلا نسبة في «الكشاف» (٣/ ١٧٠)، ونسبها في «البحر المحيط» (١٥/ ٤٠٤) إلى ابن أبي عبلة والأعشى وزيد بن علي.

(٣) بلا نسبة في «الكشاف» (٣/ ١٧٠)، ونسبها في «البحر المحيط» (١٥/ ٤٠٤) إلى ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن نوح عن قتيبة.

الاستعارة؛ لأنَّ الأمثال إنَّما سُيِّرَتْ لكونها مستغربةً، فلهذا نودي النَّاس لها[١].

وأكَّد غرابتها بقوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ وأبهم وبيَّن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾؛ أي: تدعونه، وقرئ: (يُدْعَوْنَ) مبنيًّا للمفعول[٢].

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آلهةً؛ يعني: الأصنام.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذُّبابُ: مِنَ الذَّبِّ؛ لأنَّه يُذَبُّ سُمِّي ذباباً؛ لأنَّه كُلَّما ذُبَّ استقذاراً منه آبَ لاستكباره، وتخصيصُه لمهانته[٣] وضعفه، وتأكيدُ النَّفيِّ بـ ﴿لَن﴾ للدِّلالة على استحالة خلق الذُّباب منهم[٤]، كأنَّه قال: محالٌ أن يخلقوه[٥].

﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ بجوابه[٦] المقدَّرِ له المدلولِ عليه بالمذكور في موضع الحال، جيء بها للمبالغة؛ أي: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾؛ أي: هذا الخلق الأذلُّ الأقلُّ لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلِصوه منه لم يقدروا عليه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم كانوا يَطْلونها بالزَّعفران ورؤوسَها بالعسل، فإذا سلبَه الذُّباب عجز الأصنام عن أخذه[٧].

---

(١) في (م): «بها».

(٢) نسبت لليماني وموسى الأسواري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦).

(٣) في (ف) و(م) و(ك): «بمهانته»، والمثبت من (س).

(٤) «منهم» من (م) و(س).

(٥) «يخلقوه» زيادة من (م) و(س).

(٦) في (س) و(ف): «لجوابه»، وهو خطأ.

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٧١).

والظَّاهر: أنَّ المرادَ جعلُ امتناعِ خلقِهم ذباباً وامتناعِ استنقاذِهم منه عند سلبه شيئاً منهم مثلاً لانتفاءِ قدرتهم المستلزِمة لانتفاء الألوهيَّة التي تستلزم الاقتدار على جميع المقدورات، ويُستحقُّ بها العبادة، فإنَّ ما[١] لا يقدر على خلقِ أحقر[٢] شيءٍ ـ بل على الاستنقاذ منه ـ كيف يَستحق أن يُعْبَد عبادةَ مَن له كمالُ القدرة على إيجاد كلِّ شيءٍ وتستخيره؟!

وهذا غايةٌ في تجهيلِهم واستركاك عقولهم.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الصَّنم الطالبُ للاستنقاذ، والذُّبابُ المطلوب أن يُستَنقَذ منه.

وفي هذا التَّذييل إيهامُ التَّسوية، وتحقيقُ أنَّ الطَّالبَ ـ يعني: الصَّنم ـ أضعفُ لأنَّه قدّم عليه أنَّ هذا الخلق الأذلَّ هو السَّالب، وذلك طالبٌ خاب عن طَلِبته[٣].

ولَمَّا أجراهم مجرى العقلاء بإثبات الطَّلب لهم، وبيَّنَ أنَّهم أضعف من أذلِّ الحيوان، فقد نبَّه به على مكان آلهتهم في ذلك.

* * *

(٧٤) ـ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: ما عرَفوه حقَّ معرفته، حيث أشركوا به، وسمَّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبةً، وأَوغَلُ في الاتِّصاف بأضداد صفاته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾: قادرٌ على خلق الممكِنات كلِّها.

---

(١) في (م): «من».

(٢) في (م): «أصغر».

(٣) في (س): «طلبه».

﴿عَزِيزٌ﴾: غالبٌ على كلِّ شيءٍ، ولا يغلبه شيء، فكيف يُشْرَكُ به شيء، سيَّما أحقر الأشياء وأعجزها وأذلُّها؟!

ولَمَّا قرَّر الوحدانيَّة ونفى إلهيَّة الأنداد أرادَ أن ينفي عنها ما يدَّعون لها من التَّوسل بها إلى الله تعالى والتَّقربِ إليه بتوسُّطها فقال:

(٧٥) ـ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي﴾: يختارُ ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسَّطون بينَه وبينَ الأنبياء عليهم السَّلام بالوحي.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رُسُلاً يبلِّغون رسالته إلى مَن دونهم، ويدعونهم إليه ويشفعون لهم، فلا وسيلة غير هذَيْن الصِّنْفَيْن، ولا تقرُّب إلى الله تعالى بغيرهما.

ففيه نفيٌ لما ادَّعوه من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩]، وقولهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وردٌّ لمذهبهم واعتقادهم أنَّ الرَّسولَ لا يكون من البشر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال الرَّسول فيما تقبله العقول ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوال الأمم في الرَّدِّ والقَبولِ.

* * *

(٧٦) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾: ما مضى وما غبَر، لا تخفى منهم خافيةٌ.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: وإليه مرجعُ الأمور كلِّها؛ لأنَّه مالكُها ومدبِّرُها، فلا اعتراض لأحدٍ على حكمه وتدبيره واختيار رسله.

* * *

(٧٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ درجَ في هذه الأوامر من الأخصِّ إلى الأعمِّ، فأمر بالصَّلاة المشتمِلة على أصناف الطَّاعات من القلبيَّات والقوليَّات والبدَنيَّات، وعبَّر عنها بالرُّكوع والسُّجود لأنَّهما[1] أعظم أركانها، ثمَّ بمطلق العبادات كالصَّوم والزَّكاة والحجِّ، ثمَّ بسائر الخيرات كصلة الأرحام ومكارم الأخلاق والإصلاح بين النَّاس وأمثالها.

وقيل: كان النَّاسُ في أوَّلِ الإسلام يركعون بلا سجودٍ، ويسجدون بلا ركوعٍ، فأُمِرُوا بالجمع بينهما في الصَّلاة[2].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: افعلوا هذا كلَّه وأنتم راجون الفلاح غيرَ متيقِّنين به، متَّكلين على أعمالكم.

وعن عقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، في سورة الحجِّ سجدتان؟ قال: «نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما»[3].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بسجدتَيْن»[4].

---

(١) في (ك) و(م): «لأنها».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٢). قال الآلوسي في «روح المعاني» (١٧/ ٤٢٣): لم نره في أثر يعتمد عليه.

(٣) رواه أبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، وفيهما: «نعم، ومن لم يسجدهما، فلا يقرأهما»، قال الترمذي: إسناده ليس بذاك القوي.

(٤) ذكره الترمذي بعد الحديث السابق عن عمر وابن عمر رضي الله عنهما. وروى نحوه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٢٠٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وبذلك احتجَّ الشَّافعي فرأى السَّجدتَيْن فيها، وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون فيها إلا سجدة واحدةً؛ لأنَّهم يقولون: قُرِنَ السُّجودُ بالرُّكوع، فدلَّ ذلك على أنها سجدةُ صلاة لا سجدةُ تلاوة(١).

***

(٧٨) ـ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ في شأنِه ومن أجلِه، أمرٌ بالغزوِ، أو بمجاهدة النَّفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر؛ لقوله عليه السلام عند رجوعه من غزوة تبوك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٢).

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أصله: جهاداً حقًّا؛ أي: خالصاً لوجه الله، فأضيف الحقُّ إلى الجهاد للمبالغة، كقولك: هو حقُّ عالمٍ، ثم أضيف الجهاد إلى ضمير ﴿ٱللَّهِ﴾ إمَّا للملابسة لاختصاصه به من حيث إنَّه مفعول لأجله، أو للاتِّساع في الظُّروف.

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: اختاركم لدينه ونصرته، وبناء الفعل على الضَّمير للاختصاص المفيد لوجوب الجهاد؛ أي: هو وحده اجتباكم دون غيره، والذي اجتباه الله بنفسه لا بُدَّ له من الجهاد الأكبر لقضاء حقِّ القرب والولاية، والأصغرِ

(١) في هامش (ف): «لا لأنه كما توهم لعدم الدلالة فيها على ما ظهر من تقدير ما ذكره أبو حنيفة. منه».

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٢٣)، والبيهقي في «الزهد» (٣٧٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال: إسناده ضعيف.

لقـوَّة[١] يقينـه، ووثوقـه بحفظـه وكلاءتـه، ولإعلاء كلمتـه، وإعـزاز دينه، ففيـه دليلٌ علـى المقتضـي للجهـاد فـي قوله:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: ضِيقٍ بتكليفِ ما يشتدُّ القيام به عليكم، على أنَّه لا مانع لهم عنه[٢]، ولا عذر لهم في تركه، وضمَّنه الإشارة إلى الرُّخصة في إغفال بعض ما أمرهم به حيث شقَّ عليهم لقوله عليه السلام: «إذا أمرتُكُمْ بشيءٍ فأتوا به ما استطعْتُم»[٣].

وقيل: ذلك بأنْ جعل لهم من كل ذنبٍ مخرجاً، بأن رخَّص لهم في المضايق، وفتح عليهم بابَ التَّوبةِ، وشرعَ لهم الكفَّارات في حقوقه، والأروشَ والدِّيَات في حقوق العباد، فلا ذنْبَ إلَّا وقد جعل لكم منه مخرجاً.

ويَرِدُ عليه: أنَّ الحرج لا ينتفي بوجود[٤] المحرج في الجملة، لِمَا عرفْتَ أنَّه عبارة عن الضِّيق، لا عن عدم المخلَصِ.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ نصبٌ على الاختصاص؛ أي: أعني بالدِّين ملَّة أبيكم، أو على الإغراء؛ أي: الْزَموا ملَّة أبيكم، أو بمضمون ما تقدَّم على المصدر؛ أي: وسَّع دينكم توسعةَ ملَّةِ أبيكم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامَه.

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان.

وإنَّما جعله أباً لأنَّ كلَّ نبيٍّ أبو أمَّته من حيث الحقيقة، وهو كان أبا محمَّدٍ عليه السلام، وأبُ الأبِ أبٌ، أو لأنَّ أكثرَ العرب كانوا من ذريَّته، فغلَّبوا على غيرهم.

---

(١) في (ف): «لسدَّ».

(٢) «عنه»: ليست في (م).

(٣) رواه مسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (م): «بوجوه».

﴿هُوَ﴾؛ أي: الله تعالى ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ القرآن في الكتب المتقدِّمة.

﴿وَفِي هَٰذَا﴾؛ أي: في القرآن.

وقيل: الضَّمير لإبراهيم عليه السلام، وهو وإنْ لم يسمِّهم فيه المسلمين، لكن سُمُّوا به بسبب تسميته إياهم[1] مسلمين من قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقولُه: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ تقديره: وفي هذا بيانُ تسميته إيَّاكم مسلمين.

ويشهد للأوَّل قراءة أُبيٍّ رضي الله عنه: (اللهُ سمَّاكم)[2]؛ أي: هو خصَّكم بالاجتباء وسمَّاكم بهذا الاسم الأكرم.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة، متعلِّق بـ ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾، أو بـ ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.

﴿شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنَّه بلَّغكم، أو بعصيانِ مَن عصى وطاعةِ مَن أطاع.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأنَّ الرُّسلَ قد بلَّغَتْهم.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وإذ قد خصَّكم بهذه الكرامة والشَّرف فاعبدوه وتوبوا إليه بأنواع الطَّاعات.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به في مجامعِ أمورِكم.

﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ فلا تطلبوا النَّصرَ والولايةَ إلَّا منه.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ حيث لا يمنعُكم رزقَكم بعصيانِكم، ويعينُكُم على جلب المسارِّ ويدفعُ عنكم المضارَّ.

---

(١) في (ك) و(م): «تسمية أبيهم».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٣).

سُورَةُ المُؤمِنُونَ

سُورَةُ المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (قد) تُثبت المتوقَّع كما أنَّ (لـمَّا) تنفيه، وإذا دخلَتْ على الماضي دلَّتْ على ثباته.

والفَلاحُ: الظَّفَرُ بالمطلوب، والنَّجاةُ عن المهروب؛ أي: فازوا بما طلبوا ونجوا عمَّا هربوا.

و﴿أَفْلَحَ﴾: دخلَ في الفَلاح، كأبشرَ دخلَ في البِشارةِ، ويقال: قد أفلحه: إذا أوصله إلى الفلاح، وعليه قراءة: (قَدْ أُفْلِحَ) على البناء للمفعول[١].

وقرئ: ﴿قَدَ افْلَحَ﴾ بإلقاء حركة الهمزة إلى الدَّال وحذفها[٢].

وقرئ: (قد أفلحوا)[٣] على الإبهام والتفسير، أو على لغة: أكلوني البراغيث.

و: (أفلحُ) بضمة اكتفاء بها عن الواو[٤].

---

(١) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢) وهي قراءة ورش عن نافع. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٤٨).

(٣) نسبت أيضاً لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٤) نسبت أيضاً لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

لَمَّا كان المؤمنون متوقِّعين بمثل هذه البشارة من فضل الله بُشِّروا بما دلَّ على ثبوت ما توقَّعوه.

والمؤمنون في اللُّغة: المصدِّقون، وأمَّا في الشَّريعة فقد اختُلِفَ فيه على أقوال قد سبق تفصيلُها في تفسير (سورة البقرة).

***

(٢) - ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ الخشوعُ في الصَّلاةِ: خشيةُ القلبِ مع التَّواضع، وإلبادُ البصر[١] موضعَ السُّجود.

رُوي أنَّه عليه السلام كان يصلِّي رافعاً بصره إلى السَّماء فنزلَتْ، فنظر نحو مسجده[٢].

***

(٣) - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ لِمَا بهم مِن الجِدِّ ما يشغلهم عن اللَّغو، وهو ما لا يعنيك مِن قولٍ أو فعلٍ، كالهزلِ واللَّعب، وكلُّ ما تُوجِب المروءة إلغاءه.

---

(١) في (ف): «وإلقاء البصر»، وفي (ك) و(م): «وإلقاء النظر». والمثبت من (ع) و(ي)، وجاء في هامش (ي): «من ألبد بالمكان؛ أي: أقام به. ص».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٣) من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا خلاف فيه على محمد فقد قيل عنه مرسلاً. وقال الذهبي: الصحيح مرسل.

والمرسل رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٦١)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٨٣) وقال: هذا هو المحفوظ مرسل.

لَمَّا ذكرَ الخشوعَ أَتْبَعه الإعراضَ عن اللَّغو ليجمعَ بينَ فعلِ ما ينبغي أنْ يُفعَلَ وتركِ ما ينبغي أنْ يُترَكَ، وهما الأصلان اللَّذان عليهما مدار التَّكليف.

وبالغَ في أوصاف المؤمنين بإيرادِ الصِّلات جملاً اسميَّة، وتقديمِ صلة الإعراض، والتَّعبيرِ بالاسم دون الفعل، وإيرادِ الإعراض مكانَ التَّرك؛ لأنَّ أصلَه أن يكون في عُرْضٍ[1] غيرِ عُرْضه ليدلَّ على التَّجنُّب والبعد عنه بالكلِّيَّة مباشرةً وتسبيباً وميلاً وحضوراً، وكذلك قوله:

(٤) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾؛ أي: للتَّزكية فاعلون؛ لأنَّ الفاعل لا يفعل إلَّا الحدث الذي هو المصدر، ولهذا سُمِّيَ المفعول المطلق، ويمكن أن يُفسَّر بالعَيْن ويُقدَّر مضاف؛ أي: لأداء الزَّكاة.

وإنَّما لم يقلْ: (مؤدُّون) لأنَّ في زيادة فاعلون دلالةً على المداومة.

***

(٥) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ الفرجُ يشتمل على سَوءة الرَّجل والمرأة.

﴿حَٰفِظُونَ﴾ من قولهم: احفظْ عليَّ عَنان فرسي؛ بمعنى: أمسك، ولا بُدَّ فيه من تضمين معنى النَّفي ليصح الاستثناء؛ أي: يمسكون لا يُطْلقونها على أحدٍ.

***

(٦) ـ ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾.

---

(١) بضم فسكون. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٣٢٠).

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ حال؛ أي: والِينَ على أزواجهم، أو: قوَّامين عليهنَّ، والمعنى: حافظون في كلِّ حالٍ إلَّا في حال ولايتهم على أزواجهم.

أو متعلِّق بمحذوف دلَّ عليه: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾؛ أي: يلامون على كلِّ مباشرة إلَّا على ما أُطلق لهم فإنَّهم غير ملومين عليه.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ أي: إمائهم، ولم يقل: (مَن)؛ إجراءً للماليك مجرى غير العقلاء[١]؛ إذ الملك أصل في غيرهم والحريَّةُ فيهم[٢]؛ أو لأنَّ الإناث لنقصان عقلهنَّ من جنسٍ غيرهم.

وإنَّما قال: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، ولم يقل: ما ملكوا؛ إظهاراً لمِلك اليمين في مقابلةِ مِلك المتعة الظَّاهر من قرينه؛ إشعاراً بانحصار سبب حلِّ الوطء في المِلْكَين المذكورَيْن لا يتعدَّى إلى مِلك الرَّقبة؛ فإنَّها[٣] إذا خلَتْ مِن ملك اليمين كما في المكاتَب لا يوجد الحِلُّ المذكور.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ الضَّمير لـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾، أو لِمَن دلَّ عليه الاستثناء؛ أي: فإنْ أطلقوها لأزواجهم أو إمائهم فإنَّهم غير ملومين على ذلك.

* * *

(٧) ـ ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ جَعل المستثنى حدًّا وجَب الوقوف عنده، وحَذف مفعول الابتغاء للتَّعميم، وجاء باسم الإشارة؛ أي: فأولئك المبتغون،

---

(١) وهذا على القول باختصاص (ما) بغير العقلاء. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ١٦).

(٢) قوله: «غيرهم» و«فيهم» الضمير فيهما للعقلاء.

(٣) في (ف) و(ك): «لأنها».

ووسَّط الضَّمير، وعرَّف ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾؛ أي: مَن أحدثَ ابتغاء وراء ذلك الحدِّ بعدَ هذه الفسحة والاتِّساع فأولئك الكاملون في العدوان المتناهون فيه، كلُّ ذلك مبالغةٌ في التَّحذير عن الزِّنا.

وأفرده بالذِّكر بعد تعميم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ لأنَّ المباشرة أشهى الملاهي إلى النَّفس وأعظمُها خطراً.

***

(٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ قيل: لِمَا يؤتَمنون عليه ويعاهَدون عليه من جهة الحقِّ أو الخلق.

وفيه: أنَّه لا حاجة إلى الصَّرف عن الظَّاهر؛ فإنَّ العهد وكذا الأمانة ممَّا يُراعى.

﴿رَٰعُونَ﴾ الرَّاعي: القائمُ على الشَّيء بالحفظ والإصلاح، كراعي الغنم والرَّعيَّة.

وقرئ: ﴿لأمانَتِهم﴾ على الإفراد[١]؛ لأنَّها في الأصل مصدر، أو لأمنِ الإلباس.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾: يواظبون عليها ويؤدُّونها في أوقاتها، وجاء بلفظ الفعل معها[٢] لِمَا فيها مِن التَّجدُّد والتِّكرار، والفعل المضارع في الجملة الاسميَّة يدلُّ على دوام التَّجدُّد.

وقرئ بلفظ الجمع هنا[٣] ليفيدَ المواظبة على أعدادها وأنواعها، ولم يُقرأ به[٤]

---

(١) قراءة ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) في (ك) و(م): «معا».

(٣) قرا حمزة والكسائي بالإفراد وباقي السبعة بالجمع. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «ولم يفرد به»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٧٧).

فيما سبق؛ لأنَّ الكلام هناك في الخشوع، وهو مطلوب في جنس الصَّلاة وفي بدء الأوصاف، وختمُها بذكرها تعظيمٌ لشأنها وإعلاءٌ لقدرها.

* * *

(١٠) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصِّفات.

﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: هم الأحقَّاء بأنْ يُسمَّوا وارثاً دون غيرهم.

* * *

(١١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾؛ أي: يَصلون إليه وإلى ما فيه مِن النَّعيم المقيم بلا تعبِ الكسب، ويبقى في أيديهم، فإن الوراثة أقوى سببٍ للتَّملُّك، حيث لا يُعقب بفسخٍ ولا استرجاع، ولا يُبطل بردٍّ ولا إسقاط.

والفردوسُ: هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثَّمر.

وفي إطلاق الوارثين وتقييدهم، وما ترى من التَّفخيم لِـمَا يرثونه وتعظيمِه، واستعارته الوراثة[1]، وإيراد اسم الإشارة = إشعارٌ بأنَّهم استحقُّوا ذلك الخطبَ الجليل من تلك الأعمال والصِّفات لا بسببيتها له[2]، بل بمقتضى وعده، وهذا القَدْر يكفي في التَّحريض.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أنَّثَ الضَّمير على تأويل الجنَّة أو الطَّبقة، فإنَّه أوسط الجنان

---

(١) في هامش (م): «لما عرفت أن الاستحقاق بلا كسب معتبر في استعارة الوراثة. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «لا لاستئهاله»، وفي (ع): «لا بسببها له»، وسقطت «له» من (ي).

وأعلاها طبقةً، ومن هنا تبيَّن أنَّ ما قيل: إنَّهم يرثون من الكفَّار منازلهم فيها حيث فوَّتوها على أنفسهم لأنَّه تعالى خلق لكلِّ إنسان منزلاً في الجنَّةِ ومنزلاً في النَّار= لا يُناسِبُ المقامَ(١).

***

(١٢) ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ ﴾ السُّلالةُ: صفوةُ الشَّيء التي(٢) تُخرج منه كأنَّها تُستلُّ(٣) منه؛ كالصُّفاوة، فُعالة بمعنى مَفعولٍ، فيه معنى القِلَّة، كالقُلامة والقُمامة(٤).

---

(١) كذا قال، وفي كلامه نظر، فقد رد به تفسيراً مرفوعاً للنبي ﷺ، رواه ابن ماجه (٤٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾». وإسناده صحيح كما قال القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٦)، والحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٤٢). ولذلك فقد قال الآلوسي بعد ما أتبع الحديث بما اختاره المؤلف ورجحه من أن الإرث مستعار للاستحقاق لأنه أقوى اسباب الملك: واختير الأول لأنه تفسير رسول الله عليه الصلاة والسلام على ما صححه القرطبي. قلت: ولعل المؤلف اغتر بصنيع البيضاوي في «تفسيره» (٤/ ٨٣)، حيث قدم ما اختاره المؤلف، وأخر القول بالحديث المرفوع مقدِّما له بـ(قيل) على عادته في تضعيف ما لا يرتضيه من أقوال.

(٢) في (م): «صوت الشيء ححتى»، وفي (ف) و(ك): «صوت الشيء»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «تفسير ابن فورك» (١/ ٧٠)، و«غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ٧٧١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٨٣).

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «نسل»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر المصادر السابقة.

(٤) في (ف) و(ك): «كالعلاقة والعمامة»، وفي (م): «كالعلامة والعمامة والسلامة»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٧٨). ومما ذكروه في هذا الباب: الفُضَالة والنُّخَالة والقُلامة والنُّحاتة والقُوارة والبُراية والكُناسة. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٨).

و﴿مِّن﴾ هنا للابتداء متعلِّقة بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، وفي قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾ للبيان، صفة لـ ﴿سُلَٰلَةٍ﴾؛ أي: سلالة من طين[١].

* * *

(١٣) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: آدم عليه السَّلام، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾: ثم جعلنا نسلَه، على حذف المضاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨].

أو الجنسُ[٢]؛ لأنَّه لَمَّا خُلِقَ أوَّلُ فردٍ منه من سلالة من طين، وسائرُ أفراده خُلِقوا من ذلك الفرد، كان الجنس مخلوقاً من سلالة من طين.

وأمَّا ما قيل: المراد بالطِّين: آدم عليه السلام؛ لأنَّه خُلِقَ منه، والسلالةُ نطفتُه؛ فلا وجهَ له لِمَا قيل من إخراجه عليه السلام من الجنس المذكور، حيث جُعِلَ مخلوقاً مِن نطفته.

﴿نُطْفَةً﴾ بأنْ خلقناه منها.

﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: مستقَرٍّ حصينٍ؛ يعني: الرَّحِم، سُمِّيَ المستقَرُّ بالقَرار مبالغةً كأنَّه نفسُ القَرار، ووُصِف بالمكانة التي هي صفة المستقِرِّ فيه[٣] على الإسناد المجازي؛ تتميماً لأمر المبالغة.

* * *

(١) «أي سلالة من طين» سقط من (ك)، و«أي سلالة» سقط من (ف).

(٢) عطف على: «آدمُ».

(٣) أي: «النطفة». انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٣٢).

(١٤) ـ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ بـأنْ أَحَلْنـا النطفـة البيضـاء علقةً حمـراءَ بتدريجٍ بعدَ زمانٍ.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ فصيَّرناها قطعةَ لحمٍ.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ بأنْ صلَّبناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ فأثبتنا عليها لحماً فصار لها كاللِّباس.

وقرئ: ﴿عَظْماً﴾[١] وضعاً للواحد موضعَ الجمعِ لعدم اللَّبس، واختلافُ العواطف[٢] لاختلاف الاستحالات والتَّكوُّنات[٣] في التَّراخي وعدمه، فـ (ثمَّ)

---

(١) وهي قراءة أبي بكر وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) قوله: «واختلاف العواطف... إلخ»، قال الشهاب: (يعني: عُطف بعضها بثمَّ الدَّالة على التَّراخي وبعضها بالفاء التعقيبية، مع أنّ الوارد في الحديث من أن مدة كل استحالة أربعين يوما يقتضي أن يعطف الجميع بثم إن نظر لتمام المدة أو لأولها، أو بالفاء إن نظر لآخرها..). انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٦/ ٣٢٢). وانظر شرح الاختلاف المذكور للعواطف في التعليق الآتي.

(٣) في (ف): «لاستحالاة والتكونات»، وفي (ك): «لاستحالات وتكونات» وقوله: «لاختلاف» ساقط منهما. والمثبت من باقي النسخ، وعبارة البيضاوي: (واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات)، قال الشهاب: (يعني: أنّ بعضها مستبعد حصوله مما قبله وهو المعطوف بثم، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعدِ الحسيّ؛ لأنّ حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جدا، وكذا جعلُ تلك النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابها له في اللون والصورة، وكذا تثبيتها وتصليبها حتى تصير عظماً؛ لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره، وهذا ما عناه المصنف). انظر المصدر السابق.

للاستحالة الزَّمانيَّة، والفاء للتَّكوُّن الآتي، إلا ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾ فإنها مستعارة لِمَا بينَ الخلقَيْن مِن التَّفاوت.

﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ التَّنكير للتَّنويع؛ أي: نوعاً آخر مِن الخلق مبايناً للخلق الأوَّل ـ بنفخ الرُّوح فيه، وجعلِه حيواناً ـ مباينةً ما أبعدها[1]؛ إذ كان جماداً فجعله حيًّا سميعاً بصيراً، ذا أعضاء ظاهرة وباطنة، في كلِّ واحدٍ منها عجائبُ حكمِه، وغرائبُ صنعِه، ولطائفُ قوةٍ[2] لا يفي بها وصفُ واصفٍ، ولا يبلغها شرحُ شارحٍ.

واحتجَّ به أبو حنيفة على أنَّ مَن غصب بيضة فأفرخت عنده لزمَهُ ضمانُ البيضةِ لا الفَرْخ؛ لأنَّه خلقٌ آخرُ.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: فتعالى شأنُه في قدرته وحكمته.

﴿أَحْسَنُ﴾ بدل أو خبرُ مبتدأ[3] محذوف، وليس بصفةٍ لأنَّه نكرةٌ وإنْ أُضِيفَ؛ لأنَّ المضاف إليه عوضٌ مِن (مِن)[4].

﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: المقدِّرين تقديراً، فحذف المميِّز لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه.

رُوي أنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ، فنطق بذلك

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «ما بعدها»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٣٥).

(٢) «قوة» ليست في (ف) و(ك).

(٣) في (ف): «أو خبر لمبتدأ».

(٤) في (ف): «عوضُ مِن». وهذا الذي ذكره المؤلف من منع النعت هو قول أبي البقاء، وأجازه غيره على أن الإضافة محضة، فتفيده تعريفا إذا أضيف إلى معرفة. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٣٧).

قبل إملائه، فقال له[1] رسول الله ﷺ: «اكتب هكذا أنزلت»[2]، قال عبدُ الله: إنْ كانَ محمَّدٌ نبيًّا يُوحَى إليه فأنا نبيٌّ يُوحَى إليَّ، فلحقَ بمكَّة كافراً، ثمَّ أسلم يومَ الفتح[3].

وهذه الرِّواية غيرُ صحيحة؛ لأنَّ السُّورةَ مكيَّةٌ، وارتداده كان بالمدينة على ما اعترف به الرَّاوي.

* * *

(١٥) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾: لصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذكر النَّعت الذي للثُّبوت دون اسم الفاعل، وقد قرئ به[4].

* * *

(١٦) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للمحاسبة والجزاء، ومعنى التَّراخي قد عُلم من الظَّرف، فإيراد أداته ليس لإفادته، بل لإيفاء حقِّ البلاغة.

---

(١) «له» ليست في (ف).

(٢) في (ك): «نزلت».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٠١): «غريب».

وأصل القصة رواها أبو داود (٤٣٥٨)، والنسائي (٤٠٦٩)، ولفظه: «عن ابن عباس قال: كان عبد الله ابن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ».

(٤) أي: (لمائتون). نسبت لزيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٨)، و«البحر» (١٥/ ٤٣٠).

(١٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾: سماوات؛ لأنَّ بعضَها طُورق فوقَ بعض مطارقةَ النَّعل، وكلُّ شيءٍ فوقه مثلُه فهو طريقُه[1]، وأمَّا العرش والكرسي فليسا مِن الطَّرائق؛ لعدم المماثلة بينهما وبينها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾: وما كنا عنها وعن حفظها وعن إمساكها أن تقع عليكم.

﴿غَٰفِلِينَ ﴾ وفي التَّعبير عنها بالخلق فضلُ مبالغة في تعظيم شأنها، وزيادة ﴿كُنَّا﴾ لاستمرار النَّفي، لا لنفي الاستمرار.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾: بتقديرٍ تقتضيه الحكمة، أو بمقدارِ ما علمنا من صلاحهم.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقرًّا في الأرض أنهاراً وينابيع.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ ﴾: على إزالته بالإفساد أو التَّصعيد أو التَّعميق بحيث يتعذَّر استنباطه.

﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما قدرنا على إنزاله.

وفي تنكير ﴿ذَهَابٍۭ﴾ إيماءٌ إلى[2] كثرة طرقه وأنواعه، ومبالغةٌ في الإيعاد[3]،

---

(١) في (م): «طريقة».

(٢) في (ك) و(م): «على».

(٣) قوله: «في الإيعاد» كذا في النسخ بالياء، ومثله في «الكشاف» (٣/ ١٨٠)، و«البحر» (١٥/ ٤٣٣). وجاء في «تفسير البيضاوي» مع حواشي كل من شيخ زاده والشهاب الخفاجي والقونوي: (في الإبعاد به) بالباء وعليه شرحوا، ومثله في «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٢٨). وكلا اللفظين يحتملهما =

وتعديتُـه بالبـاء تأكيـدٌ لـه، دالٌّ علـى ذهـاب هو[1] معـه يمنعه مـن الظُّهـور، ليس في الإذهـاب ذلـك، وهو فـي غايـة البلاغة، وزعمـوا أنَّه ليـس في قولـه: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ٣٠] هـذه المبالغـة والبلاغـة، وليس الأمـر كما زعموا علـى مـا تقف عليـه في موضعـه بـإذن الله تعالى.

﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بالماء.

﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا﴾: في الجنَّة.

﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ من غير الجنسَيْن المذكورَيْن تتفكَّهون بها.

﴿وَمِنۡهَا﴾: ومن الجنَّات ثمارها وزروعها.

﴿تَأۡكُلُونَ﴾ تغذِّياً[2]، أو: ترزقون وتحصِّلون معايشكم، من قولهم: فلان يأكلُ مِن حرفَتِه.

ويجـوز أنْ يكـون المـراد: لكـم فـي النَّخيـل والأعنـاب أنـواعٌ مـن الفواكـه كالرُّطـب والعنب والتَّمـر والزَّبيب والبُسـر والحصرم والدِّبس والعصيـر وغير ذلك، ومنهـا طعـامٌ تأكلونه.

= السياق، لكن لم أجد من نبه على هذا، ولعلنا لو جمعنا بين اللفظين لم نُبعد، لأن في المبالغة بالإبعاد إيعاد لهم شديد، وقد أشار لهذا الآلوسي في درج كلامه معدداً وجوه أبلغية هذه الآية على آية الملك فقال: (تضمين الإيعاد هنا إيعادَهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى؛ لأن ذهب به يستلزم مصاحبة الفاعل المفعولَ، وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها).

(١) في (ف): «وهو».

(٢) في (ف) و(ك): «تغذياً»، وفي (م): «تعدياً»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٨٤).

(٢٠) ـ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾.

﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وقُرِئَتْ بالرَّفع على الابتداء[١]؛ أي: وممَّا أنشئ لكم به شجرةٌ.

﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾: جبل موسى عليه السلام؛ إمَّا اسمٌ مركَّبٌ من المضاف والمضاف إليه كامرئ القَيس، وإمَّا اسمٌ مضافٌ إلى بقعة اسمُها سيناء، فمَن كسر سينَ ﴿سِيناء﴾[٢] منعَه من الصَّرف للتَّعريف والعجمة، أو التَّأنيث على تأويل البقعة، لا للألف؛ لأنَّ ألف (فِعلاء) ليسَتْ للتأنيث؛ فإنَّه (فِيعال) ـ كديماس ـ من السَّناء بالمد وهو الرِّفعة، أو بالقصر وهو النُّور، أو ملحق بـ(فِعلال) من السِّين[٣]؛ كعِلباء وحِرباء، ومَن فتح السِّين منعه لألف التَّأنيث كصحراء.

﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ في موضع الحال؛ أي: تنبتُ ملتبِسةً بالدُّهن، ويجوز أن تكون الباء للتَّعدية كما في قولك: ذهبت بزيد، ويؤيِّده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (تُخرجُ الدُّهنَ وصبغَ الآكلين)[٤].

وقرئ: ﴿تُنْبِتُ بالدُّهن﴾ من الإنبات[٥]، وهو إما من أَنْبتَ بمعنى نَبتَ، وأصلُه: دخلَ في النَّبات، وإمَّا حذف مفعوله؛ أي: تُنبِتُ زيتونَها ملتبِساً بالدُّهن.

---

(١) نسبت لعاصم ونافع في رواية، والمشهور عنهم النصب كالجماعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢) قرأ الكوفيون وابن عامر بفتح السين وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

(٣) «من السين»؛ أي: من هذه المادة. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، و«الكشاف» (٣/ ١٨١) والكلام منه.

(٥) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

وقرئ على البناء للمفعول(١)، وهو كالأوَّل.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿بِالدُّهْنِ﴾ جارٍ على إعرابه، عُطف أحدُ وصفَي الشَّيء على الآخر؛ أي: تنبتُ بالشَّيء الجامع بين كونه دُهناً يُدهَن به ويُسرَج منه وكونه إداماً يُصبَغ(٢) فيه الخبز؛ أي: يغمس فيه للائتدام.

وقرئ: (وصِباغٍ)(٣) كدِباغٍ في دِبْغٍ.

وإنَّما خصَّ الأنواع الثَّلاثة بالذِّكر مِن بين الثِّمار لأنَّها أكرم الشَّجر وأفضلها وأجمعها للمنافع؛ فإنَّ النَّخل والعنب يجمعان التَّفكُّه والتَّغذِّيَ، والزَّيتونَ يجمع الاصطباح والاصطباغ.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبِرون بها، وتستدلُّون بها.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان على ما نُصَّ عليه في سورة النَّحل، استئنافٌ لبيان العِبرةِ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الألبان.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها.

* * *

---

(١) نسبت لعامر بن قيس. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢) في (م): «يصطبغ».

(٣) نسبت لعامر بن عبد الله. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢٢) ـ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحرِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في أسفاركم، وقد غلب استعمال الأنعام في الإبل، ولذلك قُرِنَتْ بالفُلْكِ لأنَّها سفائن البرِّ.

***

(٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فقصَّتُه وسائر القِصَص مسوقٌ لبيان الكفران مِن النَّاس النِّعمَ المتلاصقة حتى ابتُلوا بزوالها.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾: معبودٍ ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على المحلِّ، وبالجر على اللَّفظ[1].

والجملة[2] استئنافٌ يجري مجرى التَّعليل للأمر بالعبادة.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون أن يزيل نعمَه عنكم[3] ويهلككم بعذابه برفضكم عبادته بعبادة غيره، وكفرانكم نعمَه التي لا تحصونها.

والهمزة الدَّاخلة على الفاء لا[4] لإنكار التَّعقيب، بل لتعقيب الإنكار.

***

(٢٤) ـ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) قرأ الكسائي بالجر، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١١٠).

(٢) «والجملة» سقط من (ك).

(٣) في (ك) و(م): «عنكم نعمه».

(٤) كلمة: «لا»، سقطت من النسخ لكنها كتبت في (ي) فوق همزة «الفاء» استدراكاً.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ﴾: الأشرافُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد سبقَ في تفسير سورة الأعراف وجهُ توصيف الملأ بهذا الوصف.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كنايةٌ على زعمهم عن نفي الرِّسالة عنه.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: أنْ يطلبَ الفضلَ ويترفَّعَ عليكم بالرِّئاسة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً.

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بكون البشر رسولاً، أو بنوحٍ ونبوَّته، أو بما يأمرهم من تخصيص الله تعالى بالعبادة ونفيِ كلِّ مَن دونه مِن الآلهة، أي[1]: بمثل هذا الكلام، وذلك لكونهم في فترة متطاولة، أو لعنادهم وانهماكهم في الغيِّ، فتكذَّبوا[2] في ذلك لأنْ يدفَعوا الحقَّ بما أمكنهم، ولهذا جنَّنوه حيث قالوا:

(٢٥) ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ مع علمهم أنَّه أرجحُ النَّاس عقلاً. والجِنَّةُ: الجنون.

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾: فانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: هو مجنون فلا تعجلوا في عقوبته، بل دعوه إلى مدَّة؛ فإمَّا أن يموت، أو يرجع عن هذا، أو تفعلون به ما شئتم.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم بإهلاكهم وبإنجاز ما وعدتهم من العذاب.

﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إيَّايَ، أو: بدل تكذيبهم إيَّايَ.

---

(١) في (ف): «أو».

(٢) في (ف): «فكذبوا»، وفي (ك) و(م): «فيكذبوا»، والمثبت من (ع) و(ي).

(٢٧) - ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾؛ أي: أجبنا دعاءه فأوحينا إليه.

﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مبالغةً في الحفظ، كان معه من الله تعالى حُفَّاظ[1] يحفظونه بعيونهم لئلا يُفْسِدَ عليه مفسدٌ عملَه.

﴿وَوَحْيِنَا﴾: وأمرنا وتعليمنا كيف يصنع.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: عذابُنا، والمراد من مجيئه: ظهورُ طليعته، وهو[2] فوران الماء مِن التَّنور، وإنما قال:

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ مبالغةً، أخرجَ سببَ[3] الغرقِ مِن موضعِ الحَرقِ؛ ليكونَ أبلغ في الإنذار والاعتبار.

روي أنَّه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام: إذا رأيْتَ الماء يفور مِن التَّنور فاركب أنت ومَن معك في السَّفينة، فلمَّا نبعَ الماء مِن التَّنور أخبرتْهُ امرأتُه فركِبَ[4].

﴿فَاسْلُكْ﴾: فأدخل ﴿فِيهَا﴾ سلك يجيء لازماً ومتعدِّياً، وجاء: أَسْلكه، بالنَّقل مِن اللَّازم.

---

(١) في (ع) و(ك) و(م) و(ي): «حفَّاظا».

(٢) في (ك): «وهي».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «بسبب»، والمثبت من (ع) و(ي) و«تفسير النسفي» (٢/ ٤٦٥).

(٤) روى الطبري نحوه في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد.

﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتَّنوين؛ أي: مِن كل أمَّةٍ ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تأكيدٌ، وبالإضافة[1]؛ أي: مِن كلِّ أمَّتي الذَّكر والأنثى واحدَيْن مزدوجَيْن.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أهلَ بيتك ومَن آمنَ معك.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾؛ أي: القولُ من الله بهلاكه بكفره، وإنَّما جيء بـ(على) لأنَّ السَّابق ضارٌّ، كما جيء باللَّام حيث كان نافعاً في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: مِن أهلِك، وهذا يأبى عن تخصيص تفسيره بمَن آمنَ.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهذا نهيٌ عن الدُّعاء لهم بالإنجاء على وجهٍ أبلغ، ومَن خصَّ الخطاب بالدُّعاء فقد أخلَّ بحقِّ البلاغة.

جعل النَّهي عن الدُّعاء معلَّلاً بالظُّلم، فلذلك وضع الموصول مع الصِّلة موضعَ الضَّمير، ولم يقل: ولا تخاطبني فيهم؛ إيماءً إلى العلَّة.

ولَمَّا لوَّح إلى[2] أنَّ الحكمة تقتضي هلاك الظَّالم استأنفَ قوله:

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالتَّأكيد؛ أي: لا محالةَ لظلمهم بالإشراك والمعاصي؛ ثمَّ بالغ في ذلك بأمره بالحمد على هلاكهم والنَّجاةِ منهم عُقَيْبَ النَّهي عن الدُّعاء.

***

(٢٨) ـ ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾: فإذا تمكَّنتم عليها راكبين.

---

(١) أي: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ قراءة السبعة عدا حفص فقرأ بتنوين اللام. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) «إلى» ليست في (ف) و(ك).

﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أمرَهُ بالحمد على نجاته ونجاة مَن معه؛ إشارة إلى أنَّ نجاةَ أتباعه أيضاً نعمةٌ جليلةٌ في حقِّه، وامتناناً بها أيضاً، ولو قال: (فقولوا) لم يحصل هذا المعنى.

وأيضاً كبرياء الرُّبوبيَّة يقتضي أنْ[1] لا يترقَّى إلى الخطاب بحضرتها إلَّا نبيٌّ مثله[2]، وأنَّ[3] كلامه يغني عن كلامِهم، ولا يستأهل الإجابة إلَّا مثلُه.

***

(٢٩) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ﴾ لَمَّا نهاه عن الدُّعاء لإنجائهم أمرَه بدعاء هو أهمُّ وأنفعُ، وهو أنْ يُنْزَلَ منزلاً مباركاً.

﴿أَنزِلْنِى﴾ في الأرض من السَّفينة، لا في السَّفينة؛ لأنَّه عَبَّرَ عنه سابقاً بعبارة تدلُّ على الصُّعود، وقد حصل الفراغ عنه وعن إظهار الامتنان بما ترتَّب عليه مِن نعمةِ النَّجاة.

﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾: يُبارَك لي فيه، ويتسبَّب لزيادة خير الدَّارَيْن.

وقرئ: ﴿مَنْزِلاً﴾[4] بمعنى إنزالاً، أو موضعَ إنزال.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناءٌ مطابقٌ لمسألته، أمرَه بأنْ يُشفِعَه بها مبالغةً فيها وتوسُّلاً

---

(١) في (ف): «لأن».

(٢) في (ف) و(ك): «من مثله» بدل «نبي مثله».

(٣) في (ف): «وإن كان».

(٤) وهي قراءة أبي بكر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

به إلى الإجابة، إنَّما أمرَه بالقولَيْن المذكورَيْن لا بالحمد والدُّعاء تعليماً[1] لطريقهما، وإظهاراً لفضيلة الحمد والدُّعاء[2] بالعبارَتَيْن المذكورَتَيْن.

* * *

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ فيما فُعِلَ بنوحٍ وقومِه.

﴿لَآيَاتٍ﴾ يَستدلُّ بها ويَعتَبِر أولو الاستبصار والاعتبار.

﴿وَإِن﴾ هي المخفَّفة مِن الثَّقيلة، واللَّام هي الفارقة بينها وبين النَّافية، والمعنى: إنَّ الشَّأن والقصَّة.

﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمختَبِرين بهذه الآيات عبادَنا لننظر مَن يعتبر ويذَّكَّر؛ لقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

وقيل: لمصيبين قومَ نوحٍ ببلاءٍ عظيمٍ. وليس في الإخبار به كثيرُ فائدةٍ.

* * *

(٣١) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾: عاداً قوم هود عليه السلام؛ لقولِه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ـ فإنَّه قولُ هود عليه السلام لا قولُ صالح عليه السلام ـ ومجيءِ قصة هود على[3] إثر قصَّة نوح عليهما السلام في سورة الأعراف وهود والشُّعراء.

---

(١) في (م): «تعظيما».

(٢) «تعليماً لطريقهما وإظهاراً لفضيلة الحمد والدعاء» سقط من (ك).

(٣) «على» ليست في (ف) و(ك).

(٣٢) ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ ﴾؛ أي: بين ظهرانيهم وفي زمرتهم، ولم يأتهم مِن موضِعٍ آخر.

﴿رَسُولًا﴾ التَّنكير للتَّعظيم ﴿مِّنْهُمْ﴾: مِن قبيلَتِهم.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (أنْ) مفسِّرة لـ (أرسلنا)؛ أي: قلنا لهم على لسان الرَّسول: اعبدوا الله.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَه، وإدخال الهمزة على الفاء لإنكار عدم التَّقوى بعد العلم بأنَّه لا إله لهم غيره.

وفيه تنزيلٌ لهم منزلةَ العالم به؛ لتمكُّنهم مِن العلمِ به، وتنبيهٌ على ظهور الدِّلالة على ذلك.

* * *

(٣٣) ـ ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لَمَّا تضمَّن ﴿ فَأَرْسَلْنَا﴾ معنى القَول عطفَ عليه قولهم بالواو[١]؛ أي: اجتمع في الحصول ذاك[٢] الحقُّ وهذا الباطلُ.

﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: بلقاء ما فيها من الحساب والجزاء، يعني: بالبعث.

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾: ونعَّمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد:

---

(١) في هامش (ف) و(م) و(ع): «هذا هو الوجه لا ما ذكر القاضي من عدم اتِّصال كلامهم بكلامه؛ لأنَّه إنَّما يصلح وجهاً لعدم التَّصدير بالفاء، لا للتَّصدير بالواو؛ لبقاء احتمال الفصل على الاستئناف. منه».

(٢) في (ف): «ذلك».

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ في الحال والصَّفة.

﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ تقريرٌ للمماثلة، ولذلك تُرِكَ في قصَّة نوح عليه السلام لترك قيد المماثلة.

و(ما) خبريَّة، وحذف العائد إلى الثَّاني لدلالة ما قبلَه، أو لشياع حذف المنصوب؛ أي: تشربونه.

***

(٣٤) ـ ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا﴾ واقعٌ في جزاء الشَّرط، وجوابٌ للذين قاولوهم مِن قومهم.

﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ بالانقياد لمثلكم، ومن حمقهم أنَّهم[1] أبوا اتِّباع أمثالهم وعبدوا أعجزَ منهم.

***

(٣٥) ـ ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾.

﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ لَمَّا كان كونه تراباً معلوماً بطريق العقل وكونُهم عظاماً مشاهَداً معلوماً بطريق الحسِّ، كان الثَّاني أشدَّ دفعاً في الاستبعاد عندَ العامَّة، فلذلك أخَّره، بل نقول: لولا مشاهدة العظام لكان الوهم يعارض العقل في كونه تراباً، فهو كالتَّتميم للأوَّل، ولذلك تراه يُذكَرُ مؤخَّراً في جميع المواضع.

﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ من العدم إلى الوجود تارةً أخرى.

---

(١) «أنهم» ليست في (ف).

وثنَّى ﴿أَنَّكُمْ﴾ للتَّأكيد، وحَسُنَ ذلك لطول الفصل بين الأوَّل والثَّاني، و﴿مُّخْرَجُونَ﴾ خبرٌ عن الأوَّل، و﴿إِذَا﴾ لمجرَّد الظَّرفيَّة، أو محذوف الجواب لدلالة (أنَّ) مع اسمها وخبرها عليه.

أو[1] ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ خبره الظَّرف، والجملة خبر (أنَّ) الأولى؛ أي: أنكم إخراجكم إذا متم، أو مرفوع بفعل مقدَّر هو جواب الشَّرط، والشرطيَّة خبر؛ أي: أنكم إذا متم وقعَ إخراجكم[2].

***

(٣٦) - ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ من أسماء الأفعال، واقعٌ موقع بَعُدَ، وفاعلها مُضمَر؛ أي: بَعُدَ التَّصديق أو الوقوع، واللَّام في:

﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، كأنَّهم لَمَّا صوَّتوا بكلمة الاستبعاد قيل: فما الذي له هذا الاستبعاد؟ قالوا: لما توعدون.

أو فاعلها ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ واللَّام زائدة؛ أي: بَعُدَ ما توعَدُون مِن البعثِ.

وقيل: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمعنى: البُعْدُ، وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

وقرئ بالفتح منوَّناً للتَّنكير[3]، وبالضَّمِّ منوناً على أنَّه جمع هيهةٍ، وغيرَ منوَّنٍ

---

(١) في (ك) و(م) و(ع): «و».

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٨٧).

(٣) نسبت لخالد بن إلياس، ولهارون عن أبي عمرو. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٤٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٦١).

تشبيهاً بـ (قبلُ)، وبالكسر على الوَجهَيْن[١]، وبالسُّكون على لفظ الوقف[٢]، وبإبدال التَّاءِ هاءً[٣].

***

(٣٧) ـ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله: إنِ الحياةُ إلَّا حياتُنا الدُّنيا، فوضع ﴿هِيَ﴾ موضعَ (الحياة) لدلالة الخبر عليها؛ حذراً عن التِّكرار، وإشعاراً بأنَّ تعيينها مغنٍ عن التَّصريح، كقوله:

هـي النَّفـسُ مـا حَمَّلتَهـا تَتحمَّـلِ[٤]

والمعنى: لا حياةَ إلَّا هذه الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ (إنْ) النَّافية دخلَتْ على (هي) التي بمعنى الجنس، فوازنت (لا) التي لنفي الجنس.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت منَّا بعضٌ ويُولَد بعضٌ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعدَ الموتِ.

***

(٣٨) ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) قرأ بالكسر بلا تنوين أبو جعفر المدني. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٨).

(٢) أي: (هيهاتْ هيهاتْ). نسبت لخارجة بن مصعب وأبو حيوة والأحمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧). وانظر كل ما ذكر من قراءات في «الكشاف» (٣/ ١٨٦).

(٣) وقف الكسائي والبزي بالهاء. انظر: «التيسير» (ص: ٦٠).

(٤) صدر بيت لعلي بن الجهم. انظر: «ديوانه» (ص: ١٦٢)، و«روضة العقلاء» (ص: ١٤٥)، و«معجم الشعراء» (ص: ٤٤)، وعجزه:

وللدَّهْـرِ أيَّـامٌ تجـورُ وتعـدِلُ

﴿إِنْ هُوَ﴾: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ فيما يدَّعيه مِن إرساله[١]، وفيما يعدنا مِن البعث، والمفتري قد يكون صادقاً في نفسه، ويكون الكذب في نسبته إلى المفترى عليه، فقوله:

﴿كَذِبًا﴾ لدفع هذا الاحتمال، وهذا غاية الضَّلال.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾: بمصدِّقين، وتقديم ﴿لَهُ﴾ للمحافظة على الفاصلة.

***

(٣٩) ـ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم، وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قد سبق تفسيره.

فأجاب الله تبارك وتعالى حيث:

(٤٠) ـ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ (عن) يتعلَّق بـ (يصبحُنَّ)، و(ما) زائدة لتوكيد معنى القلَّة، أو بمعنى شيء، أو زمن، و﴿قَلِيلٍ﴾ صفةٌ له، وجواب القسم المحذوف.

﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على ما فعلوا إذا عاينوا ما يحلُّ بهم.

***

(٤١) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾: العقوبةُ الهائلةُ، لا صيحةُ جبريل عليه السلام وعلى إخوانه من الملائكة والنَّاس؛ لِمَا عرفتَ أنَّ القصَّة قصَّة هود عليه السلام وعلى إخوانه[٢]، لا قصَّةُ صالح عليه السلام.

---

(١) في (ف): «الرسالة».

(٢) «وعلى إخوانه» ليست في (ف).

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ باستحقاقهم ذلك، أو: بالوجه الثَّابت الذي لا دافع[1] له، أو: بالعدل من الله تبارك وتعالى، أو: بالوعد[2] الصِّدق.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ شبَّههم في دمارهم بالغُثاء، وهو حميل السَّيل ممَّا بَلِيَ واسودَّ من الورق والعيدان، وهذا التَّشبيه يناسب حال قوم هود عليه السلام.

﴿فَبُعْدًا﴾ مصدر بَعُدَ: إذا هلك، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يُستعمل إظهارها.

واللَّام في:

﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لبيان مَن دُعِيَ عليه بالبُعْدِ، ووُضع الظَّاهر موضع المضمر[3] للتَّعليل، ويحتمِل الإخبارَ.

***

(٤٢) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليه السلام.

***

(٤٣) ـ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ﴾ مزيدةٌ للاستغراق ﴿أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: الوقتَ الذي عُيِّنَ لهلاكها وكُتِبَ.

---

(١) في (ف) و(ك): «دفع».

(٢) في (ف): «بالوعيد».

(٣) في (ك): «الضمير».

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ الأجلَ.

***

(٤٤) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ فَعْلى، والألف للتَّأنيث؛ لأنَّ الرُّسل جماعة.

وقرئ: ﴿تتراً﴾ بالتَّنوين[1] على أنَّه مصدر بمعنى المتواترة وقع حالاً، والتَّاء بدل من الواو كما في تَوْلَج وتَيْقُور[2]؛ أي: متواترين واحداً بعد واحدٍ، مِن الوتر، وهو الفرد.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ أضاف الرُّسل مع الإرسال إلى المرسَل ومع المجيء إلى المرسَل إليهم؛ لأنَّ مبدأ الإرسال[3] منه ومنتهى المجيء إليهم، فالرَّسول يلابسُهما[4] جميعاً، فتصحُّ إضافتُه إليهما.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم﴾: فأتبعنا بعضَ الأمم أو القرون ﴿بَعْضًا﴾ في الإهلاك.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أخباراً يُسْمَر بها، ويُتعجَّب منها.

والأحاديثُ تكون اسمَ جمعٍ للحديث، ومنه أحاديث الرَّسول عليه

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

(٢) التَوْلَجُ: كِناسُ الوحِش الذي يَلِجُ فيه. التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل لأنك لا تكاد تجد في الكلام تفعل اسماً. والتَّيْقورُ: الوقارُ، وأصلُه ويقور، قلبت الواو تاء. انظر: «الصحاح» (مادة: ولج، وقر).

(٣) في (ف): «الرسالة».

(٤) في (م): «ملابسهما».

السلام، وتكون جمعاً للأحدوثة، وهي ما يتحدَّث به النَّاسُ تلهِّياً وتعجُّباً، وهو المراد هنا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ﴾ سبق تفسيره آنفاً ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

***

(٤٥) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ للإشعار بأنَّ إرساله عليه السلام كان تَبعاً لموسى عليه السلام، تعرَّض لأخوَّته له، ونزَّل ذلك الوصفَ منزلةَ الأصل، حيث جعل اسمه بدلاً عنه.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التِّسع.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجَّةٍ واضحةٍ تظهِرُ بُطلانَ المخالِف، ويجوز أنْ يُراد به العصا، وإفرادُها بالذِّكرِ لأنَّها أمُّ المعجزات وأُولاها، وتعلَّقَتْ بها معجزاتٌ شتَّى كما ذكر، كأنَّها[1] ليست بعضَها لِـمَا استندت به من الفضل، ويجوز أنْ يُرادَ الآياتُ أنفسها؛ لأنَّها آياتٌ وحجَّةٌ بيِّنةٌ.

***

(٤٦) ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ لاستخلاص بني إسرائيل عن أيديهم على ما أفصح عنه في سورة الشعراء، حيث قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦]؛ أي: خلِّهم يذهبوا معنا إلى الشَّام.

---

(١) في (ف): «كما إذا ذكر أنها»، وفي (ك): «كما ذكر أنها».

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن تصديقِهما في الرِّسالة المذكورة، وعن الائتمار بأمرِهما، لا عن المتابعة؛ لأنَّهما عليهما السلام لم يَدْعوهم إليها، دلَّ على ذلك قولهما: خلِّهم يذهبوا معنا إلى الشَّام.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾: متكبرين.

***

(٤٧) ـ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾: أنذعَنُ وننقادُ ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ البَشرُ اسم الجنس، كما يُطلَق على الجمع كقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، يُطلَق على الواحد كقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وبهذا الاعتبار يثنَّى.

و(مِثْل) كغير: يُوصَفُ به الاثنان والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ويقال أيضاً: هما مثلاه، وهم أمثالهم.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيل.

﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ على الحقيقة، كأنَّه كان يدَّعي الإلهيَّة فادَّعى للنَّاس العبادةَ.

***

(٤٨) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

***

(٤٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ بعدَ إهلاكِهم ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: التَّوراةَ.

لَمَّا كان إيتاؤه موسى عليه السلام في حكم إيتائه قومه قال:

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾؛ أي: يعملون بشرائِعِها ومواعظها؛ فإنَّ الاهتداءَ بالكتبِ الإلهيَّةِ إنَّما يحصل بالعملِ بما فيها، لا بعلْمِها.

***

(٥٠) ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ عَبَّرَ عنه بكنيته دون اسمه؛ لما فيها من الإشارة إلى وجه كونه آية، وهو ولادته مِن غير أب، وذلك أنَّ الأصل في النَّسب هو الأب، فلا يُعدَلُ عنه إلَّا عندَ فقدِه.

﴿وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ بولادتها إيَّاه من غير مسيسٍ، فهما معاً آيةٌ واحدةٌ.

أو: وجعلنا ابنَ مريم آيةً بأنْ تكلَّم في المهد وظهرَتْ منه معجزاتٌ أُخَر، وأمَّه آيةً بأنْ ولدَتْ مِن غيرِ مَسيسٍ، فحذف الأولى لِدلالةِ الثَّانية عليها.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: هي الأرضُ المرتفعة، قيل: هي بيت المقدس، وقيل غيره.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ ﴾: مستقرٌّ مِن أرضٍ منبسطةٍ، وقيل: ذات ثمارٍ وزروعٍ، فإنَّ ساكنيها يستقرُّون فيها لأجلها.

﴿وَمَعِينٍ﴾ المَعينُ الماءُ الجاري على وجه الأرض، مفعول مِن عَانَه: إذا أدركه بالعَيْن، نحو رَكَبَهُ: إذا ضربَه بالرُّكْبَةِ؛ أي: يُدْرَكُ بالعَيْن لظهوره، فميمه على هذا زائدة.

أو فعيل مِن مَعَنَ الماء: إذا جرى، وأصله: الإبعاد في الشَّيء، أو مِن الماعون الذي هو المنفعة؛ أي: نفَّاع، فميمُه أصليَّةٌ.

***

(٥١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا النِّداءُ والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أُرْسِلوا متفرِّقين في أزمنةٍ مختلفةٍ، وإنَّما المعنى الإعلام بأنَّ كلَّ رسولٍ في زمانِه نُودِيَ لذلك ووصِّي به؛ ليعتقد السَّامع أن أمراً نودي له جميع الرُّسل ووُصُّوا به حقيقٌ أنْ يُؤْخَذ به ويُعْمَل عليه، أو خطابٌ لمحمَّدٍ عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقامَ الكلِّ في زمانه، وكان يأكل من الغنائم، أو لعيسى عليه السلام لاتِّصال الآيةِ بِذِكْرِه، وكان يأكل مِن غَزْل أمِّه، وهو أطيب الطَّيِّبات.

والمراد بـ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: ما[1] حلَّ، والأمرُ للتَّكليف، أو: ما يُستطَابُ ويُستَلَذُّ، والأمرُ للتَّرفيه[2] والإباحة، ومع الاحتمال لا يتمُّ الاحتجاج به على الرَّهبانيَّة[3] في رفض الطَّيِّباتِ بالمعنى الثاني.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾: موافقاً للشريعة.

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فأجازيكم على أعمالكم.

***

(١) في (ف) و(م): «مما».

(٢) في (ك): «للتنزيه».

(٣) في (ك): «الرهابنة».

(٥٢) ـ ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾.

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ ﴾ بالكسر على الاستئناف، وبالفتح[1] بمعنى: ولأنَّ، والمعلَّل ﴿فَٱتَّقُونِ ﴾، أو هو معطوف على ما قبله؛ أي بما تعملون عليم وبأنَّ هذه، أو تقديره: واعلموا أن هذه.

وقرئ بالتَّخفيف[2].

﴿أُمَّتُكُمْ ﴾: مِلَّتُكم وطريقَتُكم.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ في أصول الشَّرائع والمعتقدات، أو: جماعتُكم جماعة واحدة متَّفقة في التَّوحيد والإيمان، ونصبُها على الحال.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ وحدي ﴿فَٱتَّقُونِ ﴾ في شقِّ العَصا ومخالفة الكلمة.

***

(٥٣) ـ ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ تقطَّع بمعنى قطَّع، والضَّمير لِمَا دلَّ عليه (الأمَّة) مِن أربابها، أو لها.

﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾: ما أُمِروا به مِن الشَّرائع والأحكام.

﴿زُبُرًا ۖ ﴾: جمع زبور؛ أي: كُتُباً مختلفة؛ يعني: جعلوا دينهم أدياناً، وقيل: تفرَّقوا في دينهم كلٌّ ينتحل[3] كتاباً.

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

(٢) بتخفيف النون مع فتح الهمزة قراءة ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

(٣) في (ف) و(ك): «سجل»، وفي (م): «مسجد». والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٤٧٢)، والكلام منه، ولفظه: «تفرقوا في دينهم فرقاً كل فرقة تنتحل كتاباً».

وعن الحسن: قطَّعوا كتابَ الله قطعاً[1].

ويؤيده قراءة: (زُبَراً) بفتح الباء[2]، جمع زُبْرةٍ مستعارة من زُبَر الحديد، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿أَمْرَهُم﴾، أو من الواو.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾: كلُّ فرقةٍ مِنْ فِرَقِ هؤلاء المختلفين المتقطِّعين دينهم.

﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مِن الكتاب والدِّين، أو مِن الهوى والرَّأي.

﴿فَرِحُونَ﴾: معجبون معتقدون أنَّهم على الحقِّ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾: في جهالتهم، شبَّهها في غلبتها عليهم بالماء الذي يَغْمُرُ القامةَ؛ لأنَّهم مغمورون فيها، أو شُبِّهوا باللَّاعبين في غمرةِ الماءِ؛ لِمَا هم عليه مِن الباطل.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يُقتلوا أو يموتوا[3]. سُلِّيَ به رسول الله ﷺ، ونُهي عن الاستعجالِ بعذابِهم.

* * *

(٥٥) ـ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ﴾: أنَّ ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيانٌ

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٤٧٢). وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٢ ـ ٦٣) عن مجاهد.

(٢) نسبها الداني في «جامع البيان» لابن عامر (٢/ ٣٠٣) لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوية ابن عامر، ونسبت لأبي عمرو في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩).

(٣) في (م): «ويموتوا».

لـ (ما) لا خبرٌ له، فإنَّه غيرُ مُعابٍ عليه، وإنَّما المعاب عليه اعتقادهم أنَّ ذلك خيرٌ لهم، فخبرُه:

***

(٥٦) ـ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والعائد مِن خبر (أنَّ) إلى اسمها محذوفٌ؛ أي: نسارع لهم به، والمعنى: إنَّ هذا الإمداد ليس إلَّا استدراجاً لهم إلى المعاصي، وهم يحسبونه مسارعةً لهم في الخيرات، ومعاجلةً بالثَّواب جزاءً على حُسن صنيعهم، ويجوز أن يُراد: في جزاء الخيرات كما يُفعل بأهل الخير من المسلمين.

﴿بَل﴾ إضراب عمَّا يحسبونه.

﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: بل[1] هم أشباهُ البهائم، لا فِطنةَ بهم ولا شعور حتى يتأمَّلوا ويتفكَّروا[2] في ذلك، فيعلموا أنه استدراجٌ لا مسارعةٌ في الخير.

***

(٥٧) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ الخشيةُ: خوفٌ يَشوبُه التَّعظيمُ.

﴿مُّشْفِقُونَ﴾: قاضُون لحقِّ الهيبة والعظمة على حذرٍ ورقْبَةٍ. والإشفاقُ: خوفٌ معَ اعتناءٍ.

***

(١) «بل» سقط من (ف).

(٢) في (ك): «أو يتفكروا».

(٥٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزَّلة.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدِّقون مدلولَها ونزولَها مِن عند الله.

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جليًّا ولا خفيًّا.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ يعطون ما أعطوه من الصَّدقات. وقرئ: (يَأْتُونَ مَا أَتَوْا)[1]؛ أي: يفعلون ما فعلوه مِن الطَّاعات.

﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أنْ لا يُقبلَ منهم، وأنْ لا يقعَ على الوجه اللَّائق فيؤاخَذوا به.

والوَجَلُ: اضطرابُ النَّفسِ لتوقُّعِ ما يُكْرَه[2].

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأنَّ مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

* * *

(٦١) ـ ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: يرغبون فيها أشدَّ الرَّغبةِ فيبادرونها، والأحسنُ طباقاً لِما تقدَّم والأشدُّ وِفاقاً له أنَّ المعنى: أنَّهم يسارعون في نيل الخيرات

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨)، و«المحتسب» (٢/ ٩٥).

(٢) في (م): «لتوقع مكروه».

الدُّنيويَّـة ويتعجَّلـون فـي الدُّنيـا المنافـع ووجـوه الإكـرام، لأنَّهـم إذا سُـورِعَ بهـا لهـم فقد سـارعوا فـي نيلهـا وتعجَّلوهـا؛ لقولـه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]؛ لأنَّ فيـه إثبـاتَ مـا نُفِـيَ عـن الكفَّـار للمؤمنين.

﴿وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾؛ أي: لأجلها فاعلون السَّبْقَ، أو: سابقون النَّاس لأجلِها، أو: إيَّاها سابقون؛ أي: ينالونها قبلَ الآخرة، حيث عُجِّلَتْ لهم في الدُّنيا.

حال من فاعل ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾، أو عطف على ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ﴾ عطفَ الجملة على الجملة، ﴿لَهَا﴾ صلة ﴿سَـٰبِقُونَ﴾، أو علته[1]، أو خبر (هم)، و﴿سَـٰبِقُونَ﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ.

***

(٦٢) ـ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾: قَدْرَ طاقتها، يريد به التَّحريض على ما وصفَ به الصَّالحين وتسهيله على السَّامعين.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ﴾؛ أي: ما عملوه غيرُ ضائعٍ، بل مثبَتٌ في كتابٍ؛ أي: اللَّوحِ، أو صحيفةِ الأعمال.

﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: يبيِّنُ الصِّدق، لا يوجد فيه ما يخالفُ الواقعَ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عِقابٍ، أو نقصان ثواب، وتقديم ﴿وَهُمْ﴾ للمحافظة على الفاصلة، ثم عاد إلى ذِكْر الكافرين فقال:

---

(١) والمعنى: يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ١٠٣).

(٦٣) ـ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾: في غفلةٍ غامرةٍ لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾: مِن الذين وُصِفَ به السَّابقون.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ متجاوزةٌ عمَّا وُصِفُوا به، والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ للتَّعظيم.

﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: معتادون فعلها.

* * *

(٦٤) ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعِّميهم.

﴿بِالْعَذَابِ﴾ وهو القَتْلُ يومَ بدرٍ، أو الجوعُ حين دعا عليهم رسولُ الله ﷺ فقال: «اللهمَّ اشدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، واجعَلْها عليهم سنينَ كسِني يوسف»[1]، فابتلاهم اللهُ تعالى بالقَحْطِ حتى أكلوا الجيَف والكلاب والعِظام المحرَّقة والقِدَّ والأولاد[2].

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ الجؤارُ: الصُّراخُ بالاستغاثة؛ أي: فاجَؤوا به، وهو جواب الشَّرط، والجملة مبتدأ بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ويجوز أن يكون الجوابُ:

(٦٥) ـ ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ فإنَّه مُقدَّر بالقول؛ أي: يُقال لهم: لا تجأروا.

---

(١) رواه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٩٣). القد بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ.

﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهي؛ أي: لا تجأروا، فإنَّه لا ينفعكم إذ لا تُمنعون[١] منا، أو لا يلحقكم نصرٌ مِن جهتنا.

***

(٦٦) ـ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ يعني: القرآن.

﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قد استمرَّ تجدُّد تلاوته عليكم وقتاً بعدَ وقتٍ.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تُعرضون عنها؛ أي: عن سماعها وتصديقها على أشنع وجه مستمرِّين على ذلك، والنُّكوص: أن يرجع القَهْقَرى، وهو أقبح مشيَةٍ لأنَّه لا يرى ما وراءه.

***

(٦٧) ـ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ على المسلمين ﴿بِهِۦ﴾: بالبيت أو بالحرم[٢]؛ لأنَّهم يقولون: لا يظهر علينا أحدٌ لأنَّا أهلُ الحرم، والذي سوَّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت[٣].

أو: بـ ﴿ءَايَٰتِى﴾ لأنَّها في معنى: كتابي، ومعنى استكبارهم به: تكذيبُهم به استكباراً على التَّضمين، أو مستكبرين بسببه؛ أي: إذا تُتلَى عليكم حدثَ بسببِهِ استكبارُكُم.

---

(١) في (ف) و(ك): «تمتنعون».

(٢) في هامش (ع) و(ف) و(م): «وأمَّا التَّكذيب فلا يصلح سبباً للاستكبار، بل الأمر بالعكس».

(٣) «بالبيت» سقط من (ك).

أو يتعلق الباء بقوله: ﴿سَٰمِرًا﴾؛ أي: تَسْمُرون[١] بذكر القرآن وبالطَّعن فيه، وذلك أنَّهم كانوا يجتمعون حولَ البيت يَسمُرونَ، وكانت[٢] عاقبةُ سَمَرِهم ذكرَ القرآن وتسميتَه سحراً وشعراً. والسَّامرُ نحوُ الحاضر في الإطلاق على الجمع.

أو بقوله: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ وهو مِن الهَجْرِ بالفتح: الهذيان، وبالضَّم: الفُحْش.

وقرئ: ﴿تُهْجِرُون﴾[٣]، [و: (تُهَجِّرون)][٤]، مِن أَهْجَرَ في منطقه: إذا أَفْحَشَ، ومِن هَجَّر الذي هو مبالغةٌ في هَجَرَ: إذا هَذَى؛ أي: تُعْرِضون عن القرآن وتَهْذون في شأنه، أو تُفحشون[٥].

***

(٦٨) ـ ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾: القرآنَ؛ ليعلموا عند تدبُّره أنَّه الحقُّ المبين، فيصدِّقوا به وبمَن جاء به، أو ليخافوا[٦] عند تأمُّل أقاصيصِه مثلَ ما أنزل[٧] بمَن قبلِهم مِن المكذِّبين.

---

(١) في (م): «تستمرون».

(٢) في (ف) و(م): «وكان».

(٣) وهي قراءة نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٩).

(٤) من «الكشاف» (٣/ ١٩٤). ونسبت لابن مسعود وابن عباس وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨)، و«البحر» (١٥/ ٤٦٨).

(٥) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «تفحشونه»، والمثبت من (ي).

(٦) في (ف) و(ك) و(م): «ليخالفوا»، والمثبت من (ع) و(ي) وهو الصواب. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ١١٤).

(٧) في (ك) و(م): «ما نزل».

والهمزةُ للتَّقرير والتَّوبيخ؛ أي: أبعدَ وضوحِ آياتي المتلوَّة عليهم لم يتدبَّروه؟!

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ منقطعةٌ؛ أي: عدم تدبُّرهم أجاءَهم ما لم يأتِ آباءَهم الأقدمين مِن كتابٍ أو رسولٍ أو أَمْنٍ مِن عذابِ الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيل عليه السلام وأعقابه؟!

فالهمزة هذه للإنكار، ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: الذين مَضوا ممَّنْ سبقوهم مِن الأقربين الذين قلَّدوهم، فتكون الهمزة للتَّقرير أيضاً.

***

(٦٩) ـ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ إضرابٌ عَّما ذُكِرَ، وإنكارٌ لعدم معرفتهم إيَّاه، لأنَّهم عرفوه بالأمانة والصِّدق، وحسن الخُلُق، وكمال العلم مع عدم التَّعلُّم، إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء.

﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ تفريعٌ على عدم معرفتهم إيَّاه، فيدخل تحت الإضراب والإنكار.

ولا وجه لِمَا قيل: لأحد هذه الوجوه[1]؛ لأنَّ الآتي بعده مِن جملة الوجوه، فلا وجه للفصل بينها بما ذُكِر.

***

---

(١) يشير إلى البيضاوي الذي قال: (﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها). قال الشهاب: قوله: (لأحد هذه الوجوه) المذكورة تعليل للإنكار بوجوه مذكورة في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾ إلى هنا فإنها وجوه للإنكار ترتب عليها (لا وجه له)؛ أي: للإنكار (غيرها). انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٣٤٠).

(٧٠) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ إضرابٌ وإنكارٌ أيضاً لقولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ لأنَّهم كانوا يعلمون أنَّه أرجحُهم عقلاً، وأتقنُهم رأياً، وأصوبُهم نظراً.

ويجوز أن تكون الهمزة للاستفهام، و﴿أَمْ﴾ هي المتصلة، ويكون الكلام على طريق المجادلة بالتي هي أحسن؛ أي: أيّ هذه الأمور كائنٌ، كما يقول المناظر: إنَّ الأمر لا يخلو مِن أحد هذه الأقسام، لكنَّ الأقسامَ(١) كلَّها باطلة إلَّا القسمَ الأوَّل، وهو عدم التَّدبُّر، وعبَّر عنه بقولِه:

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ بمخالفته أهواءَهم، فلذلك لم يتدبَّروا، وإنَّما قيَّد الحكم بالأكثر لأنَّه كان منهم مَن تركَ الإيمان استنكافاً مِن توبيخِ قومِه، أو لقلَّة فطنتِه ولعدمِ فكرَتِه، لا لكراهةِ الحقِّ.

***

(٧١) - ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ على سبيل الفَرْضِ والتَّقدير كما تُفْرَضُ المحالاتُ ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الشِّرك بأنْ كان في الوجود آلهةٌ شتَّى ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كما سبق تقريره في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

أو: وَلَوِ اتَّبع الحقُّ الذي قام به السَّماوات والأرضُ أهواءَهم لانقلَبَ باطلاً، ولذهبَ ما قام به العالم فلا يبقى شيءٌ منه(٢).

---

(١) «لكن الأقسام» من (م) و(ي).

(٢) في (ف): «منه شيء».

أو: وَلَـوِ اتَّبـع الحـقُّ الـذي جـاء بـه محمَّـدٌ عليـه السـلام ـ وهـو الإسـلام ـ أهواءَهـم وانقلـب شـركاً لجـاء الله تعالـى بالقيامـة وأهلـك العالَم مِن فـرط غضبه ولـم يؤخِّر.

وأمَّا ما قيل: معناه: ولو كان الله إلهاً يَتَّبع[1] أهواءهم ويأمر بالشِّرك والمعاصي لَمَا كان إلهاً ولكن شيطاناً؛ ففيه ما لا يخفى من جرأةٍ[2] على الله تعالى، وسوءِ أدبٍ فاحشٍ.

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ خصَّ العقلاء تنبيهاً على أنَّ وجودَ الغيرِ تبعٌ لهم.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾: بالكتـاب الـذي هـو ذكرهـم؛ أي: وَعْظُهـم، أو: صِيْتُهـم وفَخْرُهم، أو بالذِّكْـرِ الذي كانوا يتمنَّونه بقولهـم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨].

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه، وإنما أعاد الذِّكْرَ باسمه تفخيماً.

* * *

(٧٢) ـ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

و﴿أَمْ﴾ في: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ منقطعةٌ.

﴿خَرْجًا﴾ وقرئ: ﴿خَراجاً﴾[3].

---

(١) في (ك): «لتبع»، وفي (م): «تبع»، وفي (ف): «ليتبع». والمثبت من (ع) و(ي) و«الكشاف» (٣/ ١٩٦).

(٢) في (ف): «الجرأة».

(٣) قرأ حمزة والكسائي: ﴿خراجاً فخراجُ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿خرجاً فخَرْجُ﴾، وباقي السبعة: ﴿خرجا فخراج﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

والخَرْجُ: ما تُخرجُه إلى الإمام مِن زكاة أرضك، وإلى كلِّ عاملٍ مِن أجرته وجعله.

وقيل: الخرْجُ: ما تبرَّعْتَ به، والخَراجُ: ما لزِمَكَ أداؤُه.

والوجهُ: أنَّ الخَرْجَ أَخَصُّ مِن الخَراجِ بقولِكَ: خَراجُ القرية وخَرْجُ الكَرْدة[1]، زاد اللَّفظ لزيادة المعنى، ولهذا حسنت القراءة الأولى؛ يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً مِن عطاء الخَلْقِ.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ فالكثيرُ مِن عطاء الخالق ﴿خَيْرٌ﴾ ففيه مندوحةٌ لكَ عن عطائِهم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيريَّة خراجه.

***

(٧٣) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قد سبقَ تفسيرُه في الفاتحة. والتَّنكير هاهنا للتَّعظيم.

ولَمَّا ألزمهم الحجَّةَ وأزاح العلَّة بحصر الأقسام التي تقتضي الإنكار والاتهام[2]، وبيَّنَ انتفاءها إلا عدم[3] التَّدبُّر وكراهتهم الحقَّ لمخالفته أهواءهم، وأقام الدَّلائل على امتناع موافقته لِمَا هم عليه مِن التَّقليد واتِّباع الهوى؛ لِمَا يلزم

---

(١) في (ك) و(م): «الكر»، وفي (ف): «الثمرة»، والمثبت من (ع) و(ي) و«الكشاف» (٣/ ١٩٧).
الكَرْدَةُ: جمعُها: الكُرَدُ، وهو من وضع الكرد، والعرب لا تعرفها، وهي قطعةٌ من الأرض المزروعة، ولا تُعرفُ هذه اللغة في الأصول. انظر: «حاشية الطيبي على الكشاف» (١٠/ ٦٠٨).

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «والابهام».

(٣) في (ك): «لا عدام».

ذلـك مِـن الفسـاد الكلّـيِّ = ثبـتَ أنَّ ما عليـه هو الصِّـراط المسـتقيم البيِّن اسـتقامتُه بشـهادة العقـول السَّـليمة والفطرة الصَّافيـة، وأنَّه يدعوهـم إليه، وأنَّهـم لكفرهم عن الصِّـراط المذكـور لعادلون[1].

***

(٧٤) ـ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

وإنَّمـا عـدل فـي قولـه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ عن الضَّميـر إلـى الموصـول؛ للتَّنصيـص على علَّـة عدولهـم، وليكـون كالبرهان على عدولهـم؛ لدخولهـم في الموصـول دخـولاً أوَّليًّا.

***

(٧٥) ـ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني: القَحْطَ.

﴿لَّلَجُّواْ﴾: لتمادَوا ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾: في إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحقِّ وعداوة الرَّسول عليه السلام والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: لعادُوا إلى ما كانوا عليه مِن اللَّجاجِ في الطُّغيان، ولذهبَ عنهم هذا الإبلاس[2] والتَّمسكُن بينَ يديه يسترحمونه، عَمِهِيْنَ عن الهدى.

ثمَّ استشهد على ذلك بقوله:

(٧٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

---

(١) في (ع) و(ي): «العادلوا»، ولعل الصواب: (عادلون).

(٢) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «الالباس»، والمثبت من (ي) وهو الصواب.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾؛ أي: القتلِ والأسرِ يومَ بدرٍ.

﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما خضَعوا، وما تذلَّلوا، ولم يوجَدْ منهم تضرُّعٌ.

استكانَ: استفعل مِن الكون؛ لأنَّ الـمُتَذَلِّلَ انتقل مِن كونٍ إلى كونٍ، كالمستحيل للمتنقِّلِ مِن حالٍ إلى حالٍ، أو افتعل مِن السُّكون أُشبع فتحتُه.

***

(٧٧) ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: بابَ الجوع الذي هو أشدُّ مِن القتل والأسر.

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ الإبلاسُ: اليأسُ[١] مِن كلِّ خيرٍ.

وقيل: السُّكوتُ مع التَّحيُّر؛ أي: فأُبلسوا ساعتئذٍ وخضعَتْ رقابُهم، حتى جاء أعتاهم يستعطفُكَ.

رُوي أنَّه لَمَّا أسلمَ ثُمامَةُ بنُ أُثالٍ الحنفيُّ ولحقَ اليمامة ومَنع الـمِيْرَةَ من أهل مكَّة، وأخذهم الله تعالى بالسِّنين حتى أكلوا العِلْهِزَ[٢]، جاءَ أبو سُفيانَ رسولَ الله ﷺ فقال له: أَنشدُكَ الله والرَّحمَ! أَلسْتَ تزعمُ أَنَّك بُعِثْتَ رحمةً للعالمين؟ فقال: «بلى»، قال: قتلْتَ الآباءَ بالسَّيفِ والأبناءَ بالجوعِ، فنزلَتْ[٣]. وهذا صريح في أَنَّها مدنيَّة.

---

(١) في (ف) و(ك): «أي إبلاس» بدل «الإبلاس اليأس».

(٢) طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة. انظر: «القاموس» (مادة: علهز).

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩). وخبر ثمامة رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) دون ذكر مجيء أبي سفيان ونزول الآية.

(٧٨) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ نصب على المصدر، و﴿مَّا﴾ زائدة للتَّوكيد بمعنى حقًّا؛ أي: شكراً قليلاً تشكرون حقًّا، وإنَّما خَصَّ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ﴾ بالذِّكر في مقام الامتنان لأنَّها أصول الـمُدْرَكات الـمُنْتَفَع بها في المنافع الدِّينيَّة والدنياويَّة، ولا يمكن الاستكمال إلَّا بها، فإنه موقوف على الاعتبار والاستماع والاستبصار بالنَّظر والاستدلال، فهي أصولُ النِّعَمِ الموجبةُ للشُّكر، ولَمَّا كان العمدة في الشُّكر استعمالَها فيما خُلِقَتْ لأجله، ومقدمتُها الإقرار بواهبها ومُنشِئها قال:

(٧٩) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: خلقَكم فيها بالتَّناسُلِ.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾: تُجمَعون يومَ القيامة بعدَ تفرُّقكم.

* * *

(٨٠) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ قد سبَقَ تفسيرُه؛ أي: هو المختصُّ باعترافكم بإنشاء الجوارح المذكورة وإنشائكم، والمختصُّ بالإحياء والإماتة، ﴿وَلَهُ﴾ خاصَّةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾، وهو متولِّيه، لا يقدر على تصريفهما[1] غيره، والاختصاصُ مستفادٌ مِن تقديمِ الضَّمير والظَّرف.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾: أَبَعْدَ هذه الدَّلائل الواضحة لا تعقلون بالنَّظر والاستدلال

(١) في (ف) و(ك) و(م): «تصرفها»، وفي (ع): «تصريفها»، والمثبت من (ي).

واستعمال الـمُدْرَكات المذكورة أنَّ الكلَّ منَّا، وأنَّ قدرتنا تعمُّ الممكنات كلَّها، وأنَّ البعث مِن جُملتها، فلا تنكرونه.

والالتفات مِن التَّكلُّم إلى الغيبة ممَّا لا تخفى فائدته مِن التَّعظيم كما في ﴿رَبِّهِمْ﴾[1]، وقرعِ العصا بالتكرير والافتنانِ فيه[2].

وقرئ: ﴿يعقلون﴾ بالياء[3] على الالتفات أيضاً، أو على أنَّ الخطاب السَّابق لتغليب المؤمنين.

***

(٨١) ـ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوا﴾؛ أي: كفَّار مكَّة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾: كما قال الكفَّار قبلَهم.

***

(٨٢) ـ ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ قد سبقَ وَجْهُ تأخير قوله: ﴿وَعِظَامًا﴾ عن قوله: ﴿تُرَابًا﴾.

﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تكرار الهمزة للمبالغة في الإنكار والاستبعاد.

والتَّأكيد بـ (إنَّ) واللَّام لتوجيه الإنكار إلى الجزم بالبعث، واعتقادِ تحقُّقه، والإتيانِ به كما عليه الرَّسول والمؤمنون، ويُخبرون عنه.

***

---

(١) كتب فوقها في (ك): «في قوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾»

(٢) كتب فوقها في (ك): «مثل في التفهيم، يعني تفهيم المعنى لإلقاء مكرراً، وبالتفنن بالعبارة».

(٣) رواية عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٨٣) ـ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا ﴾؛ أي: البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ مجيءِ محمَّدٍ عليه السلام.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأساطيرُ: جمعُ أسطورةٍ، وهذا البناء لِما يُتلهَّى به، كالأضحوكة والأعجوبة والألعوبة[1].

وقيل: جمع أسطارٍ، جمع سطر، وهي ما كتبه الأوَّلون ممَّا لا حقيقة له.

* * *

(٨٤) ـ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ إنَّما قيل: (مَن) تغليباً للعقلاء، أو لأنَّه يلزم أن يكون له غيره[2] من طريق الأَولى.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: إنْ كنتم مِن أهل العلم، أو: مِن العالمين بذلك، زيادة استهانة بهم[3]، وتقريرٌ لفَرْط جهالتهم.

* * *

(٨٥) ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأنَّهم مقرُّون بأنَّه الخالق.

﴿قُلْ ﴾؛ أي: بعد ما قالوه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلموا أنَّ مَن فطرَ الأرض ومَن فيها كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بأنْ لا يُشرَك به بعضُ خلقه في الرُّبوبيَّة.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٨٨).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (غيرهم). انظر: «روح المعاني» (١٨/ ١٣١).

(٣) في هامش (ع) و(ف) و(م): «وإنما قال: زيادة؛ لأنَّ أصلها فاصلة بالسؤال، على ما سنقف عليه».

(٨٦) ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ في توصيفه بـ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ تصغير للسَّماوات السَّبع مع هذه العظمة في جنبه، وهذا غاية في التَّعظيم.

***

(٨٧) ـ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنَّ ذلك أيضاً قد تقرَّر عند العرب بإخبار أهل الكتاب.

وقرئ: ﴿لِلَّهِ﴾ بغير لام فيه وفيما بعده[١] على ما يقتضيه لفظ السُّؤال، والأوَّل محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ معناه: لله هذه الأشياء، وهذا جوابٌ صحيحٌ، قال الشَّاعرُ:

إذا قِيلَ مَنْ رَبُّ القيانِ[٢] بموقِفٍ ... ورَبُّ الجيادِ الجرْدِ قيل لخالد[٣]

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافونه فلا تشركوا به[٤]، ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته.

***

---

(١) قرءة أبي عمرو، ولا خلاف في الحرف الأول. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) في (ع): «القيام»، وفي (ف): «العباد»، وفي (ك): «العباب»، وفي (م): «العتاب»، وفي (ي): (القباب)، والمثبت من «حاشية الطيبي على الكشاف» (١٠/ ٦٢٠).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٨٠)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٤٧٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ١٣٠). وصدره فيها جميعا:

إذا قيل من رب المزالف والقرى

(٤) في (ك): «فلا تشكرونه».

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مالكيتُه ومدبِّريَّته.

قيل: الملكوتُ: الملك، والواو والتَّاء للمبالغة، فينبئ عن عظم الملك.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾: وهو يغيثُ مَن يشاءُ، مِن أجرْتُ فلاناً على فلان: إذا أغثته منه ومنَعْته[1].

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾: ولا يغيثُ أحدٌ منه أحداً، وتعديته بـ(على) لتضمُّنه معنى النُّصرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ تُخدَعون فتُصرَفون عن توحيده وطاعته مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلَّة.

وهذه الأسوِلة[2] استهانةٌ بهم، وتقريرٌ لفرط جهالتهم في الأمور الدِّينيَّة، حيث جَهِلوا مثلَ هذا الجليِّ الواضح، وإلزامٌ بما لا يمكن مَن له أدنى مُسْكَةٍ مِن العلم إنكارُه، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ العقل الصَّريح قد اضطرهم إلى الإجابة بما أجابَ، فلا يمكن لعاقلٍ[3] أن يجيب بجواب آخر.

ثمَّ إنَّه رُوعِيَ في السُّؤالِ قضيَّة التَّرقي، فسئل عمَّن له الأرض وما فيها، ثمَّ سُئِلَ عمَّنْ له السَّماوات والعرش العظيم، والأرض بالنِّسبة إليه كلا شيءٍ، ثمَّ سُئِلَ

---

(١) في (ك): «أعنته» بدل «أغثته منه ومنعته»، وفي (ف): «أعنته منعه ومنعته».

(٢) في (ك): «الأسئلة».

(٣) في (ف) و(ك): «عاقل»، وفي (م) و(ع): «عاقلًا»، والمثبت من (ي).

عمَّنْ بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، فأُتي بأعمِّ العامِّ وكلمةِ الإحاطة، وأُوثر الملكوت وهو الملك الواسع، وقيل: ﴿بِيَدِهِۦ﴾؛ تصويراً وتخييلاً.

وكذلك روعي هذه النُّكتة في الفواصل، فعبِّر أولاً بعدم التَّذكُّر، فإنَّ أيسر[1] النَّظر يكفي في انحلال عقدهم، ثمَّ بعدم الاتقاء[2]، وفيه وعيدٌ، ثمَّ بالتَّعجُّب مِن خَدْع عقولهم فتخيِّل[3] الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً، وأنَّى لها التَّذكُّر والخوف.

***

(٩٠) - ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾: بالتَّوحيد، واستحالةِ نسبة الولد والشَّريك إليه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك، وادَّعوا أنَّ له ولداً ومعه شريكاً.

***

(٩١) - ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدُّسه عن مماثلة أحدٍ.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ﴾ في الوجود ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يساهمه في الألوهية.

---

(١) في (ف) و(م): «أسير»، وفي هامش (م): «لعله يسير». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق موافق لما في «روح المعاني» (١٨/ ١٣١)، والكلام منقول من «الكشف» كما صرح بذلك الآلوسي.

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «الإيفاء»، والمثبت من (ع) و(ي) والمصدر السابق.

(٣) في (ك): «بتخيل»، وفي (م): «بتخييل»، والمثبت من (ع) و(ف) و(ي) والمصدر السابق.

﴿إِذًا﴾ جوابٌ لمحاجَّتهم، وجزاءُ الشَّرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً[(١)].

﴿لَّذَهَبَ﴾: لانفرد ﴿كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾: بخَلْقه الذي خلَقَه، واستبَدَّ به، ولرأيتم امتيازَ مُلكِ كلِّ واحدٍ عن مُلك الآخرين، ووقع بينهم التَّحاربُ والتَّغالبُ.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: ولغلَبَ بعضُهم بعضاً كما هو حالُ ملوكِ الدُّنيا، ممالكُهم متمايزة، وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك والتَّغالُب فاعلموا أنَّه إلهٌ واحدٌ بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ.

وأمَّا ما قيل: فلَمْ يكن بيده [وحده] ملكوت كلِّ شيءٍ، ولم يكن واحدٌ منهم إلهاً مطلقاً، واللَّازم باطل بالإجماع والاستقراءِ وقيامِ البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجبٍ واحدٍ[(٢)].

فيَرِدُ عليه: أنَّ الإجماع والاستقراء لا يناسب المقام، وأمَّا البرهان فإنَّما قام على وجوب انتهاء سلسلة الموجودات إلى واجبٍ بالذَّات، ولا يلزم منه أنْ لا يتعدَّد الواجب، ولا يكون في الوجود سلاسل ينتهي بعضها إلى واجبٍ وبعضها إلى واجب آخر.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٤)، وفيه: (أي: لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه)، لم يذكر في التقدير (إذا)، وكذا في «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٤٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ١٣٣)، ونقلوا هذا التقدير عن الفراء، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٤)، ولم يذكر في التقدير (إذا) أيضاً.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٤)، وما بين معكوفتين منه. وهذا القول جاء عنده بعد عبارة: (كما هو حال ملوك الدنيا)، ومثله في «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٤٨).

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: عمَّا يصفونه مِن نِسبة الولد والشَّريك إليه؛ لِمَا سبق من الدَّليل على فساده.

* * *

(٩٢) ـ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، وقرئ بالجرِّ[1] على الصِّفة، دليلٌ آخر على نفي الشَّريك بناءً على توافقهم في أنَّه المنفرد بذلك، ولذلك رتَّب عليه:

﴿فَتَعَالَى﴾ اللهُ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

* * *

(٩٣) ـ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ (إنْ) هي الشَّرطيَّة، و(ما) والنُّون مؤكِّدتان لمعنى الشَّرط، وجواب الشَّرط: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾؛ أي: إن كان لا بُدَّ مِن أنْ تريَني ما تعدُهم مِن العذاب في الدُّنيا أو في[2] الآخرة.

* * *

(٩٤) ـ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿رَبِّ﴾ تكرارٌ ما بين الشَّرط والجزاء، معترِضٌ للتَّنبيه على فضل التَّضرع والجؤار.

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص بخفض الميم والباقون برفعها. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) في (ف) و(ك): «وفي».

﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: فلا تجعلني قريناً لهم في العذاب.

عن الحسن: أخبره الله تعالى أنَّ له في أمَّته نقمةً، ولم يُخبره أفي[١] حياته أم بعد موته، فأمره أن يدعو بهذا الدُّعاء[٢].

وهو إمَّا لهضم النَّفس والقيام بحقِّ[٣] العبودية مع علمه بأنَّه لا يفعله، وإمَّا للإعلام بأنَّ شؤم الظَّلمة قد يَحيق بمَن وراءهم[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

***

(٩٥) - ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ كانوا يستعجلون العذاب إنكاراً وعناداً[٥]، ويضحكون منه استهزاء، فقيل لهم: إنَّ اللهَ قادرٌ على إنجاز ما وعدَ عاجلاً، لكنْ يُؤخِّره علماً بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو: لا يعذبهم وأنت فيهم.

وقيل: قد أراه[٦] يوم بدر أو يوم فتح مكَّة.

***

(١) في (م): «في».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٤).

(٣) في (م): «بمعنى».

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «يحيق عن ورائهم»، والمثبت من (ع) و(ي).

(٥) في (ف): «أو عناداً».

(٦) في (ف): «أراكهم»، وفي (ك) و(م): «أراد» والمثبت من (ع) و(ي).

(٩٦) ـ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ حثَّه على مكرمةٍ هي أفضل المكارم، ما لم تؤدِّ إلى ثَلمٍ في الدِّين أو إزراء[1] بالمروءة، وهو أبلغ مِن أنْ يُقالَ: بالحسنة السَّيئة؛ لِـمَا فيه مِن صيغة التَّفصيل والإجمال، والتفصيل[2] بإبهام الموصول، وتبيين الصِّلة؛ أي: زدْ[3] على الصَّفح عن الإساءة بمقابلة السيَّئة بما يمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصَّفح والإحسان وبذل الوسْعِ فيه كانت حسنةً مضاعفةً بإزاء سيئةٍ، ودفعاً لها بالتي هي أحسن.

﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾: بما يصفونك به من صفات السُّوء، أو بوصفِهم لكَ وسوءِ ذكرِهم، وهو وعيدٌ لهم وتسليةٌ له عليه السلام؛ أي: والله أعلم بقولهم وفعلهم، وهو يجازيهم.

***

(٩٧) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أمرٌ[4] بالتَّعوذ مِن نخساتهم بلفظ المبتهِل إلى ربِّه، المكرِّر لندائه تضرُّعاً وابتهالاً بالتَّعوُّذ مِنْ أنْ يَحضروه أو يحوموا حوله[5].

﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ شبَّه حثَّ الشَّياطين النَّاسَ على المعاصي بالوساوس

---

(١) في (ك) و(م): «ازدراء».

(٢) في (م) و(ي): «التفضيل والإجمال والتفضيل».

(٣) في (ف) و(م): «رد».

(٤) في (ف): «أمر».

(٥) في (ف) و(ك): «يحدثوا» بدل «يحوموا حوله».

بهمزِ الرَّاضةِ للدَّوابِّ على المشي بالمهماز، والجمع إمَّا لتعدُّد الوساوس، أو لتنوُّعها، أو لتنوُّع المضاف إليه وتعددهم[١].

***

(٩٨) ـ ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: عند تلاوة القرآن، وعن عكرمةَ: عند النَّزْعِ[٢]. وقيل: عند الصَّلاة.

والتَّخصيص بأحدها لأنَّها أحرى الأحوال بأنْ يُخاف عندَه.

***

(٩٩) ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ يتعلَّق[٣] بـ ﴿يَصِفُونَ﴾، غايةٌ لها؛ أي: لا يزالون يذكرونك بسوءٍ إلى هذا الوقت، وما بينهما اعتراضٌ للإغضاء عنهم، مستعيناً بالله على[٤] الشَّيطان أن يستزلَّه[٥] عن الحلم ويغريَه على الانتصار منهم.

أو بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٦].

---

(١) في (م): «أو تعددهم».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٠٢).

(٣) كتب فوقها في (ك): «الأول لا الثاني».

(٤) في (ك): «من»، وبياض في (ف).

(٥) في (ع): «ينزله»، وفي (ك): «يزله»، وفي (م): «يستنزله».

(٦) يريد أن (حتَّى) يتعلق بـ (يَصِفُونَ) أو مردودٌ على قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٦٢٦)

﴿قَالَ﴾ تحسُّراً على تفريطه السَّابق لَمَّا اطلع على الأمر اللَّاحق.

﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾: رُدُّوني إلى الدُّنيا. والخطاب بلفظ الجمع للتَّعظيم، أو لتكرير (ارجعني)، كما قيل: في قِفَا وأَطْرِقا، وهو يناسب الجؤار والتَّضرُّع.

***

(١٠٠) ـ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾: في الإيمان الذي تركْتُه، أو لعلِّي آتي بما تركْتُه من الإيمان وأعمل فيه صالحاً.

وقيل: فيما تركْتُ فيه مِن المال، أو في الموضع الذي تركْتُ، وهو الدُّنيا.

﴿كَلَّآۚ﴾ رَدعٌ عن طلب الرَّجعة واستبعادٌ لها.

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾؛ أي: طائفةٌ مِن الكلام المنتظِم بعضُها مع بعض، وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ إلخ.

﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالةَ، لا يسكُتُ عنها؛ لاستيلاء الحسرة والنَّدامة عليه، أو: هو قائلها وحده، لا يُجابُ ولا يُسمَعُ منه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: أمامِهم، والضَّمير للجماعة ﴿بَرۡزَخٌ﴾ البرزَخُ: الحاجزُ.

قال الضَّحَّاكُ: هو الحاجز بين الدُّنيا والآخرة[1].

وقيل: بينهم وبين الرُّجوع إلى الدُّنيا. ويأباه قوله:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٩).

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لأنَّه لا يصلح غايةً لعدمِ الرُّجوع المذكور، والعلمُ بأنَّه لا رجعةَ يومَ البعث إلى الدُّنيا يفيد الإقناطَ الكليَّ عن الرُّجوع إلى الدُّنيا، ولكنَّه لا يصلح أمراً لغايته[1].

* * *

(١٠١) ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ للبعث والنُّشور.

والقراءة بفتح الواو، وبه[2] وبكسر الصَّاد[3]، يؤيِّده أنَّ الصُّوْرَ أيضاً جمع الصُّورة؛ إذ الأصل في القراءة التَّوافُق.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المنفيُّ نفعُ الأنساب لا نفيُها، فإنَّ لكلِّ امرئٍ يومَئذٍ ما اكتسَبَ لا ما انتسَبَ.

قيل: لزوال التَّعاطف والتَّراحم مِن فَرط الحيرة واستيلاء الدَّهشة، بحيث يفرُّ المرء من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وفيه نظر[4].

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ كما يفعلون اليومَ، وهذا ليس عقيب نفخة البعث، بل بعد

---

(١) في (ف) و(م): «الغاية»، وفي (ع): «الغائبة».

(٢) في (ع) و(ف) و(ك): «به»، وسقطت من (م)، والمثبت من (ي) و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٥).

(٣) نسبت قراءة (في الصُّوَر) لابن عياض والحسن، ونسبت قراءة: (في الصِّوَر) لأبي رزين. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٤) في هامش (ف) و(م): «أمَّا أوَّلاً فلأنَّ التَّعاطف والتَّراحم يتحقَّق بين الصِّبيان ووالديهم على ما نطقَتْ به الأخبار، وأمَّا ثانياً فلأنَّ زوال التَّعاطف لا يستلزم عدمَ نفع الأنساب، وأمَّا ثالثاً فلأنَّ القرار المذكور ليس لفرط الحيرة، بل للحذر عن المطالبة. منه».

زمانٍ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، فإنَّه صريحٌ في أنَّهم يتساءلون، وقوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ذلك عند القيام بالنَّفخةِ الثَّانيةِ[1].

والفاءُ الجزائيَّةُ لا تدلُّ على التَّعقيبِ.

* * *

(١٠٢ ـ ١٠٣) ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدلٌ مِن ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، والجملتان في حكم الصِّلة، فلا محلَّ لهما[2] من الإعراب، أو خبرٌ بعد خبر لـ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾، فهو في محلِّ الرَّفع كـ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: تُحرقُها. قال الزَّجَّاجُ: اللَّفْحُ كالنَّفْخِ، إلَّا أنَّ اللَّفْحَ أشدُّ تأثيراً[3].

﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مِن شدَّة الإحراق.

---

(١) قطعة من خبر رواه البخاري قبل الحديث (٤٨١٦)

(٢) في (م): «لها».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٣).

والكُلوحُ: أنْ تتقلَّصَ الشَّفتان، وتتشمَّرا[١] عن الأسنان كما ترى الرُّؤوس المشويَّة.

روي[٢] عن النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: «تَشْوِيْهِ النَّارُ فَتَتقلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيا حتى تبلغَ وَسطَ رأسِهِ، وتَسْترخِي شَفَتُهُ السُّفلى حتى تبلغَ سُرَّتَهُ»[٣].

***

(١٠٥) ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمارِ القَولِ؛ أي: يُقالُ لهم: ألم تكن تُتلَى عليكم آياتي[٤] في الإنذار.

﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تعنيفٌ وتذكيرٌ ممَّا استحقُّوا هذا العذابَ بسببِه.

***

(١٠٦) ـ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: مَلَكَتنا[٥]، من قولك: غلبني فلان على كذا: إذا أخذه منك وامتلكه. والشَّقاوةُ: سوءُ العاقبة.

---

(١) في (ع): «وينشمرا»، وفي (م): «ويتشمر».

(٢) في (م): «وروي».

(٣) رواه الترمذي (٣١٧٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٤) في (ف) و(ك): «آياتي عليكم».

(٥) في (ف) و(ك) و(م): «هلكتنا»، والمثبت من (ع) و(ي) و«الكشاف» (٣/ ٢٠٤).

وقرئ: ﴿شِقْوَتُنَا﴾ و: ﴿شَقَاوَتُنا﴾ بفتح الشِّين وكسرها[1]، كالسَّعادة والكِتابة؛ أي: غلبَتْ علينا الأعمالُ الرَّديَّة والأحوال القبيحة التي شقينا بها.

﴿وَكُنَّا﴾ بها ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقِّ والصَّواب.

وليس هذا باعتذارٍ، بل هو اعترافٌ منهم بسوء الصَّنيع، ولا صحَّة لِما قيلَ: غلبَتْ علينا ما كُتِبَ علينا مِن الشَّقاوة؛ لأنَّه إنَّما يُكْتَبُ ما يَفعَلُ العبدُ، وما يُعْلَمُ أنَّه يختارُه، ولا يُكْتَبُ غيرُ الذي عُلِمَ أنَّه يختارُه، والعلمُ تابعٌ للمعلومِ لا العكس، فلا يكون مَغلوباً ومُضطراً في الفعل بسببِ التَّقديرِ الأزليِّ.

***

(١٠٧) ـ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ مِن النَّارِ ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر والتَّكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا.

***

(١٠٨) ـ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟﴾: انزَجِروا ﴿فِيهَا﴾ أذلَّاءَ، انزجارَ الكلابِ إذا زُجِرَتْ، يُقال: خَسَأَ الكَلْبُ وأخسأْتُه لازماً ومتعدِّياً.

شُبِّهوا بالكلبِ في الذُّلِّ والهَوانِ فَطُرِدوا بـ ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفعِ العذاب، أو: ولا تكلِّمونِ أصلاً.

---

(١) ﴿شَقاوتنا﴾ بفتح الشين وبالألف قراءة حمزة والكسائي، وباقي السبعة: ﴿شِقْوتُنا﴾ بكسر الشين مع إسكان القاف. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠). أما (شِقَاوتنا) بكسر الشين وبالألف فنسبت لقتادة ورواية عن الحسن. انظر: «البحر» (١٥/ ٤٨٩).

قيل: هو آخِرُ كلامٍ يتكلَّمون به، ثمَّ لا كلامَ بعدَ ذلك إلَّا الشَّهيق والزَّفير والعِواء كعواء الكلاب[١]، لا يَفهمون ولا يُفهِمون.

***

(١٠٩ ـ ١١٠) ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ الشَّأنَ، وقرئ بالفتح[٢]؛ أي: لأنَّه.

﴿كَانَ﴾ تعليلٌ لوجوبِ انزجارهم.

﴿فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾؛ يعني: المؤمنين، قيل: هم الصَّحابة رضي الله عنهم، وقيل: أهل الصُّفَّة خاصَّة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ في تفريعِ طلبِ[٣] المغفرةِ والرَّحمةِ على الإيمان دلالةٌ على كفايته فيها.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هُزُواً، واشَّاغلتم[٤] ساخرين.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ بكثرةِ تشاغُلِكم بهم ﴿ذِكْرِى﴾؛ أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي.

والسخريُّ بالضم والكسر: مصدر سَخِر كالسُّخُرِ، إلَّا أنَّ في ياء النَّسب زيادةَ قوَّة في الفعل ومبالغة، كما قيل: الخصوصيَّة في الخصوص، وعن الكسائي

---

(١) في (ك): «والزفير وعواء الكلاب»، وفي (ف): «والزفير والعواء كالكلاب».

(٢) نسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٣) في (ك): «في توزيع طلب»، وفي (م): «هذا تفريع لطلب».

(٤) في (ع) و(ف) و(م) و(ي): «وشاغلتم».

والفرَّاء: أنَّ المكسور من الهزؤ، والمضموم من السُّخرة، بمعنى الانقياد والعبودية؛ أي: سخَّروهم واستعبدوهم[١]. والأوَّلُ مذهب الخليل وسيبويه[٢].

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم.

***

(١١١) - ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم.

﴿أَنَّهُمْ﴾ بالفتح، ثاني مفعولي ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾، وبالكسر[٣] استئنافٌ، كأنَّه لَمَّا أبهمَ الجزاء للتَّعظيم ولم يبيِّنه اتَّجه أنْ يَسأَلَ سائلٌ: كيف حالهم؟ قال: إنهم.

﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ مخصوصون بالفوزِ بجميع مراداتهم.

***

(١١٢) - ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾؛ أي: اللهُ تعالى، أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، وقرئ على الأمر[٤] لمالك[٥]، أو لبعض رؤساء أهل النَّار.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: في الدُّنيا أحياءً وأمواتاً في القبور.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٣)، و«الكشاف» (٣/ ٢٠٥).

(٢) أي: مذهبهما أن مكسور السين ومضمومها معناهما واحد وهو الهزؤ. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٢٤)، لكن وقع في «العين» للخليل (٤/ ١٩٦) تفريق بينهما.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

(٤) أي: ﴿قل﴾، وهي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

(٥) في (ع) و(ك) و(م) و(ي): «للمالك»، وفي «تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٧): «للملك».

﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾؛ أي: كم عددُ سنين لبثتم؟ فـ ﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿لَبِثْتُمْ﴾، و﴿عَدَدَ﴾ بـ ﴿كَمْ﴾.

***

(١١٣) ـ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ﴾.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصَروا مدَّة لبثهم فيها بالنِّسبة إلى خلودهم في النَّار، أو لأنَّها كانَتْ أيَّام سرورهم، وأيَّامُ السُّرور قِصارٌ، أو لأنَّها منقضيةٌ، والمنقضي في حكم المعدوم الذي يستحقُّ أنْ يُعبَّرَ عنه بالقِلَّةِ.

﴿فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ﴾: الذين يتمكَّنون مِن عدِّ أيامها[1] إنْ أردْتَ تحقيقَها، فإنَّا لِمَا نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكُّرها وإحصائها، أو: الملائكةَ الذين يَعدُّون أعمارَ النَّاس ويُحصون أعمالهم.

وقرئ: (العادِيْنَ) بالتَّخفيف[2]؛ أي: الظَّلمةَ، فإنَّهم يقولون كما نقول.

وقرئ: (العادِيِّين)[3]؛ أي: القدماء[4] المعمَّرين فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم؟!

﴿قَالَ﴾ وقرئ: ﴿قل﴾[5].

***

---

(١) في (ك): «عدادها» بدل «عدِّ أيامها».

(٢) نسبت للحسن ورواية عن الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨)، و«الكشاف» (٣/ ٢٠٦). ووقع في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «العادين»، والمثبت من (ي) ومصدري التخريج.

(٤) في (ع): «قدماء». والمثبت من باقي النسخ و«الكشاف» (٣/ ٢٠٦): «المعمرين».

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

(١١٤) ـ ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾؛ أي: ما لبثتم إلَّا زمناً[1] قليلاً، أو لبثاً قليلاً.

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صدَّقَهم اللهُ في مقالهم لِسِني لبثِهم في الدُّنيا، ووبَّخهم على غفلتهم التي كانوا عليها.

* * *

(١١٥) ـ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ توبيخٌ آخر على تغافلهم، وتجهيلٌ معَ إنكارٍ.

﴿أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ حال؛ أي: عابثين، أو مفعول له؛ أي: ما خلقناكم للعبث، وإنَّما خلقناكم لنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم، وهو كالدَّليل على البعث.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿عَبَثًا﴾؛ أي: للعبث ولترككم غيرَ مرجوعين.

وقرئ: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتح التَّاء[2].

* * *

(١١٦) ـ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ مِن أنْ يخلقَ عبثاً، تعليلٌ لِمَا تقدَّم.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: الذي يحقُّ له الملك؛ لأنَّ كلَّ شيء منه وإليه، أو: الثَّابتُ

---

(١) في (م): «زماناً».

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٠).

الذي لا يزول، ولا يزولُ[1] ملكُه، ومَن عداه مملوكٌ له[2] بالذَّات، مالكٌ بالعَرَض زائلُ الملك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنَّ ما عدَاه عبيد.

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي يحيط بالأجرام.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ بالجرِّ على أنَّه[3] صفة العرش، وإنَّما وصفه بالكرم لأنَّ الرَّحمةَ والخير والبركة الإلهيَّة تنزل منه، ويجوز أن يكون توصيفُه بالكرم لنسبته إلى أكرم الأكرمين مجازاً، كما يُقال: بيتٌ كريمٌ: إذا كان ساكِنوه كراماً.

وقرئ بالرَّفع[4] على أنَّه صفة لـ ﴿رَبُّ﴾.

* * *

(١١٧) ـ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبدُه إفراداً أو إشراكاً[5].

﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ أخرى لـ (إله)؛ أي: لا حجَّة له عليه؛ لأنَّ البرهان عقليٌّ أو نقليٌّ، وليس في واحدٍ منهما ما يجوز أنْ يكون معه إلهٌ آخر، وهذا

---

(١) «ولا يزول» من (م) و(ي).

(٢) «له» من (ك) و(م).

(٣) «على أنه» سقط من (ك).

(٤) نسبت لأبان بن تغلب وابن محيصن وأبي جعفر المدني وإسماعيل عن ابن كثير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٥) في (ف) و(ك): «وإشراكا».

وإنْ كان مذكوراً في موضع الصِّفة فليس للتَّمييز؛ لأنَّ الباطلَ بمعزلٍ عن أنْ يكون له دليلٌ ضعيفٌ، فضلاً عن برهانٍ، وإنَّما جيءَ بها للتَّأكيد، ولبناء الحكم بالوعيد عليه؛ تنبيهاً على أنَّ التَّديُّن بما لا دليل عليه ممنوعٌ، فضلاً عمَّا دلَّ الدَّليل على خلافِه.

أو اعتراضٌ[1] بين الشَّرط والجزاء لبيان الملازمة، كقولك: مَن أحسنَ إلى زيدٍ لا أحقَّ بالإحسان منه، فاللهُ مُثيبُهُ[2].

قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ كنايةٌ عمَّا ذُكِرَ؛ أي: فهو مُجازٍ له بما يستحقُّه.

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الشَّأنَ. وقرئ بالفتح[3]؛ أي: لأنَّه، أو على أنه خبر؛ أي: حسابُه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، من باب وضع الظَّاهر موضِعَ المُضْمَر؛ إذ أصله: حسابُه أنَّه لا يُفْلِحُ هو؛ لأنَّ (مَن يَدْعُ) في معنى الجمع، فمعنى حسابه أنَّه لا يفلح: حسابهم أنَّهم لا يفلحون، فغيّر تفظيعاً لشأنهم، وتفضيحاً لصورة حالهم، وإيماءً إلى عدم الفلاح لكفرهم.

وصيغة الجمع للتَّنبيه على أنَّه لا يُغني اجتماعهم[4]، وإلَّا فالظَّاهر أنْ يُؤتَى بصيغة الإفراد؛ لأنَّ الفلاحَ منتفٍ عن جنسهم.

وزاوَجَ[5] بين فاتحة السُّورة وخاتمتها بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الفاتحة، و﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في الخاتمة.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «واعتراض»، والمثبت من (ي) و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٩٧).

(٢) في (ك): «مثبته».

(٣) نسبت لقتادة وعيسى والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٤) في (ع): «لا يفضي اجتماعهم»، وفي (ف) و(ك): «لا يغني لاجتماعهم».

(٥) في (ف): «وقد جمع»، وسقط من (ك).

ثمَّ علَّمنا سؤال المغفرة والرَّحمة بقوله:

(١١٨) ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾؛ لأنَّ رحمَته إذا أدركَتْ أحداً أغنَتْه عن رحمةِ غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته[1].

* * *

(١) في (م) زيادة: «والله أعلم».

سُورَةُ النُّورِ

سُورَةُ النُّورِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ لأنها مخصَّصةٌ بالتنكير الدالِّ على التعظيم كقولهم: شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ[1].

﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾ صفـةٌ أو خبـرٌ، ومَـن نصبَهـا[2] جعلهـا مفسِّـرة لناصبها، فـلا يكون لهـا محـلٌّ إلَّا إذا قـدِّر: اتـلُ، ونحـوُه، ولا يجـوز تقديـر ذلـك؛ لأن أداة الإغراء لا تُحذَف.

﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾؛ أي: فرضنا ما فيها من الأحكام. وقرئ بالتشديد[3] للتكثير أو للمبالغة.

﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: دلائلَ واضحاتٍ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تتَّعظوا.

* * *

---

(١) انظر: «المستقصى» للزمخشري (٢/ ١٣٠)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٣٧٠). وتقدم مع شرحه عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

(٢) أي: قرأ: (سورةً) بالنصب، نسبت لعمر بن عبد العزيز ومجاهد وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٩٩).

(٣) أي: ﴿وفرَّضناها﴾، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٦١).

(٢) ـ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾؛ أي: المرأةُ التي مَكَّنت في الزنى ـ فالمُكرَهة خارجةٌ عن حدِّها ـ قدِّمت هنا لأصالتها في الزنى، أي: حرمة الوطء التي بها يتحقَّق الزنى منشؤها خلوُّ المحلِّ عن الملكية وشبهتها[1]، كما قدِّم الزاني في الحكم الآتي ذكرُه لأصالته فيه.

﴿وَٱلزَّانِي﴾ رُفعا بالابتداء، والخبر: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ والفاء لتضمُّنها معنى الشرط؛ لأن اللام بمعنى (الذي).

وقرئ بالنصب[2] على إضمار فعلٍ يفسِّره الظاهر.

والجَلْد: ضَرْب الجِلْد، وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ ليصل الأثر[3] إلى اللَّحم.

والخطابُ لجماعة المسلمين، إلَّا أنه لمَّا لم يُمْكِنهم الاجتماع، فينوب الإمامُ منابهم، وعموم الآية يتناول المُحصَن وغيرَ المُحصَن، ثم خُصَّ منه المُحصَن بحديث الرَّجْم.

وشرائطُ إحصانِ الرجم: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والدخول بنكاحٍ صحيحٍ وهما على صفة الإحصان.

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «الملكين وشبهتهما»، وفي (ي): «الملكين وشبههما»، والمثبت من (ع).

(٢) أي: (الزانيةَ والزانيَ) بالنصب، نسبت لعمرو بن فائد وعيسى الثقفي ويحيى بن يعمر وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٠).

(٣) في (ك): «الألم».

ورَجْمه عليه الصلاة والسلام يهوديَّين قد زَنَيا[١]، كان بحكم التوراة ثم نُسخَ، يؤيِّده قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أشرك بالله فليس بمُحصَن»[٢].

والتغريبُ المرويُّ منسوخٌ بهذه الآية كالحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] وقوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] لأن الفاء إنما تَدخل على الجزاء وهو اسمٌ للمكافئ[٣].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ الرأفة: رقَّة الرحمة، وأخذُها كناية عن تأثيرها في النفس بحيث يظهر أثَرُها في العمل، فمرجع النهي إلى المسامحة في إقامة الحدِّ كما ينبغي.

﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾: في طاعته، أو: في حكمه، وإنما قال: ﴿بِهِمَا﴾ ليُعلم حُكم الرأفة بأحدهما بطريق الدلالة.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يوجب الائتمارَ بأمر الله تعالى، وهذا من باب التهييج وإلهابِ الغضب لله ولدينه، وجواب الشرط مُضمَر؛ أي: فأقيموا الحدَّ ولا تساهلوا[٤] فيه.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾: ولْيَحضُر موضعَ حدِّهما، وتسميتُه عذاباً دليلٌ على أنه عقوبةٌ.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن راهويه كما في «نصب الراية» للزيلعي (٣/ ٣٢٧)، والدارقطني في «السنن» (٣٢٩٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الدارقطني: لم يرفعه غيرُ ابن راهويه، ويقال: إنه رجع عن ذلك، والصواب أنه موقوف.

(٣) في (ف) و(ك) و(م) و(ي): «للكافي»، والمثبت من (ع).

(٤) في (ف): «تتساهلوا».

﴿طَآئِفَةٌ﴾: فِرقة يمكن أن تكون حلقة[١]، وهي صفةٌ غالبة، كأنها الجماعة الحافَّة[٢] حول الشيء.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليعتبروا وينزجروا فإن التفضيح قد يُنكِّل أكثر ممَّا يُنكِّل التعذيب.

***

(٣) ـ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ أي: لا يَميل إلَّا إلى نكاحِ واحدةٍ منهما.

﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾؛ أي: لا تُمكِّن إلَّا إلى نكاح واحدٍ منهما، ومرجعُه إلى نفي ميلها عن نكاحِ غيرهما، فالقرينتان على سَنَن واحد، وإنَّما عدل في الثانية عن الصريح إلى الكناية؛ كراهةَ إسنادِ النكاح إليها.

ووجهُ ما ذكر: أن المشاكَلة[٣] علَّةُ الأُلفة والتضامِّ، والمخالفةَ سببٌ للنُّفرة والافتراق، وهو نظيرُ قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية [النور: ٢٦]، فالآية تزهيدٌ في نكاح البغايا، إذ جعل الزنى فيها عديلَ الشرك في القُبْح.

---

(١) في (ك): «صفة»، وفي (ف) و(م): «خلفه»، وفي (ع): «حلفه»، والمثبت من (ي)، وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢١٠)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٤٨٧).

(٢) في (ك): «الحالقة»، وفي (ف): «الخالفة»، وفي (ع): «الحاقة»، والمثبت من باقي النسخ والمصدرين السابقين.

(٣) في (ف) و(م): «المشاكل».

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا فيه من التشبُّه[1] بالفُسَّاق، وحضورِ مواضع التُّهَمة، والتسبُّبِ بسوءِ[2] المقالة، والغِيبة، والطعن في النَّسَب، ومجالسةُ الزواني كم فيها من التعرُّض لاقتراف المفاسد والآثام، فكيف بمزاوجتهنَّ، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغة.

وقيل: النفي بمعنى النهي، وقد قُرئ به[3]، والحرمة على ظاهرها، والحكم مخصوص بالسبب الذي ورد فيه، أو منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فإنه يتناول المسافِحاتِ، ويؤيِّده أنه عليه الصلاة والسلام سُئلَ عن ذلك فقال: «أوَّله سفاحٌ، وآخره نكاحٌ، والحرامُ لا يُحرِّم الحلالَ»[4].

***

(٤) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ أي: يقذفون الحرائرَ العفائفَ المسلماتِ المكلَّفاتِ بالزنى؛ لوصف المقذوفات بالإحصان، وإنَّما عدل عن القذف إلى الرمي؛ لأنَّ القذفَ: الرميُ البعيد المستلزِمُ لصلابة الـمَرْميِّ، والقيدان المذكوران اعتبارُهما لا يناسب المقام.

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «بسوء».

(٢) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «التشبيه».

(٣) أي: (لا يَنكحْ) بجزم الحاء، نسبت لعمرو بن عبيد. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠).

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢١٢). ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٢٧٨٧)، وسعيد بن منصور في «السنن» (٨٨٨) و(٨٨٩) و(٨٩٠)، والدارقطني في «السنن» (٣٦٨١) عن ابن عباس موقوفاً.

وذكرُهنَّ عقيب الزواني، واشتراطُ أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ كلمةِ التراخي، دلَّ على أنه لا يجب عليه الإتيانُ بالشهود على الفور.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على زنى المقذوفة؛ لأن القذفَ بغير الزنى يكفي فيه الشاهدان، ولإيجاب الحدِّ بقوله:

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ لأن القذف بغير الزنى لا يوجب الحدَّ، بل يوجب التعزيرَ كقذف غير المحصن بالزنى.

ونُصب ﴿ثَمَانِينَ﴾ نَصْبَ المصادر، كنَصْبِ ﴿مئةَ﴾، ونصب ﴿جَلْدَةً﴾ على التمييز.

ولا فرقَ فيه بين المذكَّر والمؤنَّث، وتخصيصُ المحصنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذفهنَّ كان أغلبَ[1]، هذا ما قالوا.

وأنا أقول: أُريدَ الأنفسُ المحصنات، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فلا تخصيص.

ولا يشترط اجتماعُ الشهود عند الأداء، ولا شهادةُ زوج المقذوفة، ولكن يُشترط طلب المقذوف؛ لأن فيه حقَّه من حيث دفعُ العارِ، ولا خلاف فيه لأبي حنيفة.

وضربُه أخفُّ من ضرب الزنى، قيل: لضعف سببه واحتماله الصدقَ، ولذلك نقص عددُه، ويَرِدُ عليه النقض بضَرْب التعزير، كما إذا كان المقذوف غيرَ محصَن، فإنه أشدُّ من ضرب الزنى مع قيام العلَّة المذكورة فيه.

---

(١) في هامش (ف) و(م): «لم يقل: وأشنع، لأن فيه إخلالًا لثبوت الحكم في المحصن بدلالة النص». وفيه إشارة لقول البيضاوي: (كان أغلب وأشنع).

﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾ نكَّر ﴿شَهَٰدَةً﴾ في موضع النفي فتعمُّ كلَّ شهادةٍ، وردُّ شهادته ليس لأنه مفترٍ[١]، وإلَّا لَـمَا تخلَّف عنه في قذف غيرِ المحصَن، بل لأنه من تمام الحدِّ فيتعلَّق باستيفاء الحدِّ أو بعضه، خلافاً للشافعي فيهما[٢].

لا يقال: حاله قبل الحدِّ أسوءُ ممَّا بعده؛ لأنه إن أريد أنه كذلك عند الناس فممنوع، وإن أريد أنه كذلك عند الله تعالى فلا يُجدي؛ لأن المعتبرَ في هذا الباب ما عند الناس، حتى قيل: تعتبر شهادة الفاسق الوجيه.

وأصل الكلام: ولا تَقبلوا شهادتهم، وإنَّما غيِّر النظم بزيادة اللام لا لفائدة التنكير؛ لأنَّها تحصل بالتعريف الاستغراقي على وجهٍ أقوى، بل لإظهارِ وجه كون الرَّدّ المذكور من الحدِّ بإشعار أن في قبول الشهادة نفعاً للشاهد؛ لأنه يتضمَّن الإكرام، وضدُّه ويتضمَّن الإهانة.

﴿أَبَدًا﴾؛ أي: إلى آخرِ أوقاتِ أهليَّتهم للشهادة لا إلى آخرِ عمره، ولذلك تُقبَل شهادة الكافر المحدود في قذفٍ بعد إسلامه؛ لحدوث أهليةٍ أخرى للشهادة بالإسلام، ولا خلاف للشافعي هنا، وإنَّما خلافه في انصراف الاستثناء الآتي ذكرُه.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كلامٌ مستأنَف غيرُ داخلٍ في حيِّز جزاء الشرط؛ لأنه حكاية حالِ الرامين عند الشرع الحاكم بالظاهر، لا عند اللهِ العالِم بالسرائر بعد انقضاء الجملة الشرطية[٣]، وقولُه:

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «لأنه ليس مفتر».

(٢) قوله: «فيتعلَّق باستيفاء الحدِّ أو بعضه، خلافاً للشافعي فيهما». وقع في (ع) بعد قوله: «فتعم كل شهادة». وانظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٤٨٩).

(٣) في هامش (ع) و(ف) و(م) و(ي): «ردّ لصاحب الكشاف، والعجب أنه بعد ما قال: سبب عقوبته محتمل للصدق إلا أنه عوقب صيانة للأعراض، كيف قال: إن حكاية حال الرامين عند الله. منه».

(٥) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: القذفِ ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أحوالهم بالاستسلام للحدِّ أو الاستحلال عند[1] المقذوف، استثناءٌ من الفاسقين، ويدلُّ عليه تعليل الاستثناء بقوله:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: يغفر ذنوبهم ويرحمهم، والشافعيُّ جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً، وجعل الاستثناء متعلِّقاً بالجملة الثانية، وحقُّ المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلاً من (هم) في (لهم)، وحقُّه عندنا أن يكون منصوباً لأنه عن مُوجَبٍ تامٍّ.

***

(٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ هذا بيان حكمِ قذف الزوجات بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ يَشهدون لهم به ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿شُهَدَآءُ﴾ أو صفةٌ لهم على أن (إلَّا) بمعنى (غير).

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ﴾ قرئ بالرفع على أنه خبر، والمبتدأ ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وبالنصب[2]؛ لأنه في حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر، وهو: ﴿شَهَٰدَٰتٍ﴾ والعامل فيه المصدر الذي هو ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، وعلى هذا خبرُه محذوفٌ تقديره: فواجبٌ شهادةُ أحدِهم أربعُ شهادات.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «عن»، والمثبت من (ي).

(٢) قرأ بالرفع حفص وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٦١).

﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ ﴿شَهَٰدَٰتٍ﴾ لقُربها، وقيل: بـ (شهادةُ) لتقدُّمها.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: فيما رماها به من الزنى، وأصله: على أنه، فحذف الجارُّ وكُسرت (إنَّ)، وعلِّق العامل عنه باللام تأكيداً.

***

(٧) ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي.

***

(٨) ـ ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾: ويدفع عنها الحبسَ والحد[١] ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الرامي ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي.

***

(٩) ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه، قرئ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على أربع، وبالرفع على الابتداء، وما بعدها الخبر[٢].

وخصَّ الغضبُ في جانبها لأن النساء يَستعملنَ اللعنَ كثيراً، كما ورد به الحديث[٣]، فربَّما يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعنِ على ألسنتهنَّ

---

(١) في (ك): «والحبر»، وفي (ي): «والجر»، وفي باقي النسخ: «والجبر»، والمثبت من هامش (ي)، وعليه علامة التصحيح.

(٢) قرأ حفص بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١٦١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وسقوطِ دفعه عن قلوبهنَّ، فذُكر الغضب في جانبهنَّ ليكون رادعاً لهنَّ.

وإذا الْتَعَنَا كما بُيِّن في النصوص لا تقع الفُرقة حتى يفرَّق بينهما.

وعند زُفَرَ والشافعيِّ يقع بتلاعنهما الفُرقة، وتكون الفُرقة تطليقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، وعند أبي يوسف وزُفر والشافعي تحريم مؤبَّد.

وأمَّا أنَّ حُكمَ لعانِ الزوج سقوطُ[1] حدِّ القذف عنه وثبوتُ حدِّ الزنى عليها، فالنَّصُّ ساكتٌ عنه.

***

(١٠) - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ تُرك جواب (لولا)، وهو أبلغ لأن النفس تَذهَب في تقدير جوابِه كلَّ مذهب[2]، ولقد أحسن مَن قال: رُبَّ سكوتٍ أبلغُ من النُّطق.

***

(١١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ هو أبلغُ ما يكون من الكذب والافتراء، وأصله من الأفك وهو الصَّرْف؛ لأنه قولٌ منصرِفٌ[3]..............................

(١) في (م): «وأما حكم لعان الزوج وسقوط»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٠٠).

(٢) في هامش (ع): «ومن قدر الجواب فقد أخل بنكتة الترك. منه».

(٣) في (ي): «وهو القلب لأنه قول منقلب». والمثبت من باقي النسخ، وكلاهما صواب، فمعنى الإفك =

عن وجهه، والمراد: ما أُفكَ به على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقصَّتُه معروفة[١].

﴿عُصْبَةٌ﴾: جماعةٌ، قيل: من العشَرة إلى الأربعين، ويردُّه ما في مصحف حفصة رضي الله عنها: (عُصْبةٌ أربعةٌ)[٢].

يقال: تعصَّب القومُ، إذا اجتمعوا على هيئةٍ فشدَّ بعضهم بعضاً، ومنه: العُصْبة؛ لأنه يَجمعهم التعصُّب، ففي عبارة العُصْبة هنا حُسْنُ موقعٍ، ورجحانُها على عبارة الجماعة من جهة الدلالة على الكَمِّ والكيف، فهم: عبد الله بن أُبيٍّ رأسُ المنافقين ورأس المتعصِّبين، وحسان بنُ ثابت، ومِسْطَح بن أثاثة، وحَمْنَة بنت جَحْش، ومَن ساعدهم[٣].

﴿مِّنكُمْ﴾: من المعدودين من أهل ملَّتكم، وهم ظنُّوا أنَّ الإفك وقع من الكفار، وفيه إظهارٌ لوجهِ غرابة ذلك الإفك، وخبر ﴿إِنَّ﴾: ﴿عُصْبَةٌ﴾، وقوله:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ مستأنَف، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وعائشة وصفوان ومَن ساءه ذلك[٤]..........

= كما قال الآلوسي: القلب والصرف. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٢٤٨).

(١) انظر تفصيل القصَّة عند البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ١٦٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٥٢).

(٣) في هامش (ف) و(م): «قال القرطبي: لم يسمَّ من أهل الإفك إلاَّ حسان ومسطح وحمنة وعبد الله، وجُهل الغير، قاله عروة بن الزبير وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إلا أنهم كانوا عصبة، كما قال الله تعالى. انتهى، ولا وجه لذكر زيد بن رفاعة هنا. منه».

(٤) في (م) و(ي): «ومن أساءه ذلك»، وفي (ع): «ومن ساء ذلك»، وسقطت من (ف) و(ك)، والصواب المثبت.

رضي الله عنهم من المؤمنين والمؤمنات، والهاءُ لـ (الإفك).

﴿شَرًّا لَّكُم﴾ الشَّرُّ: ما زاد ضرُّه على نفعه، والخير ضدُّه.

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثوابَ العظيم، وظهورِ كرامتكم على الله تعالى بإنزال ثماني عشرةَ آيةً في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلَّم فيكم، والثناءِ على مَن ظنَّ بكم خيراً.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾؛ أي: لكلِّ امرئٍ من العُصْبة جزاءُ إثمه على مقدار خوضه فيه مختصًّا به، وكان بعضهم ضَحِكَ، وبعضهم تكلَّم فيه، وبعضهم سَكَتَ، وليس في عبارة ﴿امْرِئٍ﴾ إخراج حَمنَةَ بنتِ جَحْش عن هذا الحكم، بل ترك ذكرها إحالةً بمعرفة حالها على الدلالة؛ تنزيلاً لشأنها وتحقيراً لها.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾: مُعظَمَه[1]، وقرئ بالضَّمِّ[2]، وهو لغةٌ فيه، أي: قَرُبَ من آخرِ عمره ولم يَبعد عن المعاصي خصوصاً عن مثل هذه المعصية.

﴿مِنْهُمْ﴾: من الخائضين في الإفك، وهو[3] ابنُ أُبيٍّ فإنه بَدَأَ به وأذاعه؛ عداوةً لرسول الله ﷺ.

﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا نزل عُذري قام النبيُّ عليه الصلاة والسلام فذكر ذلك وتلا القرآن، فلمَّا نزل من المنبر أَمَر بالرجلين والمرأة فضُربوا حدَّهم[4].

---

(١) في (ع): «تعظمه».

(٢) أي: ﴿كُبْرَهُ﴾، وقرأ بها من العشرة يعقوب. انظر: «العشرة» (٢/ ٣٣١).

(٣) في (ك): (فإنه).

(٤) رواه أبو داود (٤٤٧٤)، ورواه أيضاً الترمذي (٣١٨١) وحسنه، وابن ماجه (٢٥٦٧).

وهم: حسان بن ثابت ومِسْطَح بن أثاثة وحَمْنَة بنت جَحْش.

قال علماؤنا: وإنَّما لم يُحدَّ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ لأن الله تعالى قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدَّ في الدنيا لكان ذلك كفارةً له فيتخلَّص من عذابه الأخروي، وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون ليكفَّر عنهم إثمُ ما صدر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تَبِعةٌ ذلك في الآخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحدود: «إنَّها كفَّارة لمن أُقيمت عليه»[(١)].

ففي قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إشارة إلى عدم وجوب الحدِّ على ابن أُبَيٍّ، ولذلك لم يحدَّه النبيُّ عليه الصلاة والسلام[(٢)].

* * *

(١٢) ـ ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم وبَّخ الخائضين فيه فقال: ﴿لَّوْلَآ﴾: هلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: الإفكَ ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾: بالذين منهم، فالمؤمنون كنفسٍ واحدةٍ، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿خَيْرًا﴾: عفافاً وصلاحاً، وإنَّما عدل عن الخطاب إلى الغَيبة وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسِكم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليدلَّ التصريحُ بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يُصدِّق مؤمنٌ

---

(١) انظر: «طرح التثريب» للعراقي (٨/ ٧٢ ـ ٧٣). وحديث أن الحدود كفارة رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في هامش (ع) و(ف) و(ي): «هذا من دقائق الإشارات التي لم يتنبّه لها الناظرون في هذا المقام فقالوا ما قالوا. منه».

علـى أخيـه، ولا مؤمنـةٌ علـى أختهـا، قـولَ عائـبٍ[١] ولا طاعـنٍ، و[هـذا][٢] مـن الأدب الحَسَـن قَـلَّ القائـمُ به.

وإنما جاز الفَصْل بين (لولا) وفعلِه بالظرف؛ لأنه منزَّل منزلته من حيث إنَّه لا ينفكُّ عنه، ولذلك يُتَّسع فيه ما لا يُتَّسع في غيره، وذلك للاهتمام بالظرف والإيذانِ بأن لا يخلو في أوَّل وقتِ السماع بالإتيانِ بالمحضَّض[٣] عليه.

﴿وَقَالُوا۟﴾ كمـا يقـول المستيقنُ المُطَّلـع علـى حقيقـة الحـال، قُـرن بالظـنِّ التصريـحُ بالقـول؛ ليفيـد أنَّ اللائـقَ بالمؤمن أن يَبنـيَ قولَه على ظنِّ الخيـرِ في أوَّل وقت السـماع.

﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾: كذبٌ ظاهرٌ.

***

(١٣) ـ ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هلَّا جاؤوا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وشريعته، وفي عبارة ﴿عِندَ﴾ تعظيمٌ لِمَا في أحكام الشرع من العمل بالظاهر.

---

(١) في (ف): «فعل غائبة»، وفي (ك): «فعل عائبة».

(٢) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (١٦/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٣) في (ع): «بالمخصص»، وفي (ك): «بالمحضوض».

﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ من جملة المقول، تقريرٌ لكونه كذباً، فإنَّ ما لا حجَّة عليه مكذَّب[١] في حُكم الشرع، ولذلك رتّب الحدّ عليه.

***

(١٤) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (لولا) هذه لامتناع وجود الشيء لوجود غيره؛ أي: ولولا أنِّي قضيتُ أن أتفضَّل عليكم في الدنيا بضروب النِّعَم التي من جملتها الإمهال للعقوبة، وأن أترحَّم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة بسبب توبتكم واستسلامكم للحدِّ ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾: بسبب ما خضتم فيه، يقال: أفاضَ في الحديثِ وخاضَ واندَفَعَ.

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستَحْقَر دونه اللومُ والحدُّ.

***

(١٥) ـ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لـ (مسكم) أو لـ ﴿أَفَضْتُمْ﴾.

﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ التَّلقِّي كالتلقُّن والتلقُّفِ، إلَّا أن في التلقِّي معنى الاستقبال، وفي التلقُّن الحَذْق في التناول، وفي التلقُّف الاحتيال في التناول، ذكره الراغب[٢]، ولا اختصاص له بالكلام فلذلك قال:

---

(١) في (ك): «كذب».

(٢) انظر: «تفسير الراغب» (١/ ١٦٠). وجاء في هامش (ف) و(ي): «التلقي يبش الشن وجزي را ازكسي فراء كرفن تاج المصادر، فمن فسَّر التلقِّي بمطلق الأخذ، فقد أضرَّ بحسن موقع الكلمة في هذا المقام. منه». وهو في هامش (م) دون الألفاظ غير العربية.

﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾؛ أي: أنَّ بعضَكم كان يقول لبعضٍ: هل بَلَغك حديثُ عائشة! حتى شاعَ فيما بينهم وانتشر، فلم يبقَ بيتٌ ولا نادٍ إلا طارَ فيه.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم﴾ إنَّما قيَّد بالأفواه مع أنَّ القولَ لا يكون إلا بالفم؛ لأن المراد بيان أنَّهم يقولون كلاماً لا يساعده القلبُ بأدنى درجات العلم، فالتنكير في قوله: ﴿مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ للتقليل.

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾ سهلاً لا تَبعةَ له، فهذه ثلاثةُ آثام مترتِّبة علِّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقِّي الإفك بألسنتهم، والتحدُّثُ به من غير علمٍ، واستصغارهم بذلك.

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ في الوِزْر.

ثم أخذ في توبيخهم على التكلُّم به، وكان الواجب عليهم إذ سمعوه أن لا يتفوَّهوا به فقال:

(١٦) ـ ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿وَلَوۡلَآ﴾: وهلَّا ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصحُّ لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ قد تقدَّم فائدةُ تقديم الظرف، ووجه الفَصْل به بين (لولا) و﴿قُلۡتُم﴾.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ للتعجُّب من عِظَم الأمر، ومعنى التعجُّب في كلمة التسبيح: أنَّ الأصل أنَّ يُسبَّح اللهُ عند رؤية العَجَب من صنائعه(١)، ثم كثُر حتى استُعمل في كلِّ مُتعجَّب منه، أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمةُ نبيِّه عليه السلام فاجرةً، فإن فجورها ينفِّر عنه ويخلُّ بمقصود الزواج، بخلاف كفرها، فيكون تقريراً لِـمَا تقدَّم وتمهيداً لِـمَا تأخَّر.

---

(١) في (ك): «صانعه».

﴿هَٰذَا﴾ الإشـارة إلـى القول المخصـوص، ويجـوز أن يكون إلـى نوعِه؛ فإن قـذفَ آحـاد الناس مُحرَّم شـرعاً، فضلاً عـن تعـرُّض الصِّدِّيقة بنـتِ الصِّدِّيق حرمةِ رسول الله ﷺ.

﴿بُهْتَٰنٌ﴾ زُورٌ يَبهتُ[1] مَن يَسمع ﴿عَظِيمٌ﴾.

وفي بعض الأخبار: أنَّ أمَّ أبي أيوبَ قالت لأبي أيوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه: أمَا بَلَغك ما تقول الناسُ في عائشة رضي الله عنها؟! فقال أبو أيوبَ: سبحانك، هذا بهتان عظيم[2]. فنزلت الآية على وفق قوله.

***

(١٧) ـ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يُحذِّركم اللهُ ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾: في أن تعودوا إلى مِثْلِ ما فعلتُم من القولِ به وسماعِه وتلقِّيهِ[3].

﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياءً مكلَّفين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييجٌ لهم ليتَّعظوا، وتذكيرٌ بما يوجب تركَ العَود، وهو الإيمانُ الصادُّ عن كلِّ قبيح.

***

(١٨) ـ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالَّةَ على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتَّعظوا وتتأدَّبوا.

---

(١) في (ك) و(م): «بهت».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في (م): «وتلقنه».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يأمر وينهى ﴿حَكِيمٌ﴾ فيه.

***

(١٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾: يُؤثِرون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أن تنتشرَ الفاحشة؛ أي: ما قَبُحَ جدًّا، والمعنى: يحبُّون شيوعها ويُشيعونها، لأنَّ عذاب الدنيا لا يكون إلَّا بعد إشاعتها، وليس هذا من قَبيل الكناية ولا من قبيل المجاز المرسل؛ لأن كلًّا من معنى المحبَّة والإشاعةِ مقصودٌ، بل من قَبيل الاكتفاء عن ذِكْر الشيء بذكر ما يقتضيه[1]؛ تنبيهاً على القوَّة في المقتضي.

ويجوز أن يكون المعنى: أتُشيعون الفاحشةَ محبِّين شيوعها، على التضمين.

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: في حقِّ المؤمنين[2]، وهم المقذوفون منهم، أو فيما بين المؤمنين.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحدِّ ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بواطنَ الأمور وسرائرَ الصدور ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقِبوا في الدنيا على ما دلَّ عليه الظاهر، واللهُ يعاقِبُ على السرائر من حبِّ الإشاعةُ وغيرِه إن لم يتوبوا عنها.

***

(٢٠) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في (ف) و(ك): «بذكر نقيضه».

(٢) في (ف): «المبين».

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ لعجَّل لكم بالعذاب[1]، كرَّر المنَّة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغةً في تعظيم الجريمة والتوبيخ لهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾ حيث أظهر براءةَ المقذوف وأثابَ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بغفرانه جنايةَ القاذف إذا تاب، وهذا لأن الرأفةَ رقَّةُ الرحمة، وهي تناسب حالَ المقذوف.

***

(٢١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ﴾ الاتِّباعُ: الاقتداءُ بالدَّاعي الذاهبِ في جهةٍ باقتفاء أَثَره في الذهاب في تلك الجهة، فالمتَّبَع في الحقيقة نفسُ الداعي لا أَثَرُه، وإنَّما أُضيف الاتِّباع هنا إلى الأَثَر تنزيلاً له منزلةَ الداعي مبالغةً.

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أريد بخُطُوات الشيطان تعدِّيه حدودَ الله تعالى بالوسوسة وتجاوزُه عنها.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ حذف جزاؤه لظهوره، وأُقيم علَّته مقامَه.

﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ تعليل للجزاء المحذوف، والجملة الشرطية قائمةٌ مقام تعليل النهي.

﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: ما أفرط قُبْحُه ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما أنكره الشرعُ في الجملة، فهو تعميمٌ بعد التخصيص، وفائدته التنبيه بتقديم الخاصِّ على اختصاصه بزيادة الاعتناء في شأنه من جهة الأمر.

---

(١) في (ف) و(ك): «لعجل العذاب».

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيقِ التوبة الماحية للذنوب، وشَرْعِ الحدود المكفِّرة لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهر من دَنَسها ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ما دام حيًّا مكلفاً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ بحمله[1] على التوبة وقَبولها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بمقالاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بِنيَّاتهم.

***

(٢٢) ـ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: ولا يَحلِفْ، افتعالٌ من الأَلِيَّة، يُرشد إليه أنه قرئ: ﴿ولا يتألَّ﴾[2]، وأنه نزل في أبي بكرٍ رضي الله عنه وقد حَلَف أن لا يُنفِق على مِسْطَح بَعْدُ، وكان ابنَ خالته وكان من فقراء المهاجرين[3].

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدِّين، وفيه دليلٌ على فَضْل أبي بكر رضي الله عنه.

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المالِ.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ كراهة أن يؤتوا، وقرئ بالتاء على الالتفات[4].

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفاتٌ لموصوفٍ واحد؛ أي: ناساً جامعين لها؛ لأن الكلام فيمَن كان كذلك، أو لموصوفاتٍ أُقيمت مقامها، فيكون أبلغَ في تعليل المقصود.

---

(١) في (ك): «يحمله».

(٢) قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣١). وهذا مضارع تألَّى بمعنى: حَلَف.

(٣) قطعة من حديث الإفك الطويل رواه البخاري (٤٦٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) قرأ بها أبو حيوة وابن قطب وأبو البرهسم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١).

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرَط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ الصَّفْح: الإعراض، ولْيتجاوزوا عن الجفاء، ولْيُعرِضوا عن العقوبة.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ هـذا غايـةُ تلطُّـفٍ في الخطـاب؛ أي: فـإذا أحببتم مغفـرة الله لكـم فاغفـروا لغيركم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: فتأدَّبوا بأدب الله واعفوا وارحموا.

ولمَّا نزل ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى يا ربِّ، ثم عاد بمِسْطَح[1] إلى ما كان وكفَّر يمينه[2].

***

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: العفائفَ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ ممَّا قُذفنَ به، كناية عن براءتهنَّ منه ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بما يجب الإيمان به، استباحةً لعرضهنَّ وطعناً في الرسول والمؤمنين كابنِ أُبيٍّ.

أُريدت عائشةُ رضي الله عنها وحدها، وإنَّما جمع لأن مَن قَذَفَ واحدةً من نساء النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فكأنَّه قد قذفهنَّ.

وأعاد الكلام دفعاً لِـمَا عسى أن يَسبق إلى الأوهام من قضية مِسْطَحٍ أنَّ سائر[3] قذفَةِ عائشة مغفورون بالجَلْد والتوبة.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «لمسطح»، والمثبت من (ي).

(٢) قطعة من حديث الإفك الطويل عن عائشة رضي الله عنها، وقد تقدم تخريجه قريباً.

(٣) «سائر» من (م).

﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ يتكلَّم المؤمنون في الدنيا بلعنهم والملائكةُ في الآخرة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَم ذنوبهم، ودلَّ ذلك على معنى: يعذَّبون، وهو العامل في: ﴿يَوْمَ﴾ لا العذاب؛ لأنه موصوفٌ.

* * *

(٢٤) - ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ وقرئ بالياء[1]، للتقدُّم والفَصْل.

﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ هذا في حقِّ القَذَفة، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية [يس: ٦٥] في حقِّ المشركين، فلا منافاة.

﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعترفونَ بها بإنطاق الله تعالى، على ما نطَق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] بغير اختيارهم على ما دلَّ عليه قولهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] وفي ذلك مزيد تهويلِ العذاب.

* * *

(٢٥) - ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾: جزاءَهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب، وصفاً لـ ﴿ٱللَّهُ﴾ على المدح، لقراءة مجاهد بالرفع[2] وقراءةِ أُبَيٍّ: (يوفِّيهم اللهُ الحقُّ دينَهُم)[3]، والأصل في القراءات التوافق.

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ. انظر: «التيسير» (ص: ١٦١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٧).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٨٤).

﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الثابتُ بذاته، الظاهرُ ألوهيتُه، لا يُشاركه في ذلك غيرُه؛ لارتفاع الشكوك وحصولِ العلم الضروريِّ.

ولم يغلِّظ اللهُ تعالى في القرآن في شيءٍ من المعاصي تغليظَه في إفكِ عائشةَ رضي الله عنها، فأوجز في ذلك وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكَّد وكرَّر، وما ذلك إلَّا الإِصْر[1].

* * *

(٢٦) ـ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من القول والعمل ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، وعلى هذا بقيَّته.

وقيل: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وكذا بقيَّته.

﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ وفيه تنزيهُ عائشة رضي الله عنها لِمَا أنها زوجةُ الرسول ﷺ، فهي طيِّبةٌ لزوجٍ طيِّبٍ، وامرأةُ المنافق القاذفِ خبيثةٌ لزوجٍ خبيثٍ.

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: فيهم، و﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطيبين وأنَّهم مبرَّؤون ممَّا يقول الخبيثون مِن خبيثات الكَلِم، وهو كلامٌ جارٍ مجرى المَثَل لعائشةَ رضي الله عنها وما رُميَت من قولٍ لا يُطابِق حالها في النزاهة والطِّيب.

ويجوز أن يكون ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةً إلى أهل البيت، وأنَّهم مبرَّؤون ممَّا يقول أهلُ الإفك.

---

(١) في (ع): «إلا الأمر»، وفي (ي): «إلا لأمر»

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فـي المحشـر، مسـتأنفٌ، أو خبـرٌ بعـد خبـرٍ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فـي الجنة.

***

(٢٧) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي اختصَّ بكم سُكناها، سواءٌ سكنتُم فيها أو لم تسكنوا؛ أي: لا تدخلوا بيوتاً يَسكنها غيرُكم.

وهـذا يعـمُّ مسكنَ الأمِّ فإنـه لا يجـوز أن يدخـل عليهـا مغافصـة[1]، روي أنَّ رجـلاً قـال للنبـيِّ ﷺ: أَسـتأْذِنُ على أمِّي؟ قـال: «نعم»، قـال: لا خادمَ لهـا غيري، أسـتأذِنُ عليهـا كلَّمـا دخلـت؟ قـال: «أتحـبُّ أن تراهـا عريانـةً»؟ قـال: لا، قـال: «فاسـتَأْذِن»[2]، وهـو تأديـبٌ بما يرجـع إلى التحرُّز عـن الاطِّلاع على عـورةِ الغير.

﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾[3]؛ أي: تَستَعْلِموا مَـن فـي البيت بـأيِّ وجهٍ أَمْكـن[4]، قال تعالـى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]؛ أي: عَلِمتـم، وفي «سـنن ابن ماجه» عن أبـي أيـوبَ الأنصـاريِّ قال: قلنا: يا رسـول الله، هذا السـلام فما الاسـتئناس؟ قال:

---

(١) أي: على حين غرة. ووقع في (م): «مناقصة»، وفي (ع): «مقافضة»، وفي (ي): «مفاضة».

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٦٣)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٨٨)، عن عطاء بن يسار مرسلاً، قال ابن عبد البرّ في «التمهيد» (١٦/ ٢٢٩): هذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ، وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة مغناه.

(٣) في (ف): «تستأذنوا».

(٤) في هامش (ف) و(م): «فإن المانع عن الدخول قبل الاستئناس سكون الغير، وانتفاؤه لا يَستلزم ثبوت سكونهم. منه».

«يتكلَّـم الرجلُ بتسـبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميـدةٍ، وتَنحْنُحٍ، ويُؤذِن أهـلَ البيتِ»(١).

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا: السلامُ عليكم، أَأَدخل، وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليم أن يقول: السلامُ عليكم، أَأَدخُل»، ثلاثَ مرات، فإن أُذنَ له دَخَلَ، وإلَّا رجع(٢).

وقيل: إنْ تلاقَيَا يُقدِّم التسليم، وإلَّا فالاستئذان.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستعلامُ والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحيَّة الجاهليةِ والدُّمُور ـ وهو الدخول بغير إذنٍ ـ وكان الرجلِ من أهل الجاهلية إذا دخل بيتَ غيرِه يقول: حُيِّيتُم صباحاً، و: حُيِّيتُم مساءً، ثم يدخل، فربَّما أصاب الرجلَ مع امرأته في لحافٍ واحد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلِّق بمحذوف؛ أي: أُنزل إليكم ـ أو: قيل لكم هذا ـ إرادةَ أن تَذكروا وتَعملوا بما هو أصلحُ لكم.

***

(٢٨) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٠٧)، وفي إسناده: أبو سَوْرة ـ وهو ابن أخي أبي أيوب ـ وهو ضعيف.

(٢) انظر في الأمر بالرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٢١٥٣). وروى أبو داود في «سننه» (٥١٧٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٧٥)، من طريق رِبْعِيِّ بنِ حِراش أنه قال: حدَّثنا رجلٌ مِن بني عامر استأذَن على النبيِّ ﷺ وهو في بيتٍ، فقال: ألِجُ؟ فقال النبيُّ ﷺ لخادِمه: «اخرُجِ إلى هذا، فَعَلِّمْهُ الاستئذانَ، فقل له: قُل السَّلامُ عليكم، آدْخُلُ؟»، فَسَمِعُه الرجلُ، فقال: السلامُ عليكم، آدخُلُ؟ فأذِنَ النبيُّ ﷺ، فدخَلَ. ورجال إسناده ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعا. انظر حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٢١٥٣).

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ يأذنُ لكم، وإنما قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ﴾ دون: لم يكن؛ لمكان التفقُّد المأمور به في ضمن الأمر بالاستئناس.

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ يعني: إن كان لكم فيها حاجة.

﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ لا لأن التصرُّف في ملك الغير بغير إذنه محظور؛ لأنه لا ينتظِم ما إذا كان الداخل مُعِيراً[1]، بل لأن المانع عن الدُّمور ليس الاطِّلاعَ على العورات فقط، بل وعلى ما تُخفيه الناس عادةً.

والمراد من الإذن: ما يعمُّ الإذن دلالةً كما إذا عَرَض حرقٌ أو غرقٌ أو نحوُ ذلك، وأمَّا الذي فيه مُنكَرٌ فلا يكون خالياً، فلا يكون في معرض الاستثناء.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا تُلحُّوا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: الرجوع أطهرُ لكم عمَّا لا يخلو عنه الإلحاح من الكراهة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يَعلم ما تأتون وما تذرون ممَّا خوطبتم به، فيجازيكم عليه.

***

(٢٩) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾: في أن تدخلوا ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالخانات والرِّباطات والحوانيت ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾: استمتاعٌ ﴿لَّكُمْ﴾ كالاستِكْنان من الحرِّ والبرد، وإيواءِ الرحال والسِّلع، والجلوسِ للشِّرى والبيع، وذلك استثناء[2] من الحكم السابق؛ لشموله البيوتَ المسكونة وغيرَها.

---

(١) في (ي) لعلها: «فقيرا».

(٢) في (م): «الاستثناء».

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيدٌ لمن دخل مَدخلاً لفسادٍ، أو يطَّلع على عورات.

***

(٣٠) ـ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ لم يذكر ما يُغَضُّ البصرُ عنه ويُحفظ الفرج؛ لأن ذلك معلوم بالعادة، فإن مَن سمعه يَعلم أن المراد منه المحرَّمُ دون المحلَّلِ، فلا حاجة إلى الاستثناء، وليس كلُّ المحرَّم ممَّا يَجب غضُّ البصر عنه، بخلاف حفظ الفرج، فإن كلَّ ما يَحرُم يجب حفظه عنه، فلذلك أدخل[١] حرفُ التبعيض في الأول، وأطلق الثاني.

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ لما فيه من البُعد عن دَنَس الإثم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ من إجالة النظر واستعمالِ سائر الآلات وما يقصدون بها، فليكونوا على حَذَرٍ منه في كلِّ حركة وسكون.

***

(٣١) ـ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «دخل».

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ إنَّما قدّم غضّ الأبصار على حفظ الفروج؛ لأن النظرَ بريدُ الزنى ورائدُ الفجور، وبذرُ الهوى طموحُ العين.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزِّيْنة: ما تزيَّنت به المرأةُ من حُلِيٍّ أو كُحْلٍ أو خضابٍ، والمنهيُّ[1] إظهارُ مواضعِ الزينة، إذ إظهارُ عينِها[2] مباحٌ، فالمراد بها مواضعها مجازاً، أو إظهارها وهي في مواضعها لا إظهار أعيانها.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: بلا إظهار منهنَّ، كما إذا هبَّت الريحُ وكشفت عنها الستر، والاستثناء عن الحكم الثابت بطريق الإشارة، وهو الاستحقاق بالمؤاخَذة في دار الجزاء بسبب ظهورها، وقد مرَّ وجه هذا النوع من الاستثناء في تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من سورة النساء [الآية: ٢٢].

وما ظهر بإظهارٍ منهنَّ ضرورةً ـ كالمعالجة وتحمُّل الشهادة ونحوِ ذلك ـ في حُكم ما ظهر بلا إظهارٍ منهنَّ، وأمَّا جريان العادة والجِبِلَّةِ على ظهوره، فلا يَصلح وجهاً للاستثناء المذكور.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: ولْيَضعنَ، من قولك: ضَربتُ بيدي على الحائط، إذا وضعتَها عليه.

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: جمع خِمارٍ ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت جيوبهنَّ واسعةً تَبدو منها صدورهنَّ وما حواليها، وكنَّ يَسدُلنَ الخُمُرَ من ورائهنَّ فتبقى مكشوفةً، فأُمِرن أن يَسدُلْنها من قُدَّامهنَّ حتى يغطينها.

---

(١) في (م): «والنهي عن».

(٢) في (ك): «غيرها». والمراد بـ«عينها»: عين الزينة، يعني: حين لا تكون على المرأة.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرَّره لبيان مَن يحلُّ له الإبداء ومَن لا يحلُّ له:

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: لأزواجهنَّ.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأجدادُ.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارمَ أيضاً.

﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ ويدخل فيه النوافل.

﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارمَ أيضاً.

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالأعمام والأخوال وغيرهم دلالةً.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: الحرائر المؤمنات، فإن مُطلَق هذا اللفظ للحرائر، والإضافة لإخراج الكافرات فإنهنَّ لا يتحرَّجن عن وصفهنَّ للرجال.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعمُّ الإماء والعبيد؛ لما روي عن النبيِّ ﷺ أنه[1] أتى فاطمةَ رضي الله عنها بعبدٍ وَهَبهُ لها وعليها ثوبٌ إذا قنَّعت به رأسَها لم يَبلغ رجليها، وإذا غطَّت رجليها لم يَبلغ رأسَها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامك»[2].

وقال سعيد بن المسيب: لا تغرنَّكم سورةُ النور، فإنَّها في الإماء دون الذكور[3].

---

(١) «أنه» من (ف) و(ك).

(٢) رواه أبو داود (٤١٠٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٣٢)، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٩١٠). قال الزمخشري: وهذا هو الصحيح، لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها، خصيًّا كان أو فحلاً.

ويَرِدُ عليه أنه حينئذٍ يَلزم أن يكون في المذكور إطنابٌ مخلٌّ، واللازم مُنْتَفٍ بلا شبهة.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾: الذين يَتْبَعون القومَ فيأكلون معهم ويرتفقون بهم.

﴿غَيْرِ﴾ بالنصب على الاستثناء أو الحال، وبالجرِّ على البدل أو على الوصفية[1].

﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾: الحاجةِ إلى النساء، وهم الذين لا يَشتهون النساء، فلا يحتاجون إليهنَّ من هذه الجهة، وهذا ليس بواقعٍ على الخصيِّ والمجبوب والمخنَّث؛ لأنهم يُشتهَون ويَشتهُون النساء.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ﴾ هو جنسٌ، فصلح أن يُراد به الجمع بدلالة الوصف.

﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم؛ من الظهور بمعنى الاطِّلاع، أو: لعدم بلوغهم إلى حدِّ الشهوة؛ من الظهور بمعنى الغلبة.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ أي: الأرضَ عند المشي ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ليَتَقعقَع خَلْخالها فيُعلم أنها ذاتُ خَلْخال، وإنما نهى عنه لأن سماع هذه الزينة أشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها، فلا دلالة فيه على أن إبداءَ الزينة نفسه مقصودٌ بالنهي فيما تقدَّم.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحدٌ منكم من تفريط سيَّما في الكَفِّ عن الشهوات، وقوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بيانُ أنه أَمَرهم بالتوبة لينتفعوا بذلك، لا أن يكون للحقِّ سبحانه بها تجمُّل.

---

(١) قرأ بالنصب ابن عامر وشعبة، وباقي السبعة بالجر. انظر: «التيسير» (ص: ١٦١).

(٣٢) ـ ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الأَيامى: جمع أَيِّم، وهو مَن لا زوجَ له، رجلاً كان أو امرأةً، بكراً كان أو ثيِّباً، وأصله: أيايم فقُلب.

والخطاب للأولياء والسادة، والأمرُ للندب، لا يقال: في الآية دليلٌ على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء، كما أن تزويج العبيد والإماء إلى الموالي، لأنَّا نقول: الرجلُ لا يَلي الرجلَ الأَيِّمَ إلَّا بإذنه، فكذا لا يلي على المرأة إلَّا بإذنها؛ لأن الأيِّم ينتظِمُهما، ولا فارق من جهة النظم.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تخصيصُهم لأنَّ إحصانَ دينِهم والاهتمامَ بشأنهم أهمُّ.

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾؛ أي: من غلمانِكم وجواريكم.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وعدٌ من الله تعالى بالإغناء؛ لقوله عليه السلام: «اطلبوا الغنى في هذه الآية»(١)، ولقوله عليه السلام: «التمِسوا الرزق بالنكاح»(٢).

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: ذو سعة لا يرزؤه إغناءُ الخَلْق ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق ويقدره على ما تقتضيه حكمته.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٠٥)، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٧١): لم أجده. قلت: رواه عبد العزيز بن أبي رواد عن النبي ﷺ مرسلاً، كما في «تفسير ابن أبي زمنين» (٣/ ٢٣٣)، و«النكت والعيون» (٤/ ٩٨).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٨٢)، وعزاه العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٠٢) للثعلبي في «تفسيره» وضعفه.

(٣٣) - ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ ولْيَجتهدْ في العفَّة وقَمْع الشهوة، كأنَّ المستعفِف طالبٌ من نفسه العَفَاف.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استطاعةَ تزوُّجٍ من المهر والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

انظر كيف رتَّب هذه الأوامر؛ فأَمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويُبعد من موافقة[1] المعصية وهو غضُّ البصر، ثم بالنكاح الذي يُحصَّن به الدِّين، المغني عن الحرام، ثم بعزف[2] النفس الأمَّارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يقدر عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: والمماليك الذين يطلبون الكتابةَ فـ(الذين) مرفوع بالابتداء، أو منصوبٌ بفعل يفسِّره:

﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وهو للندب، ودخلت الفاء لتضمُّن معنى الشرط، والكِتاب والمكاتبة كالعِتاب والمعاتبة، وإنَّما سمِّي ذلك العقدُ به؛ لأن السَّيِّد كَتبَ على نفسه عتقه إذا أدَّى المال، ويجوز حالًّا ومؤجَّلاً، منجَّماً وغيرَ منجَّم؛ لإطلاق الأمر،

---

(١) كذا في النسخ، والذي في «الكشاف» (٣/ ٢٣٨): (مواقعة)، وهو الأنسب بالسياق.

(٢) في (ف) و(ك): «بعرف»، وفي (ع): «بصرف»، والمثبت من (م) و(ي). وهو الأقرب إلى ما في المصدر السابق، ولفظه: (ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح...).

وعدمُ المال لا يَستلزم العجز عن الأداء في الحال؛ لأنه قادرٌ على الاستقراض.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: قدرةً على الكسب، أو أمانةً، أو ديانةً، والنَّدْبيَّة متعلِّقة بهذا الشرط كما أن النَّدْبية في إنكاح الأيامى متعلِّقة بشرط الصلاح.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتَبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وعند الشافعيِّ معناه: حُطُّوا من بدل الكتابة شيئاً قلَّ أو كثر، ويأباه عبارة الإيتاء؛ لأنها تقع على التمليك لا على الحطِّ.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ كنَّى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة، والبِغاء: الزنى للنساء خاصَّة، وهو مصدر البغي.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعفُّفاً عن الزنى، وإنما قيَّد بهذا الشرط لا لأنَّ الإكراه لا يتحقَّق بدونه؛ لأنه على تقدير التسليم يكون سبباً للترك لا للذكر، بل لأنها نزلت في ابن أُبيٍّ وكانت له جَوارٍ يُكرههنَّ على البغاء، وفيه توبيخٌ بالموالي؛ أي: إذا رغبنَ في التحصُّن، فأنتم أحقُّ بذلك، وإيثار (إنْ) على (إذا)؛ لأن إرادة التحصُّن من الإماء كالشاذِّ النادر.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾: لابتغائكم، فإن الفعل هنا منزَّل منزلةَ المصدر، كما في قوله: تَسمعُ بالمُعيدِيِّ خيرٌ من أن تراه، وذلك لأنَّ الابتغاء المذكور يكون سبباً مقدَّماً، ولا يكون غاية متأخِّرة.

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من أجورهنَّ وأولادهنَّ.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ حذف جوابه؛ أي: فعليه وبالُ إكراهه لا يتعدَّى إليهنَّ، وأُقيم تعليل هذا مقامه وهو قوله:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ أي: لهنَّ، وفي مصحف ابنِ مسعود رضي الله عنه كذلك[١].

وإنما قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ لشدَّة المعاتبة على المُكرِه؛ فإن المُكرَهة مع قيام العذر إذا كانت بصدد المعاتبة حتى احتاجت إلى المغفرة، فما حال المُكرِه؟! وللدلالة على أنَّ حدَّ الإكراه الشرعيِّ والمصابرةِ إلى أن يُنتَهى إليه فيرتكبَ ضَيِّقٌ[٢]، والله يغفرُ ذلك بلطفه.

* * *

(٣٤) - ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيَّنَاتٍ﴾ المراد: الآياتُ التي بُنيِّت في هذه السورة وأُوضحت في معاني الأحكام والحدود، وجاز أن يكون الأصل: مبيَّناً فيها، فاتُّسع في الظرف، وقرئ بالكسر[٣]؛ أي: بيَّنت من الأحكام والحدود، وجُعل الفعل لها مَجازاً، أو من بَيَّن بمعنى: تبيَّن، ومنه المَثَل: قد بَيَّن الصُّبحُ لذي عينين[٤].

﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ أي: ومَثَلاً من أمثالِ مَن قبلكم؛ أي: وقصَّةً عجيبةً مثلَ قصصهم، وهي قصَّة عائشة فإنَّها كقصَّة[٥] يوسفَ ومريمَ عليهما السلام.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: هم المنتفعون بها وإن كانت الموعظة للكلِّ.

---

(١) أي: (من بعد إكراههنَّ لهنَّ غفور رحيم)، والقراءة رواها عبد بن حميد في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧).

(٢) في (م): «فسق».

(٣) قرأ بالكسر ابن كثير ونافع وأبو عمرو وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

(٤) انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٢٦)، و«المستقصى في الأمثال» (٢/ ١٩٠).

(٥) في (م): «قصة».

(٣٥) ـ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بيَّن وضوح الدلالات وجلاء البينات، وأنَّ مَن ضلَّ عن الحقِّ فليس لخفاءِ الدليل واشتباهِ السبيل، فقال: اللهُ هادي أهل السماوات والأرض؛ أي: إلى ما بهم الحاجةُ إليه في مصالحِ دينهم ودنياهم، وهي كلمة مُطلَقة في هذا المعنى، يقال: فلانٌ نورُ بلدِه، أي: به يَهتدون إلى أمورهم، وعن رأيه يَصدرون إلى مصالحهم.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾؛ أي: صفةُ نورِه العجيبة الشأن في الإضاءة، والمراد به: دلائلُه التي يَهتدي بها عباده.

﴿كَمِشْكَاةٍ﴾: كصفةِ مشكاة، وهي الكُوَّة في الجدار غيرِ النافذة.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: سراجٌ ضخمٌ ثاقبٌ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديلٍ من زجاجٍ شاميٍّ أَزْهَرَ.

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: مُضِيء، بضمِّ الدال وتشديد الياء، منسوبٌ إلى الدُّرّ لفَرْط ضيائه وصفائه.

وقرئ بالكسر والهمز(١)؛ كأنَّه يَدْرأ(٢) الظلامَ بضوئه.

---

(١) أي: ﴿دِرِّيْءٌ﴾، وقرأ بها أبو عمرو والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

(٢) كتب تحتها في (ي): «يدفع».

وقرئ بالضَّمِّ والهمز[١]؛ شبَّهه في زهرتِه بأحدِ[٢] الكواكبِ الدراري، كالمشتري والزُّهَرة ونحوهما.

﴿يُوقَدُ﴾ بالياء والبناء للمفعول من أَوْقَد، وقرئ بالفوقانية كذلك[٣] على إسناده إلى ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ بحذف المضاف

وقرئ: ﴿تَوقَّدُ﴾[٤] بمعنى: تتوقَّد؛ بحذف التاء لاجتماع الزيادتين.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾؛ أي: ابتداءُ ثُقوبه[٥] من شجرة الزيتون، يعني: رَوِيَت ذُبالتُه بزيتها[٦].

﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: كثيرة المنافع، أو لأنَّها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من ﴿شَجَرَةٍ﴾، نعتُها:

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي: لا نابتةٍ في شَرق المعمورة ولا في غربها، بل في وسطها وهو الشام، فإنَّ زيتونَها أجودُ.

أو: لا في مضحًى تُشرق الشمس عليها دائماً فتحرِقُها، أو في مقنأة تغيبُ عنها دائماً فتتركها نيئاً، وفي الحديث: «لا خيرَ في شجرةٍ ولا في نباتٍ في مقنأةٍ، ولا خير فيهما في مضحى»[٧].

---

(١) أي: ﴿دُرِّيْءٌ﴾، وقرأ بها حمزة وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

(٢) في (ف): (أحد). وفي (م): «كأحد».

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

(٤) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

(٥) في (ف): «توقده».

(٦) في (ف): «بدهنها»، وفي (م): «بزهرها».

(٧) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٤١). قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١١٩): لم أجده.

وقيل: أي: ليس بحيث تقع الشمسُ عليها حيناً دون حينٍ، بل بحيث تقع عليها طول النهار، كالتي تكون على قُلَّة أو صحراءَ واضحة، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتها أصفى، ويردُّه ما دلَّ عليه الحديث المذكور[1] من أنه لا خيرَ فيها؛ لأن إشراق الشمس عليها دائماً يحرقها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء[2] والوميض، وأنَّه لتلألؤه يكاد يُضيء من غير نارٍ.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: هذا النور الذي شبِّه به الحقّ نورٌ مُتضاعف قد تناصَر فيه المشكاةُ والزجاجةُ والمصباحُ والزيتُ حتى لم يبق بقيَّةٌ ممَّا يقوِّي النور، وهذا لأنَّ المصباح إذا[3] كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمعَ لنوره، بخلاف المكان الواسعِ فإنَّ الضوء ينتشر فيه، والقنديل أعونُ شيءٍ على زيادة الإنارة، وكذلك الزيتُ وصفاؤه، وضَرْبُ المَثَل يكون بدنيٍّ[4] محسوسٍ معهودٍ لعليٍّ غيرِ معايَنٍ ولا مشهودٍ[5].

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾؛ أي: لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فإن الأسباب إنَّما تتمَّشى بمشيئته.

---

(١) لو صح، لكنه لا يعرف، ولم نجد له غير «الكشاف» مصدراً.

(٢) في (م): «بالضياء» وكلمة: «والوميض» بعدها من (ع) و(ي).

(٣) في (م): «إن».

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «بدل»، ولم تجود في (ع) و(ي). وقوله: (بدني) كأنه مِن الدنوِّ بمعنى القُرب، أي: قريب التناول للأذهان لكونه محسوساً معهوداً، لأنَّ المقصود مِن التمثيل تقريب المعاني البعيدة مِن الأذهان بتشبيهها بالمعاني القريبة منها.

(٥) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٥٠٧)، وفيه: (لا بعلي) بدل: (لعلي).

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى أفهامهم وتسهيلاً لسبيل الإدراك.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيبيِّن كلَّ شيء بما حقُّه أن يُبيَّن به.

***

(٣٦) - ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلِّق بـ (مشكاة)؛ أي: كمشكاةٍ في بعضِ بيوتِ الله تعالى وهي المساجد.

أو: بـ ﴿توقد﴾؛ أي: توقد في بُيوتٍ، فيكون تقييداً للمُمَثَّل[١] به بما يكون تحبيراً[٢] ومبالغةً، فإن قناديل المساجد تكون أعظمَ، ولا ينافي جمعُ البيوت وحدةَ المشكاة؛ إذ المراد بها ما له هذا الوصف بلا اعتبارِ وحدةٍ ولا كثرةٍ.

أو: بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ أي: يُسبِّح له رجالٌ في بيوت، وفيها تكرير فيه توكيد، نحو: زيدٌ في الدار جالسٌ فيها.

---

(١) في (ك): «للمثل للممثل». وفي (م): «للمثل للمثل»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب والموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٠٨) والكلام منه.

(٢) كلمة «تحبيرا» من (ي)، وتحرفت في باقي النسخ إلى ألفاظ غير واضحة، وفي هامش (ك): «التحبير التزيين». وقد جاءت مع الكلمة اللاحقة في نسخ البيضاوي على وجوه، أحدها المثبت، والثاني: (لخير أو مبالغة). قال الشهاب: قوله: (بما يكون لخير) باللام والخاء المعجمة والراء المهملة في نسخة صحيحة؛ أي: قيده بما يكون معدًّا للخير وهو الطاعة والعبادة؛ لمناسبته للممثل له وهو الهداية ونحوها، وضبطه بعضهم كما في بعض النسخ: (تحبيراً) بالحاء والراء المهملتين والباء الموحدة، يعني: تزييناً وتحسيناً، ولا مدخل له في التمثيل، وفي أخرى: (تحيرا) و(كحيز) بمعنى محلٍّ ومقر بالمعجمة، وزاد الكاف لأنها معلقة فيه فليس حيزاً حقيقياً لها كما قيل، وهو تكلف، قوله: (أو مبالغة فيه) وفي نسخة: (ومبالغة) بالواو، ووجه المبالغة كونها أضوءَ وأكبر، وعلى هذه النسخة يكون عطفه على ما قبله كالتفسير له ليكون له مدخل في التمثيل.

أو: بمحذوف؛ أي: سبِّحوا في بيوت، والمراد بها المساجد؛ لأن الصفة تلائمها.

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أَمَرَ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ لِمَا يتضمَّن ذِكْرَه، حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال ابنُ عباس: كلُّ تسبيحٍ في القرآن صلاةٌ[1]. أي: يُصلِّي له فيها بالغداة صلاةَ الفجر، وبالآصال سائرَ الصلوات، ولهذا وحّد الغدوّ، وجمع قرينه.

والأصيلُ في الأصل: الوقتُ الذي بعد العصر إلى المغرب، صرَّح به الجوهريُّ[2] وصدر الأفاضل، وجمعه: أُصُل وآصَال؛ فمَن قال: والآصال جمع أصيل، وهو العشيُّ، فقد أخطأ مرَّتين.

وقرئ: (والإيصال)[3]، وهو الدخول في الأصيل.

***

(٣٧) - ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وقرئ: ﴿يُسبَّح﴾ بالفتح[4]، على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة، ورفع ﴿رِجَالٌ﴾ بما يدلُّ عليه ﴿يسبَّح﴾.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٣٢٠)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٣٣٥).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: أصل).

(٣) قرأ بها أبو مجلز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢)، و«المحتسب» (٢/ ١١٣).

(٤) قرأ بها ابن عامر وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢).

وقرئ بالتاء مكسوراً[١]؛ لتأنيث الجمع، ومفتوحاً[٢]؛ على إسناده إلى أوقات الغدوِّ.

وإنَّما خصَّ الرجالُ بالذِّكر؛ إذ ليس على النساء والصبيان الحضورُ في المساجد.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَـٰرَةٌ﴾؛ أي: بالسفر ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾؛ أي: في الحَضَر، وحملناهما على هذين ليكون لزيادةِ إفادةٍ لا لمجرَّد إعادةٍ.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: خارجَ الصلاة ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: وعن إقامة الصلاة، التاء في (إقامة) عوضٌ من العين الساقط للإعلال، إذ الأصل: إقوام، فلمَّا قُلبت الواوُ ألفاً اجتمع ألفان، فحُذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي[٣]: إقاماً، فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فلمَّا أضيفت أُقيمت الإضافةُ مقام التاءِ فأُسقطت.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ يعني: أنَّهم يَسلكون سبلَ الكسبِ ولكن[٤] إذا حضر حقُّ اللهِ تعالى أو حقُّ عبادِه بدؤوا به.

﴿يَخَافُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿تُلْهِيهِمْ﴾، أو صفة أخرى لـ ﴿رِجَالٌ﴾.

﴿يَوْمًا﴾: يوم القيامة؛ أي: الحاملُ لهم على إقامة هذه الأشياء خوفُ القيامة.

﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ لبلوغها إلى الحناجر ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ بالشُّخوص والزُّرْقة[٥].

---

(١) أي: (تُسبِّح)، نسبت لأبي حيوة وابن وثاب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢).

(٢) نسبت لأبي جعفر في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢).

(٣) في (م): «فيبقى».

(٤) في (م): «لكن».

(٥) في (ك) لعلها: (والدرمة)، وفي (ع): «للذرفة».

أو: تتقلَّبُ القلوبُ إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصارُ إلى العيان بعد إنكاره للطغيان، كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

***

(٣٨) ـ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلِّق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ أو: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أو: بـ ﴿يَخَافُونَ﴾.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ وأدناه المندوبُ، واحترز بالأحسن عن الحسن وهو المباح؛ إذ لا جزاء له.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: يزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضُّلاً.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ﴾: يُثيب ﴿مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثواباً لا يَدخل في حسابِ الخلق، تقريرٌ للزيادة، وتنبيهٌ على كمال القدرة، ونفاذِ المشيئة، وَسَعة الإحسان.

***

(٣٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾؛ أي: الذين كفروا حالهم على ضدِّ ذلك، فإن أعمالهم التي يظنُّونها صالحةً نافعة عند الله، يَجدونها لاغيةً مخيِّبةً في العاقبة كالسراب، وهو ما[1] يُرى في الفَلَاة من لمعانِ الشمس عليها وقتَ الظهيرة يَسرب على وجه الأرض كأنَّه ماءٌ يجري.

---

(١) في (ك): «ماء».

﴿بِقِيعَةٍ﴾ بمعنـى القـاع، أو جمـعُ قـاعٍ، وهو المنبسِـطُ المسـتوي من الأرضِ كجيرةٍ فـي جارٍ.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ الظمأ: شدَّة العطش ﴿مَآءً﴾ التشبيهُ في شدَّة الخيبة عند مسيسِ الحاجة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾: إذا جاء إلى ما توهَّم أنه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ نافعاً، يقال: هذا ليس بشيءٍ، يُراد به نفيُ نفعِه، هذا إذا كان المعنى: إذا جاء السرابَ.

وأمَّا إذا كان المعنى: إذا جاء موضعَه، فمعنى ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾: لم يجد في ذلك الموضع شيئاً كان يَتراءى له؛ لأنه لا يرى ذلك إذا حضر(١)، وكذلك الكافر إذا قدِم يوم القيامة على أعماله التي هي خيراتٌ عنده، لم يجدها نافعةً، أو لا يراها؛ لأنها صارت هباءً منبثًّا.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وجد عقابَ الله ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: تبطُل حسناته ويبقَى عقابُ سيئاته معدًّا له عند قدومه.

﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: أعطاه جزاءَ عمله وافياً كاملاً.

وحَّد بعد تقدم [الجمع] حملاً على كلِّ واحد من الكفار(٢).

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنـه لا يحتـاج إلـى عـدٍّ(٣) وعقـد، ولا يشـغله حسـابٌ عن حسـابٍ.

---

(١) في (ك) و(م): «حضروا».

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٥٠٩)، و«البحر» (١٦/ ١٠٠)، وما بين معكوفتين منهما. وعبارة «البحر»: (وأفرَد الضَّميرَ في ﴿وَوَجَدَ﴾ بعد تقدُّم الجمع حملاً..)، وعبارة النسفي: (وحد بعد الجمع حملاً..).

(٣) في (ف) و(ك): «عدد».

قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ عطف على ما تقدَّم من التمثيل على سبيل العطف على المعنى، ومَن غفل عن هذا زعم أنه من تتمَّة التمثيل، فتعسَّف في توجيهه.

* * *

(٤٠) ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا كـ (أو) في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩].

وما قيل: ﴿أَوْ﴾ للتنويع؛ فإنَّ أعمالهم إن كانت صالحةً فكالسراب، وإن كانت قبيحةً فكالظلمات= يردُّه قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ لأن الأعمال الصالحة وإن لم تكن نافعة مع الكفر، لا يكون في عاقبتها وخامةٌ.

﴿لُّجِّىٍّ﴾: عميقٍ كثيرِ الماء، منسوبٌ إلى اللُّجِّ وهو معظم الماء.

﴿يَغْشَىٰهُ﴾: يغشى البحرَ، أو من فيه؛ أي: يعلوه ويغطِّيه.

﴿مَوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾؛ أي: من فوق الموجِ موجٌ آخرُ.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾؛ أي: من فوق الموجِ الأعلى ﴿سَحَابٌ﴾ غطَّى النجوم وحَجَب أنوارها. والجملة صفة أخرى لـ ﴿بَحْرٍ﴾[1].

﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾؛ أي: هذه ظلماتٌ[2] ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمةُ الموج على ظلمةِ البحر، وظلمةُ الموج على الموج، وظلمةُ السحاب على الموج.

---

(١) في (م): «صفة آخر للبحر».

(٢) في (م): «الظلمات».

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ أقربَ ما تُرى إليه ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ لم يقرُب أن يراها، فضلاً عن أن يراها، والضمائر للواقع في البحر وإن لم يَجْرِ ذِكْره[1]؛ لدلالة المعنى عليه.

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾؛ أي: مَن لم يَهدِهِ اللهُ لم يَهتدِ، عن الزجَّاج[2]، في الحديث: «خَلقَ اللهُ الخلقَ في ظلمةٍ، ثم رَشَّ عليه من نورِه؛ فمَن أصابه من ذلك النورِ اهتدى، ومن أَخطأه ضَلَّ»[3].

***

(٤١) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: أَلَم تَعلم علماً يقوم مقام العيَان في الإيقان[4] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كلِّ نقص وآفَةٍ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿مَن﴾ لإسناد التسبيح، فلا حاجة إلى التغليب هنا وفي ﴿يَفۡعَلُونَ﴾، أو أُريد به الملائكة والثقلان.

﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ على الأول تخصيصٌ؛ لِـمَا فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر، ولذلك قيَّدها بقوله:

﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ فإنَّ إعطاءَ الأجرام الثقيلة ما به تَقْوَى على الوقوف في الجوِّ صافَّةً

---

(١) في (ك): «يجر له ذكر».

(٢) في «معاني القرآن» له (٤/ ٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّنه.

(٤) في (ك): «الإتقان».

باسطةً أجنحتها لِـمَا فيها من القبض والبسط حجَّةٌ قاطعة[١] على كمال قدرة الصانع ولُطفِ تدبيره[٢].

﴿كُلٌّ﴾: كلُّ واحد ممَّا ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ الضميرُ لـ ﴿كُلٌّ﴾، وكذا في: ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

ولا يَبعد أن يُلهم اللهُ الطيرَ دعاءَه وتسبيحه كما أَلهمه سائر[٣] العلوم الدقيقة التي لا يَكاد العقلاءُ يهتدون إليه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الصلاة والتسبيح وغيرِهما.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لا شريكَ له فيه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجِعُ الكلِّ، وإنَّما عدل عن الضمير تفخيماً.

* * *

(٤٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ معنى ﴿يُزْجِى﴾: يَسوق[٤] قليلاً قليلاً، ويُستعمل في

---

(١) في (ك): «ناطقة».

(٢) في (م): «تدابيره».

(٣) في (ف) و(ك): «ألهم سائر»، وفي (م): «ألهمها بسائر».

(٤) في (ف): «ينشئ»، ولم ترد الكلمة في (ك).

سوق الثقيل برفقٍ، كالسحاب والإبل، والسحاب: اسمُ جنسٍ، واحده: سحابة، والمعنى: يَسوق سحابةً إلى سحابةٍ.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ تذكيره للَّفظ؛ أي: يضمُّ بعضه إلى بعض.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾: متراكِماً بعضُه فوقَ بعض.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: من فُتُوحه، جمع خَلَلٍ، كجبال في جبل.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ماءً من الغمام، وكلُّ ما علاكَ فهو سماء.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾: من قِطَعٍ عظامٍ تشبه الجبال مِن عِظَمها.

﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيانٌ للجبال، والمفعول محذوف؛ أي: يُنزِّل مبتدئاً من السماء من الجبال فيها من بَرَدٍ بَرَداً.

ويجوز أن تكون (مِن) الثانيةُ أو الثالثةُ للتبعيض واقعةً موقعَ المفعول.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالبَرَد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيضرُّه في نفسه أو في زرعه، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يُصيبه.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: ضوؤُه[١] ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بأبصار الناظرينَ إليه من فَرْطِ الإضاءة، وذلك أقوى دليلٍ على كمال القدرة من حيث إنه توليد الضِّدِّ من الضِّدَّ.

وقرئ: ﴿يُذْهِبُ﴾ على زيادة الباء[٢].

***

(١) أي: ضوء برقه.

(٢) قرأ أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٢).

(٤٤) ـ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالمعاقبة بينهما، أو بنقصِ أحدهما وزيادة الآخر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: فيما تقدَّم ذكره ﴿لَعِبْرَةً﴾: لدلالةً على جود الصانع القادر العليم.

وللتنبيه على وضوح الدلالة قال: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ دون: لأولي البصائر.

ثم بيَّن دليلاً آخر فقال:

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾: حيوانٍ يدبُّ على وجه الأرض، وقرئ: ﴿خالقُ كلِّ دابَّةٍ﴾ بالإضافة[(١)].

قال الراغب: والدبيبُ[(٢)] أصلُه: حكايةُ صوتِ حركة المشي، ثم قيل: دبَّ، إذا مشى، ويقال لكل ما يمشي: دابَّة، ثم خُصَّ الفرس[(٣)].

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادَّته وسببُ حياته، على ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقيل: من ماء مخصوصٍ وهو النطفة، ولا يلزم حينئذٍ أن يُرتكب إلى ادِّعاء الغَلَبة في المخلوق من النطفة، وتنزيلِ الغالبِ منزلةَ الكُلِّ؛ لجواز أن يُراد بالدابَّة ما

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢) في (ف) و(ك): «في الدبيب»، وسقطت من (ي). والمثبت موافق للمصدر.

(٣) انظر: «تفسير الراغب» (١/ ٣٦٠).

يُخلَق بالتوالُد بقرينة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي: من نطفة، كما أريد من الشيء في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ما به الحياةُ بقرينة ﴿حَىٍّ﴾[(١)].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيَّة والحوت، يُسمَّى الزحفُ مشياً؛ استعارة، لقيامه مقام الشيء، وليس هذا من قَبيل ذكر المقيَّد وإرادة المطلق، كما إذا ذكر المِشْفَر وأُريد به الشَّفَة مطلقاً؛ لأن خصوصية الزحف مقصودة[(٢)]، والمشاكلة البديعية طريقةٌ أخرى لا يُصار إليها عند صحَّة الاستعارة البيانيَّة[(٣)].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعم والوَحْش. قيل: ويندرج فيه ما له أكثرُ من أربعٍ كالعناكب؛ فإن اعتمادها إذا مشت على أربعٍ. ولا يخفى ما فيه من التعسُّف.

وتذكير الضمير لتغليب العقلاء، والتعبيرُ بـ(مَن) عن الأوصاف ليوافق التفصيلُ الجملةَ.

قيل: قدّم ما هو أعرفُ[(٤)]..

---

(١) في هامش (ف) و(م): «ولا من قبيل قولهم: شقَّ هذا الأمر. منه».

(٢) في (م): «مقصور».

(٣) في هامش (ع) و(ف) و(م): «المشي هو النقلة بالخطوة لا مطلق النقلة كما هو الظاهر من قول الجوهري: زحف إليه زحفاً مشى، وقد يستعار الزحف للمشي على عكس ما ذكر، وعليه نبَّه الزمخشريُّ، قال في «الأساس»: زحف العسكر إلى القوم، إذا مشوا إليهم للنقل في شركتهم. منه».

(٤) في (ع) و(ك): «أعرق»، والمثبت من باقي النسخ، وكلاهما في نسخ «البيضاوي» و«الكشاف»، وزيد في «البيضاوي» ثالث وهو: (أغرب). قال الشهاب: (أعرف في القدرة)؛ أي: أعظم ما تعرف به القدرة الإلهية، وفي نسخة: (أغرب) من الغرابة، وفي أخرى: (أعرق) من العراقة، وهي الأصالة =

بالقدرة، وهو الماشي بغير آلةِ مشي، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربعٍ.

وفيه نظرٌ؛ لأن مبناهُ الغفولُ عن أنَّ المشي في الأول مستعارٌ للزحف.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ كيف يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

***

(٤٦) ـ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبُّر لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دينُ الإسلام الذي يُوصِل إلى جنته، والآياتُ لإلزام حجته.

لمَّا ذَكر إنزال الآيات ذَكر بعدها افتراقَ الناس إلى ثلاث فرق:

فرقة صدَّقت ظاهراً وكذَّبت باطناً وهم المنافقون.

وفرقة صدَّقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون.

وفرقة كذَّبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون، على هذا الترتيب، فبدأ بالمنافقين فقال:

(٤٧) ـ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

= لمشيه بغير آلة.

أما «الكشاف» ففي مطبوعه: (أعرق) بالقاف، ومثله عند النسفي، وعند الطيبي: (أعرف) بالفاء. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٤٧)، و«فتوح الغيب» (١١/ ١٢٠)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٥١٢)، و«حاشية الشهاب» (٦/ ٣٩٣).

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ بألسنتهم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله والرسولَ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: يُعرِض عنهما، فإن الإعراضَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام بعدم إطاعته في أوامره إعراضٌ عنه تعالى ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: بعد قولهم هذا.

وفائدةُ (ثم) الاستبعاد؛ إظهاراً لقُبح صنيعهم.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة إلى القائلين بأسرهم، فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم يؤمنوا بقلوبهم؛ لاشتراكهم في فساد الاعتقاد وظهور الإعراض، وإن كان من بعضهم فالرضا به من كلِّهم.

أو إلى الفريق المذكور خاصةً، وإنما أتى بالواو دون الفاء؛ لأن عدم إيمانهم ليس لتولِّيهم، بل الأمر بالعكس، والتعريف للدلالة على أنَّهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرَفْتَهم[1]، وهم المخلصون في الإيمان أو الثابتون[2] عليه.

ومرجعُ العهد إلى وصف الإيمان الخالص، ولِـمَا فيه من التنصيص على نفي ذلك الوصفِ عنهم لم يقل: وما أولئك من المؤمنين؛ لِـمَا فيه من احتمالِ أن يرجع العهد إلى الموصوفين به؛ إذ لا يلزم من عدم كونهم من المعروفين بذلك الوصفِ أن لا يكون موصوفاً به أصلاً.

***

(٤٨) ـ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الدعوة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وذِكْرُ الله

(١) في هامش (ف): «يعني أن التعريف للعهد لا للجنس لأنهم من جنس المؤمنين. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «والثابتون».

تمهيدٌ لتعظيم دعوته وإظهارِ مكانته، وليس هذا طريقةَ الإبدال[1].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليَحكم الرسولُ عليه الصلاة والسلام؛ لأنه الحاكم ظاهراً، وإنما لم يقل: ليَحكم عليهم، إشعاراً بأن إعراضَهم غيرُ مخصوصٍ بصورة الظَّنِّ بالحكم عليهم، بل شاملٌ لصورة الشَّكِّ، فشأنهم الإعراضُ فيما إذا اشتَبه الأمر حالاً وإن كان الحكم لهم مآلاً.

ومَن غَفَلَ عن هذا الاعتبار اللطيفِ قال في تفسير[2] قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾: فأجأ فريقٌ منهم الإعراضَ إذا كان الحقُّ عليهم؛ لعلمهم بأنك لا تَحكُم لهم، وهو شرح للتولِّي ومبالغةٌ فيه.

ولم يَدْرِ أن شرحَه على وجه أبلغَ فيما ذكرناه لا فيما ذكره.

***

(٤٩) ـ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الحكم في اعتقادهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ طلباً لحقِّهم لا رضًى بحُكم رسولهم، قال الزجَّاج: الإذعانُ: الإسراعُ مع الطاعة، فباعتبار ما في الإسراع من معنى الإتيان يجوز أن يكون (إلى) صلةً لـ ﴿مُذْعِنِينَ﴾، ويكون تقديمه للاختصاص ومحافظةِ الفواصل.

***

(١) نُسب الإبدال للزمخشري لقوله: (معنى ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إلى رسول الله، كقولك: أعجبني زيد وكرمه، تريد: كرم زيد). فتوهموا من إسقاط المعطوف عليه في التفسير أنّ المعطوف هو المقصود بالنسبة، وهذا شأن البدل، وما نحن فيه طريقة أخرى، فاعترض عليه... انظر بحث المسألة في «حاشية الشهاب» (٦/ ٣٩٤).

(٢) في (م): «تفسيره». والمراد من الكلام البيضاوي.

(٥٠) ـ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ﴾ الحَيْفُ: الجَور بنَقْصِ الحقِّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

إنما قدَّم صلةَ الحيف على قوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾؛ إظهاراً بأنه على تقدير وقوعِه يكون من الله ـ تعالى شأنه عمَّا يقولُ الظالمون ـ ولا يكون فيه دَخْل للرسول؛ لأنه مُظهِر لا مُثبِت.

قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا[1] لم يعتقدوا أن الحُكم لهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين بأن رأوا منك تُهَمةً فزالت ثقتُهم ويقينُهم بك، أو خائفينَ الحيفَ في قضائه.

ووجهُ التقسيم: أن امتناعهم إمَّا لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محقَّقاً عندهم أو متوقَّعاً، وكلاهما باطل؛ لأن منصب نبوَّته وفَرْطَ أمانته يَمنعه، فتعيَّن الأول، فلذلك أضرب بقوله:

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ عن القسمين الآخرين لتحقيق[2] القسم الأول.

وظلمُهم يعمُّ خَلَلَ عقيدتهم، وميلَ نفوسهم إلى الحيف، يريدون أن يَظلموا مَن له الحقُّ عليهم، وذلك شيءٌ لا يستطيعونه في مجلس رسولِ الله ﷺ، فمِن ثَمَّ يَأْبون المحاكمة إليه، هذا ما أدَّى إليه النظرُ الجليل.

(١) في (ف): «إن».

(٢) في (ع) و(م): «لتحقق».

والذي أدَّى إليه النظرُ الدقيقُ: هو أنه إضرابٌ عن نفس التقسيم، يعني: دَعِ التقسيمَ فإنَّهم هم الكاملون في الظُّلم الجامعون لتلك الأوصاف[١] على الكمال، فلذلك صدُّوا عن حكومتك، يدلُّ على ذلك اسمُ الإشارة، والتعريفُ بلام الجنس، وتوسيطُ ضميرِ الفصل، والفصلُ لنفي ذلك عن غيرهم، سيَّما المدعوُّ إلى حكمه.

نزلت في بشرٍ المنافقِ وخصمِه اليهوديِّ حين اختصما في الأرض، فجعل اليهوديُّ يجرُّه إلى رسولِ الله ﷺ والمنافقُ إلى كعبِ بنِ الأَشرف، ويقول: إنَّ محمداً يَحيفُ علينا[٢].

* * *

(٥١) ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على عادته تعالى في اتِّباع ذكر المحقِّ المُبطِلِ والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكارِه لِما لا ينبغي.

قرئ ﴿قول﴾ بالرفع والنصب[٣]، والنصب أقوى؛ لأنَّ أَولى الاسمين بكونه اسماً لـ ﴿كَانَ﴾ أَوغلُهما في التعريف.

---

(١) في (ف): «الصفات».

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٢٧)، و«الكشاف» (٣/ ٢٤٨). ورواه الطبري في «التفسير» (٧/ ١٩٣ ـ ١٩٤) عن مجاهد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠]، وكذا رواه الواحديُّ في أسباب النزول (ص: ١٦١)، عن قتادة والشعبي، وعن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٣) قرأ الجمهور بالنصب، ونسب الرفع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١٥).

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ الرسولُ، وقرئ على البناء للمفعول[1]، وإسناده إلى ضمير مصدرِه على معنى: ليُفعَل الحكمُ.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ بحُكم الله الذي أُنزل عليه.

﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ قولَه ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾ أمرَه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبِه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: حَلَفَ المنافقون بالله، وهو جهدُ اليمين لأنهم بذلوا فيها مجهودَهم، وجَهَدَ يمينَه مستعارٌ من: جَهَدَ نفسَه، إذا بلغ أقصى وُسْعها، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غايةَ شدَّتها ووكادتها، وأصل: أَقْسَم جهدَ اليمين، أَقسم يَجْهدُ[2] اليمينَ جَهْداً، فحذف الفعل، وقدِّم المصدر فوضع موضعَه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وحُكم هذا المنصوب حُكم الحالِ، كأنَّه قال: جاهدين أيمانَهم.

---

(١) أي: ﴿لِيُحْكَمَ﴾، وقرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٢) في (م): «جهد»، وفي (ع) و(ك) و(ي): «بجهد»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٢٥٠).

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالخروج عن ديارِهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جوابُ لـ ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ على الحكاية.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ على الكذب.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام خيرٌ مِن قَسَمِكم الذي لا تَصدُقون فيه ولا تُصدَّقون، أو: الذي يُطلَب منكم طاعةٌ معروفة لا اليمينُ للطاعة النفاقيَّة المُنكَرة، أو: ليكن طاعةٌ، وقرئت بالنصب(١)، على أطيعوا طاعةً.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يَعلم ما في ضمائرِكم، ولا يخفى عليه شيءٌ من سرائركم.

***

(٥٤) ـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمرٌ بتبليغ ما خاطبَهم اللهُ تعالى به على الحكاية مبالغةً في تبكيتهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في أمره ونهيه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحقِّ.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدَّى، وإنما بقي ما حُمِّلتُم؛ فإن أدَّيتم فلكم، وإلَّا فعليكم.

---

(١) نسبت لليزيدي. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣).

البلاغ بمعنى التبليغ، كالأداء بمعنى التأدية، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾: الظاهر؛ لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات، ثم ذكر المُخلصين، فقال:

(٥٥) ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطاب للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والأمَّة، أو له ولمن معه، و(مِن) للبيان.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ليجعلنَّهم خَلَفاً متصرِّفين في الأرض تصرُّف الملوك في ممالكهم، وهو جواب قَسَمٍ مُضمَر، تقديره: وَعَدهم اللهُ وأقسم ليستخلفنهم[1]، أو الوعدُ في تحقُّقه منزَّلٌ منزلةَ القَسَم.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: بني إسرائيل في مصر والشام بعد الجبابرة.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ منهم، لغلَبتهم عليهم، كان رسولُ الله عليه السلام وأصحابُه رضي الله عنهم مَكَثوا بمكَّة عَشْرَ سنينَ خائفينَ، ثم هاجروا إلى المدينة، فكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه، حتى أنجز اللهُ تعالى وعدَه، فأَظهرهم اللهُ على العرب كلِّهم وفتح عليهم بلادَ الشرق والغرب[2].

---

(١) في (ف) و(ك): «وعدهم وأقسم».

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٣٤٨) عن أبي العالية، وانظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٢١).

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حالٌ من ﴿الَّذِينَ﴾ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حالٌ من (الواو)؛ أي: يعبدونني غيرَ مشركين، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحالِ الأولى.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ومَن ارتدَّ أو كفر هذه النعمةَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعد الوعد، أو بعد حصول الخلافة.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: الكاملون في فسقهم، حيث كفروا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا بتلك النعمةِ العظيمة.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سائر التكاليف الشرعيَّة بالأوامر والنواهي.

ولا يَبعد عطف ذلك على ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فإنَّ الفاصلَ وعدٌ على المأمورِ به، فيكون تكريرُ الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وتعليق الرحمة به أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علَّق به الهدى.

* * *

(٥٧) ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾؛ أي: فائتيـنَ اللهَ تعالـى، بأنْ لا يَقدر عليهـم فيهـا، فالتاء خطـابٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسـلام وهو الفاعـل، والمفعولان ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾.

وقرئ بالياء[١]، والفاعل النبيُّ عليه الصلاة والسلام؛ لتقدُّم ذِكْره، والمفعولان ما ذكر آنفاً.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى، كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزينَ ومأواهم النارُ؛ لأن المقصودَ من النهي عن الحُسْبان تحقيقُ نفي الإعجاز.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: المأوى الذي تصيرون إليه.

***

(٥٨) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوعٌ إلى تتمَّة الأحكام السالفة بعد الفراغِ عن الآيات الدالَّة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيره، والوعدِ عليها، والوعيدِ على الإعراض عنها، والمراد به خطابُ الرجال والنساء، غلِّب فيه الرجالُ؛ لما روي: أنَّ غلامَ أسماء بنتِ أبي مَرْثَد دخل عليها في وقت كَرِهَتْهُ، فنزلت[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾: والصبيانُ الذين لم يَبلغوا، فكنَّى عن البلوغ إلى حدِّ الرجوليَّة ببلوغ الحُلُم؛ أي: الاحتلام؛ لأنه أقوى دلائله.

﴿مِنكُمْ﴾: من الأحرار ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليوم والليلة:

---

(١) قرأ بها ابن عامر وحمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٢٩) عن مقاتل.

﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقتُ القيام من المضاجع وطَرْحِ ما يُنام فيه من الثياب ولُبْسِ ثياب اليقظة، ومحلُّه النصبُ بدلاً من ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أو الرفعُ خبراً لمحذوف؛ أي: هي من قبلِ صلاة الفجر.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيانٌ للحينِ، وهي نصفُ النهار في القَيْظ؛ فإنها وضعُ الثياب للقيلولة.

﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ لأنـه وقـت التجـرُّد مـن ثيـاب اليقظـة، والالتحـافِ بثيـاب النوم.

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡ﴾؛ أي: هذه الثلاثُ أوقاتٌ يختلُّ فيها تستُّركم[1]، ويجوز أن يكون مبتدأً وما بعده خبره، وقرئ بالنصب[2] بدلاً عن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾.

وأصلُ العورةِ: الخللُ، ومنها الأعور: المختلُّ العين، دخل غلامٌ من الأنصار على عمرَ رضي الله عنه وقتَ الظهيرة وهو نائم وقد انكشفَ عنه ثوبُه، فقال عمرُ رضي الله عنه: وَدِدتُ أنَّ اللهَ تعالى نَهَى عن الدُّخول في هذه الساعات إلَّا بإذنٍ، فانطلق إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد نزلت عليه الآية[3].

ثم عَذَرهم في ترك الاستئذان وراءَ هذه المرَّات بقوله:

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ﴾ وإنما نفى الحرجَ عن الطرفين؛ لأنَّ الحرمةَ في

---

(١) في (م): «ستركم».

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن منده كما في «الإصابة» لابن حجر (٦/ ٥٠)، من طريق السديّ الصغير، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وقت الحرمة مِن الطرفين، ومن هنا تبيَّن أنَّ الأمر[١] بالاستئذان في حقِّ المماليك والصبيان تضمَّن الأمرَ بالاحتياط في حقِّ المخاطَبين.

﴿بَعْدَهُنَّ﴾ بعدَ هذه الأوقاتِ في تَرْكِ الاستئذان، وليس فيه ما ينافي آيَةَ الاستئذان فيَنسَخَها؛ لأنه في الصبيان والمماليك المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين ومماليك الغير.

وأمَّا ما قيل: هذا ممَّا الناسُ منه في غفلةٍ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة، فمنشؤه الغفلةُ عمَّا حكاه المهدويُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما من أنَّ ذلك كان واجباً، إذ كانوا لا غَلَقَ لهم ولا أبواب[٢]، ولو عاد الحال لعاد الوجوب[٣].

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾: هم طوَّافون، استئنافٌ ببيان العذر المرخِّص في ترك الاستئذان، وهو شدَّة المخالطة وكثرةُ المداخلة، وفيه وفي الفرق بين الأوقاتِ الثلاثة وغيرِها بأنَّها عوراتٌ دليلٌ على تعليل الأحكام.

﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بعضكم طائفٌ على بعضٍ، أو: يطوف بعضُكم على بعض، والجملة مؤكِّدة لِمَا قبلها، ويجوز أن يكون بدلاً منه، يعني: لا بدَّ لهم من ذلك للخدمة، فلو جزم بالاستئذان في كلِّ وقت لأفضى إلى الحرج.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أراد بالآياتِ عللَ الأحكام،

---

(١) في (ف) و(ك): «المراد».

(٢) رواه أبو داود (٥١٩٢).

(٣) في هامش (ف) و(م): «قال القرطبي: بل حكمها اليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى. منه». وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٢٩).

يعني[1]: كما يبيِّنُ لكم علَّة الاستئذان يبيِّنُ العللَ في غيره من الأحكام التعليلية عند الحاجة إليه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عبادِه ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مرادِه.

***

(٥٩) ـ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ من الأحرار دون المماليك ﴿ٱلْحُلُمَ﴾: الاحتلامَ، كناية عن بلوغهم حدَّ الرجوليَّة؛ أي: إذا بلغوا وأرادوا الدخولَ عليكم.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: الذين بلغوا الحُلُم مِن قبلهم، وهم الكبار من الأحرار، والذين ذُكروا مِن قبلهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية، والمعنى: أن الأطفال مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذنٍ إلَّا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفالُ ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسِّنِّ، وجب أن يُفطَموا عن تلك العادة، ويُحمَلوا على أن يَستأذنوا في جميع الأوقات كالكبار من الأحرار الذين لم يَعتادوا الدخولَ عليكم إلا بالإذن.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرَّره تأكيداً ومبالغةً في الأمر بالاستئذان.

***

(١) «يعني» سقط من (م).

(٦٠) ـ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: العجائزُ اللاتي قعدنَ عن الحيض والحمل لكِبَرهنَّ؛ فقعودُهنَّ[١] كنايةٌ عن اليَأْس عن التماسِ الناس[٢]، فالتوصيف بقوله: ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: لا يَطمعن فيه، لتقرير هذا المعنى وتأكيده.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾: إِثْمٌ، ودخلت الفاء لما في المبتدأ مِن معنى الشرط بسبب اللام[٣].

﴿أَن يَضَعْنَ﴾: في أن يضعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الظاهرةَ كالمِلْحَفة والجلباب الذي فوق الخمار.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: غيرَ مُظهِراتٍ زينةً، يريد الزينة التي أَمَر بإخفائها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الآية، أي: لا يَقصدن بوضعها التبرُّجَ ولكن التخفُّف، وحقيقة التبرُّج: التكلُّف في إظهار ما يَخفَى، من قولهم: سفينة[٤] بارِجَة: لا غطاءَ عليها، إلَّا أنَّ الذي خُصَّ بتكشيف المرأة زينتُها ومحاسنُها للرجال.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾؛ أي: يَطلبنَ العفَّة عن وضع الثياب فيسترن ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها؛ لأنه أبعدُ من التُّهمة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهنَّ للرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهنَّ.

---

(١) في (ف) و(ي): «قعودهن».

(٢) في (ف) و(ك): «عن اليأس عن الناس»، وفي (ي): «عن التماس الناس»، والمثبت من (م) و(ع).

(٣) يعني: «ال» التي في «القواعد»؛ أي: الفاء إما لأن (ال) موصولة بمعنى اللاتي، وإما لأنها موصوفة بالموصول. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٤٧٤).

(٤) في (ف): «سقيفة».

(٦١) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال سعيد بنُ المسيِّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبيِّ ﷺ وَضَعوا مفاتيحَ بيوتِهم عند الأعمى والأعرج والمريض، وعند أقارِبهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرَّجون عن ذلك، ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسُهم بذلك طيِّبَةً، فنزلت الآيةُ رخصةً له[1].

﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ هذا على ظاهره، ولم يُرَدْ به بيانُ الحكم فيه، بل إظهارُ التسويةِ بينه وبين قرنائه، كقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦].

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ لم يذكر بيوتَ الأولاد؛ إحالةً لحالها على الدلالة.

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٠)، وروى نحوه البزار (٢٢٤١ ـ كشف) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٤).

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ لأنَّ الإذنَ مِن هؤلاء ثابتٌ دلالةً.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع: مِفْتَحٍ، وهو ما يُفتَح به الغلق، وأُريد بملكه: كونه في يده وحفظِه، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هو وكيلُ الرجل وقيِّمه في ضيعته وماشيته[١]، له أن يَأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبنِ ماشيته[٢].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾: أو بيوتِ صديقكم، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، وكان الرجل من السَّلَف يَدخل دارَ صديقه وهو غائبٌ، ويسأل جاريته كيسَهُ، فيأخذ ما شاء، فإذا حَضَرَ مولاها أَعتقها سروراً بذلك، فأمَّا الآن فقد غَلب الشُّحُّ على الناس فلا يوجد صديق حكمُه هذا، لا أنه يوجد ويتخلَّف عنه الحُكم بغَلَبة الشُّحِّ[٣]، وكأنْ لنُّدرة وجودِه عَدَل فيه عن صيغة الجمع.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾: مجتمعينَ، وَرَدَ فيمن تحرَّجوا من الاجتماعِ على الطعام؛ لاختلافِ الناس في الأكل، وزيادةِ بعضهم على بعض.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾: متفرِّقين، جمع: شَتٍّ، ورد فيمَن تحرَّجوا عن الأكل وحده.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلِها الذين هم منكم ديناً وقرابةً، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ أي: مَن هو مِن جنسكم.

---

(١) في (م): «ومشيئته».

(٢) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٤/ ١٢٤). ورواه بنحوه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٨).

(٣) في هامش (ف) و(ك): «ردٌّ لصاحب المدارك في قوله: فأما الآن فقد غلب الشُّحُّ على الناس، فلا يؤكل إلا بإذن».

﴿تَحِيَّةً﴾ نصبٌ بـ (سلِّموا)؛ لأنه في معنى: تسليماً، نحو: قعدتُ جلوساً.

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: ثابتةً بأمره، مشروعةً من لدنه، ويجوز أن يكون صلةً للتحية، فإنَّها طلبُ الحياة وهي مِن عنده.

﴿مُبَـٰرَكَةً﴾ لأنها دعوةُ مؤمنٍ لمؤمنٍ بأمر الله تعالى يُرجى بها زيادة الخير والثواب.

﴿طَيِّبَةً﴾ تَطيبُ بها نفسُ المستمِعِ، وفي حديث أنس رضي الله عنه: قال عليه الصلاة والسلام: «مَتى[1] لقيتَ مِن أمَّتي أحداً فسلِّم عليه يَطُلْ عمرُك، وإذا دخلتَ بيتَك فسلِّم عليهم يَكثرْ خيرُ بيتك، وصَلِّ صلاةَ الضحى فإنها صلاةُ الأبرارِ الأوَّابينَ»[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كرَّره ثالثاً لمزيد التأكيد، وتتميمِ الأحكام المختتَمة به، وفصلَ الأولَينِ بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: الحقَّ والخيرَ في الأمور.

***

(٦٢) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في (ف) و(م): «من».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٨٣)، وإسناده ضعيف، وأصل الحديث في الصحيح كما ذكر ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٠).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مِن صميم قلوبهم.

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورةِ في الأمور، ووُصِف الأمرُ بالجمع على سبيل المجاز للمبالغة.

﴿لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾؛ أي: ويَأذنَ لهم، ولمَّا أراد أن يُريَهم عِظَم الجناية في الذهاب عن مجلسه عليه الصلاة والسلام إذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ، جعل تركَ الذهابِ بلا إذنٍ ثالثَ الإيمان[1] بالله تعالى، والإيمانِ برسوله عليه الصلاة والسلام، وجعلهما كالتمهيد لذكره، ثم عقَّبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوبٍ آخر أبلغ فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وضمَّنه شيئاً آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحَّة الإيمانين، وعرَّض بحال المنافقين وتسلُّلهم لواذاً.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ في الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يَعرِض لهم من الهامِّ[2]، وفيه أيضاً مبالغةٌ وتضييق للأمر.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفعُ شأنه عليه الصلاة والسلام بتفويض الأمر إلى رأيه، ففيه دلالةٌ على أن بعض الأحكام مفوَّض إلى رأيه.

وتقييدُ المشيئة بأن تكون تابعةً لعلمهِ بصدقهِ حتى يكون المعنى: فَأْذَن لمن عَلمت أن له عذراً = تعسُّف ظاهر.

---

(١) «الإيمان»: مكررة في (ف).

(٢) في (ف): «من الإلهام»، وفي (م): «من المهام».

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن، فإن الاستئذان ولو لعذرٍ قصورٌ؛ لأنه تقديمٌ لأمرِ الدنيا على أمرِ الدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطات العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

* * *

(٦٣) ـ ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ نهيٌ عن التسوية بين الدعاءين، والمقصود النهيُ عن لوازمها كجواز[1] الإعراض، والمساهلةِ في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وذلك لأنَّ المبادرة إلى إجابته واجبةٌ، والمراجعةَ بغير إذنه محرَّمة.

وحملُ الدعاء على النداء والتسمية، أو على الدعاء عليه[2]، لا يناسب السباق واللحاق، والفصل بين أجزاء الكلام بالأجنبيِّ من المساق يُخِلُّ بمقتضى البلاغة وحُسْن الاتِّساق.

﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ﴾: يخرجون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظير تسلَّل: تدرَّج وتَدخَّل.

---

(١) في (ع): «بجواز».

(٢) أي: لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه، ورفعِ الصوت به، والنداء من وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظم مثل: يا نبي الله، و: يا رسول الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو: لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه، فإن دعاءه مستجاب. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١١٦).

﴿لِوَاذًا﴾: ملاوذةً، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمَن يُؤذَن له فينطلق معه كأنه تابِعُه، وانتصابه على الحال؛ أي: ملاوِذِين.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يخالفون أمرَه بترك مقتضاه، و(عن) لتضمُّنه معنى الإعراض، أو: يصدُّون عن أمره دون المؤمنين، والضميرُ لله؛ لأن الأمرَ في الحقيقة له، أو للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المقصود بالذِّكر.

ومفعول (يحذر): ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: محنةٌ في الدنيا.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، و(أو) لمنع الخلوِّ، فلا ينافي الجمع، والآية تدلُّ على أن الأمر للإيجاب.

* * *

(٦٤) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أدخل ﴿قَدْ﴾ عليه؛ ليؤكِّد علمَه بما هو عليه من المخالفة عن الدِّين والنِّفاق، ومرجع توكيد العِلم إلى توكيد الوعيد، والمعنى: إن جميع ما في السماوات والأرض مختصَّةٌ به خَلْقاً ومُلْكاً وعِلْماً، فكيف يخفى عليه أحوالُ المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سَترها؟!

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء؛ أي: ويَعلم يوم يُرَدُّون إلى جزائه، وهو يوم القيامة.

والخطاب في الكلامين المذكورين يجوز أن يكون جميعاً للمنافقين على

طريقـة الالتفات[1]، ويجـوز أن يكـون الأوَّل عاماً، والثانـي خاصاً بهم.

﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾: بما أَبطنوا من سُوء أعمالهم، ويجازيهم حقَّ جزائهم.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فلا تَخفى عليه خافيةٌ.

* * *

(١) في (م): «الاكتفاء». والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب، قال الآلوسي: فيتحقق التفاتان: التفات من الغيبة إلى الخطاب في ﴿أَنتُمْ﴾، والتفات من الخطاب إلى الغيبة في ﴿يُرْجَعُونَ﴾. انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٥٠٠).

سُورَةُ الفُرۡقَانِ

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: تزايدَ خيرُه وتكاثرَ، أو: تزايدَ عن كلِّ شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، وهي كلمةُ تعظيمٍ لم تُستعمل إلَّا لله وحده، والمستعملُ منه الماضي فحَسْب، وترتيبه على إنزال الفرقان لِـمَا فيه من كثرة الخير.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ مرَّ تفسيره في سورة آل عمران.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وقرئ: (على عباده)(١)، وهم رسولُ الله ﷺ وأُمَّتُه، أو المرسلون بالكتب السماوية؛ على أن الفرقانَ اسمُ جنسٍ.

﴿لِيَكُونَ﴾ العبدُ أو الفرقانُ ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: للثَّقَلين ﴿نَذِيرًا﴾: مُنذِراً، أو: إنذاراً؛ كالنَّكير بمعنى الإنكار.

وهذه الجملة معلومةٌ للرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يَلزم أن تكون الصلةُ معلومةً لكلِّ أحدٍ(٢).

---

(١) نسبت لعبد الله بن الزبير. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١٧).

(٢) رد على البيضاوي في قوله: (هذه الجملة وإن لم تكن معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم وجعلت صلة). قال الشهاب: هذا بناء على أنّ جملة الصلة لا بد أن تكون معلومة قبل =

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ رفعٌ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو على الإبدال من ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ أو على المدح، أو نصب عليه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على الخلوص(١).

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهودُ والنصارى ومشركو العرب في العُزَيْر والمسيح ـ عليه السلام ـ والملائكةِ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زَعَمت الثَّنَويَّة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لا كما قالت المجوس: إنَّه تعالى لم يَخلُق الظُّلمة، ولا كما قالت المعتزلة: إنَّه تعالى غيرُ خالقٍ لأفعال العباد.

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قدَّر كلَّ شيءٍ تقديراً يُوافق الحكمةَ فخلقه، والقلبُ لمحافظة الفاصلة.

* * *

= التكلم بها؛ لأنّ تعريف الموصول بما في الصلة من العهد، وفي شرح التسهيل أنه غير لازم وأنّ تعريف الموصول كتعريف الألف واللام يكون للعهد والجنس وأنه قد تكون صلتة مبهمة للتعظيم... وعلى تقدير تسليمه فهذه الجملة معلومة للرسول ﷺ وهو المخاطب بها كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ولا يلزم أن تكون معلومة لكل أحد، وما اختاره المصنف رحمه الله من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسِبةً للرد على مَن أنكر التوحيد والنبوّة). انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤٠٦).

(١) في (ف): «الخصوص».

(٣) ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ الضمير للكافرين؛ لدلالة ﴿نَذِيرًا﴾ عليهم.

﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لمَّا تضَّمن الكلامُ إثباتَ التوحيد والنبوَّة، أَخذَ في الرَّدِّ على المخالفين فيها:

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وصف آلهتهم بما يدلُّ على أنَّها لا تَستحقُّ العبادةَ؛ أي: لا يَقدرون على الخَلْق ومع ذلك هم مخلوقون، وإنَّما قال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ إظهاراً لتجدُّد حدوثها، وفيه وجهٌ آخرُ لعدم استحقاقها العبادة.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مِلْكُهما كنايةٌ عن القُدرة على التصرُّف فيهما بالدَّفْع والجَلْب، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مضاف، وتقديم الضَّرِّ لأنَّ دفعَه أهمُّ من جَلْب النفع، وإنَّما قال: ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ إظهاراً لغاية عجزهم، فإنَّ مَن لا يقدر على ذلك في حقِّ نفسِه لا يَقدر عليه في حقِّ غيره، بدون العكس.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ قدَّمه على الحياة على عكس ترتيب الوجود؛ لتقديم الضَّرِّ على النفع.

﴿وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أراد به الإحياءَ بعد الموت؛ أي: إنَّهم بمعزلٍ عن الألوهية؛ لعرائهم عن لوازمها واتِّصافهم بما ينافيها، وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها.

* * *

(٤) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾: ما هذا القرآنُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾: كَذِبٌ مصروفٌ عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: اختلَقه، يعني: محمداً عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: اليهودُ، فإنَّهم يُلقون إليه أخبارَ الأمم وأحوالَ الآخرة، وهو يعبِّر عنه بعبارته.

﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ جاء يُستعمل في معنى فَعَل فيُعدَّى[1] تعديتَه، وأمَّا حذف الجارِّ وإيصالُ الفعل فلا بُدَّ فيه من السماع.

﴿ظُلْمًا﴾ بجَعْل الكلامِ المعجزِ إفكاً مُختلَقاً مُتلقَّفاً من اليهود.

﴿وَزُورًا﴾ بنسبةِ ما هو بريءٌ منه إليه، والزُّور: القولُ المائلُ عن القصد.

***

(٥) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ما سطَّره المتقدِّمون، وقد مَرَّ بيانُ الأساطير.

﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ أي: كَتَبها بنفسه، أو: اسْتكْتَبَها.

وقرئ على البناء للمفعول[2]؛ لأنه أُمِّيٌّ، وأصله: اكتَتَبها كاتبٌ له، فحُذف اللام وأفضَى الفعلُ إلى الضمير، فصار: اكتَتَبها إيَّاه كاتبٌ، ثم حُذف الفاعل وبُني الفعل للضمير، فاستَتَر فيه.

﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقَى عليه من كتابه ليَحفَظَها، فإنَّه أُمِّيٌّ لا يَقدر أن يَكرِّر من الكتاب.

---

(١) في (ي): «فيتعدى».

(٢) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١٧).

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ البُكْرةُ: أوَّلُ النهار، والمراد من الأصيل آخرُه؛ بقرينة المقابَلة.

***

(٦) ـ ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والسِّرُّ: إخفاءُ المعنى في القلب، والمراد: ما في السماوات والأرض مِن خفايا الأحوال[1]، يعني أنَّ في القرآن إخباراً عمَّا لا يَعلمه إلَّا اللهُ تعالى من الجنَّة والنار وما فيهما، ولا تعرُّض لهما في التوراة والإنجيل، ولو كان مأخوذاً من اليهود أو النصارى لم يَزد على ما فيها، وأيضاً فيه إخبارٌ عن الحوادث السماويَّة والأرضيَّة قبل حدوثها، وليس فيها احتمال الأخذ من كتب المتقدِّمين.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا﴾ ساتراً للذُّنوب ومؤخِّراً للانتقام ﴿رَّحِيمٗا﴾ بالإمهالِ وعدمِ الاستعجال وإدرارِ الإنعام؛ ليتوب بعضهم ويرجعَ عن الإصرار، ويَخرج من أصلاب المصِّرين أصحابُ الاعتبار والاختبار، وزيادة ﴿كَانَ﴾ لإفادة الدلالة على العادة.

***

(٧) ـ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

﴿وَقَالُواْ مَالِ﴾ وقعت اللامُ في المصحف مفصولةً عن الهاء، وخَطُّ المصحفِ سُنَّةٌ لا يغيَّر ﴿هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾: ما لهذا الذي يَزعم أنَّه رسولٌ، وفيه استهانة وتهكُّم.

---

(١) في (ك): «الأصول». وفي (ف): «الأصل».

﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حالٌ، والعامل فيها ﴿هَٰذَا﴾، والجملة الأولى كنايةٌ عن غاية الأكل، ولا يَخفى ما فيها من تقبيح الحال الذي يقتضيه مساقُ الكلام، والثانية كنايةٌ عن الغرض من المشي في الأسواق، وهو طَلَب أسبابِ المعاش؛ أي: إن صحَّ أنَّه رسول المَلِك المتعال، فما بالُهُ يَفعل هذه الأفعالَ؟! يَعنون أنه كان يجب أن يكون مَلَكاً بريئاً عن لوازم البشريَّة.

ثم تنزَّلوا عن ذلك الاقتراح[1] إلى اقتراحِ أن يكون إنساناً معه مَلَكٌ حتى يتسانَدا في الإنذار، بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

***

(٨) ـ ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾.

ثم تنزَّلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنزٍ يُلقى إليه من السماء يَستظهِر به ولا يَحتاج إلى تحصيل المعاش فقالوا: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾.

ثم تنزَّلوا فقالوا: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾؛ أي: إن لم يُلقَ إليه كنزٌ فلا أقلَّ أن يكون له بستانٌ كما للدَّهَاقين والمياسير، فيعيشَ برَيْعه، وحسَّن عطفَ المضارع ـ وهو ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾ و﴿تَكُونُ﴾ ـ على ﴿أُنزِلَ﴾ وهو ماضٍ دخولُ المضارع وهو ﴿فَيَكُونَ﴾ بينهما، وانتصب ﴿فَيَكُونَ﴾ لأنه جواب ﴿لَوۡلَآ﴾ بمعنى: هلَّا، وحكمُه حكم الاستفهام.

وأراد بالظالمين في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إيَّاهم بأعيانهم، غيرَ أنَّه وضع موضعَ المضمَر تسجيلاً عليهم بالظلم.

---

(١) في (ع): «الاقتران» وكذا في الموضع الآتي.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سُحِرَ فغُلِب على عقله، فيخيَّل إليه الشيطانُ مَلَكاً، وكلامُه وحياً.

* * *

(٩) - ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ ﴾؛ أي: قالوا فيكَ تلك الأقوالَ الغريبةَ واخترعوا لك تلك الأحوالَ النادرة ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن طريق الحقِّ في جميع ذلك.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى طعنٍ موجَّهٍ[١]، فيتهافتون ويَخبِطون كالمتحيِّر في أمره لا يَدري ما يَصنع، فلا يَجدون سبيلَ هداية ولا يُطيقونه؛ لالتباسه عليهم.

* * *

(١٠) - ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: تكاثَرَ خيرُ الذي إن شَاء[٢] وَهَبَ لك في الدنيا خيراً ممَّا قالوا، ولكن أخَّره إلى الآخرة لأنه خيرٌ وأبقى، وقوله:

﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بدلٌ من ﴿خَيْرًا﴾.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ عطفٌ على محلِّ الجزاء، وقرئ بالرفع[٣]؛ لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزمُ والرفعُ، ويجوز أن يكون استئنافاً بوعدِ ما

---

(١) في (ك): «بوجه».

(٢) في (ف) و(م): «يشأ».

(٣) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وشعبة، وقرأ الباقون بالجزم. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣).

يكـون لـه في الآخـرة، وقـرئ بالنصـب[١] على أنه جـوابُ الشـرط بالواو.

***

(١١) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ عطف على ما حُكيَ عنهم، يقول[٢]: بل أَتوا بأعجبَ من ذلك كلِّه وهو تكذيبُهم بالساعة، أو متَّصل بما يليه؛ كأنه قال: بل كذَّبوا بالساعة، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يُصدِّقون بتعجيلِ مثلِ ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟!.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾: وهيَّأنا للمكذِّبين بها ناراً شديدةَ الإسعار، والإسعار: تهييج النار بشدَّة الإيقاد.

***

(١٢) ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾: إذا قابَلَتْهم وصارت منهم بقَدْرِ ما يرى منهم الرائي، كقولهم: دُورُهُم تَتَراءَى؛ أي: تتناظر وتتقابل بحيث تكون إحداهما بمرأًى من الآخرى، على المجاز، والتأنيث لأنه بمعنى النار أو جهنَّم.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أَقصى ما يُمكن أن يرى منه.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾: صوتَ تغيُّظٍ، شبَّه صوتَ غليانها بصوت المغتاظ[٣] وزفيرِه، وهو صوتٌ يُسمَع من جوفه، هذا ما يتراءى في بادئ النظر.

---

(١) نسبت لعبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان. انظر: «المحتسب» (٢/ ١١٧).

(٢) في (ف) و(ك) (م): «بقول».

(٣) في هامش (ي): «المغتاظ؛ أي: الممتلئ غضباً».

والذي يظهر عند التأمُّل: هو أنه تمثيلٌ[1] من قَبيل المجاز التمثيلي الشائع في كلام الله تعالى، شبِّهت النار بمَن له تلك الحال، وذلك في غاية البلاغة، فمفرداتُ الكلام على حالها، وإنما قال: ﴿لَهَا﴾ دون: منها، أو: فيها؛ تنصيصاً على ما يتمُّ به التمثيل، وهو أن يكون التغيُّظ والزفير لها لا لِمَا فيها.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾ بيان تقدَّم فصار حالاً ﴿مَكَانٗا﴾: في مكان ﴿ضَيِّقٗا﴾ لزيادة العذاب، فإنَّ الكربَ مع الضيق، كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعَة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه يضيق عليهم كما يضيَّق الزُّجُّ في الرُّمْحِ[2].

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: قُرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو يُقرَن مع كلِّ كافر شيطانُه في سلسلةٍ، وفي أرجلهم الأصفاد.

﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾: ثَمَّ ﴿ثُبُورٗا﴾: هلاكاً؛ أي: يتمنَّون الهلاكَ وينادونه، فيقولون: واثُبُوراهُ؛ أي: تعالَ يا ثبور فهذا حينُك، فيقال لهم:

(١٤) ـ ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾.

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ إذ هم أحقَّاءُ بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن هناك قولٌ؛ أي: لا تقتصروا على حزنٍ واحد، بل احزنوا حزناً كثيراً، وكثرته إمَّا لدوام العذاب متجدِّداً، وإمَّا لأنه أنواعٌ، وكلُّ نوعٍ منه يكون ثبوراً لشدَّته وفظاعته.

---

(١) «تمثيل» من (ي).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٢).

(١٥) ـ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: وُعدها، فالراجع إلى الموصول محذوفٌ، والمراد من المتقينَ بقرينة المقابلة: مَن يتَّقي أنواع الكفر من الشرك والتكذيب.

والإشارة إلى مكان العذاب وهو النار، وإنما قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ولا خيرَ في النار؛ توبيخاً وتهكُّماً للكفار، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الكنز والجنَّة، وإضافة الجنَّة إلى الخلد للمدح لا[1] للدلالة على خلودها؛ لأنها[2] حاصلةٌ بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ على أعمالهم بالوعد الأزليِّ ﴿وَمَصِيرًا﴾: مرجعاً.

* * *

(١٦) ـ ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾: ما يشاؤونه من أنواع الملاذِّ والمشتهَيات، والمشيئة تتبع العلم، فالتفاوت في درجات أهلِ الجنة وأنواعِ تلذُّذهم بحسب عملهم[3]، وإنَّما ذكر فيها مع عدم الحاجة إليه؛ للتنبيه بتقديمه على أنَّ حصول كلِّ المشتهيات لا يكون إلا في الجنَّة.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ حالٌ من أحد ضمائرهم.

---

(١) «للمدح لا» سقطت من (ف) و(ك)، و«لا» سقطت من (ع).

(٢) في (ع) و(ف) و(ك): «ولأنها».

(٣) في (ف) و(ك)، و(م) و(ي): «علمهم».

والضمير في ﴿كَانَ﴾ لـ ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، و﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ استعيرَ لِمَا في منزلة الوجوب في التأكُّد[1] بقرينة الوعد والسؤال، ومَن وَهَمَ أنه على حقيقته؛ لامتناع الخُلْف في وعده تعالى، ثم قال: ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز؛ لأن تعلُّق الإرادة بالموعود مقدَّم[2] على الوعد الموجِب للإنجاز[3]= فقد وَهِمَ؛ حيث لم يفرِّق بين الوجوبِ على الله والوجوبِ منه، فإن اللازم حينئذٍ هو الأول، والذي صحَّحه ودفع[4] المحذور عنه هو الثاني.

﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾؛ أي: كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب، أو: مسؤولاً سأله الناسُ في دعائهم.

***

(١٧) - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعمُّ كلَّ معبود سواه، و(ما) وضعُه عامٌّ، ولذلك يُطلَق لكلِّ شبحٍ[5] يُرى[6] ولا يُعرَف، أو يُراد به الوصف، أو لتغليب الأصنام لا تحقيراً؛ لأن المغلَّب عليه من الأنبياء والملائكة لا يَليق ذلك بشأنهم، بل اعتباراً لغَلَبة عبَّادهم.

---

(١) في (ع): «التأكد».

(٢) في (م): «يتقدم».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٢٠).

(٤) في (ك): «ووقع».

(٥) في (ع): «شيء».

(٦) في (ف) و(ك) و(م): «رئي».

وإنما قلنا: يعم كُلَّ معبودٍ، إذ لا قرينة للتخصيص لا بالأصنام، وذلك ظاهر، ولا بالملائكة والأنبياء؛ لأن كلَّ شيء يَنطِق يومئذٍ، فلا يكون السؤال والجواب قرينةً.

﴿فَيَقُولُ﴾ للمعبودين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ الإضافة لتعظيم جريمة الإضلال، لا لتشريفهم؛ لأنهم مشركون[1].

﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ بدلٌ من ﴿عِبَادِي﴾، ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المُرشِد النَّصيح، والاستفهام للتقريع والتبكيت للعَبَدة، فلذلك قدَّم الضمير على الفعل إيلاءَ حرفِ[2] الاستفهام للمقصود بالسؤال، وهو الفاعل لا الفعل[3]، وإنَّما حذف صلة (ضلَّ) للمبالغة.

***

(١٨) - ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تعجُّباً ممَّا قيل لهم؛ لأنَّهم إمَّا ملائكة، أو أنبياءُ معصومون، أو جماداتٌ لا تَقدِر على شيء، أو قصدوا به تنزيهَه تعالى عن الأنداد.

﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾؛ أي: ما كان يصحُّ لنا ولا يَستقيم ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ

---

(١) في (م): «لأنهم هم المشركون».

(٢) في (ك) و(م): «طرف»، وفي باقي النسخ: «ظرف»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٢٠)، وفيه: (ليلي حرفَ الاستفهام المقصودُ بالسؤال وهو المتولي للفعل).

(٣) في هامش (ع) و(ف) و(م): «فإن تقديم الفعل يفسد المعنى، ومن غفل عن هذا علَّله بقوله: لأنه محقَّق لا شبهة فيه، ولم يدرِ أن فيه الإشعار بأن في الفاعل الشبهة، ولا يخفى فساده. منه».

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ للعصمة أو عدم القدرة، فكيف يصحُّ لنا أن ندعوَ غيرَنا أو أن نتولَّى أحداً دونك.

وقرئ: ﴿نُتَّخَذَ﴾[1] على البناء للمفعول من (اتَّخَذَ) الذي له مفعولان، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ومفعوله الثاني ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ و﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأن (مِن) لا تزاد في المفعول الثاني، بل في الأول، وعلى الأول مزيدةٌ لتأكيد النفي.

ولمَّا تضمَّن قولهم: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أنَّا لم نضلَّهم ولم نَحملْهم على الامتناع من الإيمان، صلح أن يستدرك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ فقالوا:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالأموال والأولاد وطُول العمر والسلامة من العذاب.

﴿حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ﴾ حتى غَفلوا عن ذِكْرك، أو التذكُّرِ لآلائك.

والواو الفصيحة في ﴿وَكَانُواْ﴾ للعطف على محذوف تقديره: فكفروا ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾: هالكينَ، مصدرٌ وصفَ به، ولذلك يَستوي فيه الجمعُ والواحد، قال ابن الزِّبَعرى في الواحد:

يـا رسـولَ الإلـه إنَّ لسـاني ... راتقٌ ما فَتَقـتُ إذ أنـا بُورُ[2]

***

(١٩) ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

---

(١) قرأ بها من العشرة أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٣).

(٢) انظر: «ديوان عبد الله بن الزبعرى» (ص: ٣٦).

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ المعنى: فقد كذَّبكم المعبودون، وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنةٌ رائعة، وخاصَّة إذا انضمَّ إليها الالتفاتُ وحُذف القول، وقد سبق تحقيقُ هذا في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ من سورة المائدة [الآية: ١٩][(١)].

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بقولكم فيه: إنَّهم آلهة، أو: هؤلاء أضلُّونا، والباء بمعنى (في)، أو مع المجرور بدل من الضمير.

وقرئ بالياء[(٢)]، ومعناه: فقد كذَّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾.

﴿فَمَا يسْتَطِيعُونَ﴾ قرئ بالتاء[(٣)] على خطاب العابدين ﴿صَرْفًا﴾: دفعاً للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ فيُعِينكم عليه.

ثم خاطب المكلَّفين على العموم بقوله:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ الشرط وإن عمَّ كلَّ مَن كفر أو فسَق، لكنه في اقتضاء الجزاء مقيَّدٌ بعدم الـمُزاحم وهو التوبة إجماعاً، وبالإحباط بالطاعة والعفو عندنا في الأخير.

﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ وهو عذاب النار، وفي عبارة ﴿نُذِقْهُ﴾ إشارةٌ إلى أن العذاب جسمانيٌّ.

* * *

(٢٠) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

---

(١) لم نقف على هذا الموضع من التفسير، وانظر ما جاء في المقدمة من تفصيل لهذا الأمر.

(٢) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٤).

(٣) قرأ بها حفص من السبعة، وقرأ الباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كُسرَت (إنَّ) لا لأجل اللامِ في الخبر؛ لأنَّ دخولها وخروجها هاهنا سواءٌ، بل لأنه موضع ابتداء تقديره: إلَّا هم يأكلون، والجملة بعد (إلَّا) صفةٌ لموصوف محذوف، والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلَّا آكلين وماشين، وإنَّما حذف لدلالة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عليه[1]، ويجوز أن يكون حالاً اكتفي فيها بالضمير، وهو جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾: ابتلاءً، ولا دلالة فيه على القضاء والقَدَر لأن قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علَّةٌ للجعل لا للتقدير، والمعنى: وجعلنا بعضَكم لبعضٍ فتنة ليَظهر أيُّكم يَصبر[2].

ومن الفتنة: أن يَحسد المُبتلَى المعافَى، ويَحقِرَ المعافَى المبتلَى، والصبرُ أن يَحبس كلاهما نفسَه؛ هذا عن البَطَر[3]، وذاك عن الضجر.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بصَبْر مَن صَبَر، وضَجَر مَن ضَجِر، أو: بالصواب فيما يَبتلي[4] به وغيرِه.

***

---

(١) في هامش (ع) و(ف) و(م): «قال في التيسير: وهو كما يقال: ما قدم علينا أمير إلا إنه مكرِم لي، بالكسر. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «أنكم تصبرون»، وفي (م): «أيكم تصبروا»، والمثبت من (ع) و(ي) والبيضاوي.

(٣) في (ع) و(ف) و(ي): «النظر»، وفي (م): «البسطة»، والمثبت من (ك).

(٤) في النسخ: «فيمن ابتلى»، والمثبت من المصادر. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٧٢)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٢١)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٥٣١)، و«البحر» (١٦/ ١٧٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٥٨).

(٢١) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ الرجاء: ترقُّب الخير الذي يقوَى في النفس وقوعه، وبهذا القيد الأخير يفارق الأمل.

﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير؛ لكفرهم بالبعث، أو: لا يخافون عقابنا؛ إما لأنَّ الراجيَ قلق فيما يرجوه، كالخائف، أو لأنَّ الرجاء في لغةِ تِـهامة الخوفُ.

واللقاءُ: المصيرُ إلى الشيء من غير حائل، ولهذا صحَّ لقاءُ الجزاء؛ لأن العباد يصيرون إليه في الآخرة، وعلى هذا يصحُّ أن يقال: لا بدَّ مِن لقاء الله تعالى.

﴿لَوْلَا﴾: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ رسلاً دون البشر، أو شهوداً على نبوَّته عليه السلام ودعوى رسالته.

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرةً فيُخبرَنا برسالته ويأمرَنا باتِّباعه.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في شأنها، حتى أرادوا لها ما يتفق للأفراد من الأنبياء ـ الذين هم أكملُ خلقِ الله تعالى في أكملِ أوقاتها ـ وما هو أعظمُ من ذلك(١).

﴿وَعَتَوْ﴾ العتوُّ: الخروج إلى أفحشِ الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه؛ حيث عاينوا المعجزاتِ الباهرةَ فأَعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسِهم الخبيثةِ ما

(١) قوله: «للأفراد من الأنبياء...»، المراد بالأفراد: عظماؤهم، و(أكمل أوقاتها) هو الوحي بالملائكة لا بإلهام ومنام ونحوه، أو المراد به رؤية الملك جهاراً معايَناً على صورته؛ لأنه هو الذي اقترحوه، وضمير (أوقاتها) للأفراد، وأنثه لظاهر الجمع، ولو قال: أوقاتهم، كان أظهر، ويمكن أن يقال: الضمير للنبوّة المفهوم منه، و(ما هو أعظم) رؤية الله عياناً. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤١٦).

سُدَّت دونه مطامع النفوس القدسيَّة، واللام جوابُ قَسَم محذوف، وفي الاستئناف بالجملة حُسْنٌ وإشعار بالتعجُّب[١] من استكبارهم وعتوِّهم، فإن في فحوى هذا الفعل دليل على التعجيب من غير لفظه، أَلَا يُرى أنَّ المعنى: ما أشدَّ استكبارهم وما أكبرَ عتوَّهم!

***

(٢٢) ـ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾: ملائكةَ الموت أو العذاب، و﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بما دلَّ عليه: ﴿لَا بُشْرَىٰ ﴾؛ أي: يومَ يَرون الملائكةَ يُمنعون البشرى أو يعدمونها[٢].

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكِّد لـ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾، أو خبرٌ و﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ تبيينٌ، أو خبرٌ ثانٍ، أو ظرفٌ لِمَا تتعلَّق به اللام، أو لـ ﴿بُشْرَىٰ ﴾ إن قدِّرت منوَّنةً غيرَ مبنيَّةٍ مع (لا)، فإنَّها لا تعمل، أو بإضمار: اذْكُر، ثم أخبر فقال: لا بشرى بالجنة[٣] يومئذٍ.

وقيل: لا ينتصب بـ ﴿يَرَوْنَ﴾؛ لأنَّ المضاف إليه لا يَعمل في المضاف، ولا بـ ﴿بُشْرَىٰ ﴾؛ لأنها مصدرٌ، والمصدر لا يَعمل فيما قبله، ولأنَّ المنفيَّ بـ(لا)[٤] لا يَعمل فيما قبل (لا).

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهرٌ في موضعِ ضميرهم؛ تسجيلاً على جرمهم، وإشعاراً بما هو المانع للبُشرى والمُوجِبُ لما يقابلها، أو عامٌّ يَتناول حكمُه حكمَهم من طريق

---

(١) في (ك): «بالتعجيب».

(٢) تحرفت في النسخ إلى: «يعدمونها». انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٧٣)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٢١).

(٣) ليست في (ف) و(ك).

(٤) في(ك) و(ي): «ولأن المنفي لا»، وفي (ف): «ولأن النفي لا».

البرهان، ولا يلزم من نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذٍ نفيُ البشرى بالعفوِ والشفاعةِ في وقتٍ آخر.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطفٌ على المدلول؛ أي: يقول الكفرةُ حينئذٍ هذه الكلمةَ؛ استعاذةً وطلباً من الله تعالى أن يَمنع لقاءَهم، وهي ممَّا كانوا يقولونه عند لقاءِ عدوٍّ أو هجومِ مكروهٍ، أو يقولها الملائكةُ بمعنى: حراماً محرَّماً عليكم الجنة أو البشرى.

وقرئ: (حُجْراً) بالضَّمِّ[1]، وأصله الفتح أو الكسر، فإنَّهما لغتان فيه، غير أنَّه لمَّا اختصَّ بموضعٍ مخصوصٍ غيِّر[2]؛ كـ: قَعْدَكَ وعمرَكَ[3]، ولذلك لم يتصرَّف فيه[4]، ولا يظهر ناصبُه، ووصفه بـ﴿مَّحْجُورًا﴾ للتأكيد، كقولهم: موتٌ مائِتٌ.

***

---

(١) نسبت للحسن والضحاك. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤).

(٢) قوله: «لما اختص بموضع..» يعني: لما خصوا استعماله بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول، فلما تغيَّر معناه غيِّر لفظه عما هو أصله ـ وهو الفتح ـ إلى الكسر أو الضم لإيهام أنه لفظ آخر كالمرتجل. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤١٧).

(٣) قوله: «كقعدك وعمرك» (قعدك): بفتح القاف، وحكي كسرها عن المازني [وكذا ضبطت في (ي) بكسر القاف] وأنكره الأزهري، والعين ساكنة يقال: قَعْدَكَ اللهَ، وقَعِيدَكَ اللهَ، بنصب الاسم الشريف لا غير، و(قَعْدَك) منصوب على المصدرية، والمراد: رقيبك وحفيظك الله، ثم نقل إلى القسم فقيل: قَعْدَكَ الله لا تفعل. وأمّا (عَمْرَكَ الله) فبفتح العين وضمها، والراءُ مفتوحة لأنه منصوب على المصدرية ثم اختص بالقسم. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤١٧).

(٤) قوله: «ولذلك لم يُتصرف فيه»؛ أي: يلزم النصبَ على المصدرية بفعل لازم الإضمار. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

(٢٣) ـ ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ لا قدومَ ولا ما يُشبه القدومَ، ولكن مُثِّلت حالُ هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم ـ من صلةِ رحمٍ وإغاثةِ ملهوفٍ، وقِرَى ضيفٍ، ونحوِ ذلك ـ بحالِ مَن خالَفَ سلطانَه وعَصاهُ، فقدِم إلى أسبابه وما تحت يديه فأفسدها ومزَّقها كلَّ ممزَّقٍ، ولم يترك لها أثراً.

وعلى هذا يكون الكلامُ المذكورُ تمثيلاً على سبيل الاستعارة، لا الاستعارة[1] في مفرداته، بخلافِ ما إذا كان المعنى: وعَمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم فأَحبطناهُ، فإنه حينئذٍ تكون الاستعارة في المفردات لا في الكلام.

والهباء: الشيءُ المنبثُّ الذي تراهُ في البيت من ضوء الشمس، والهباء أيضاً دُقاقُ التراب، ويقال له إذا ارتفع، و﴿مَّنثُورًا﴾ صفته، وليس فيه تشبيهٌ على تقدير التمثيل.

وأمَّا على المعنى الثاني فقد شبَّه به عملَهم المُحبَط في حقارته وعدمِ نفعه ثَمَّ بالمنثور منه في انتشاره؛ بحيث لا يَقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

* * *

(٢٤) ـ ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ تمييزٌ، والمُستقَرُّ: المكان الذي يُستَقَرُّ فيه في أكثرِ الأوقات للتجالُس والتحادُث.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال الأزهريُّ: القيلولةُ والمَقيلُ: الاستراحةُ في نصف النهار

(١) قوله: «لا الاستعارة» سقط من (ع)، وقوله: «لا» سقط من (م).

وإن لم يكن مع ذلك نومٌ(١)، ورُوي أنه يُفرغُ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيلُ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار(٢).

وفي لفظَي(٣) الخيرِ والأحسنِ تهكُّمٌ بهم.

***

(٢٥) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾.

﴿ وَيَوْمَ ﴾: واذْكُر يومَ ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصلُه: تتشقَّق، فحَذف التاءَ بعضُهم، وأَدغمها في الشين الآخرون(٤).

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: بسببِ طلوعِ الغمام منها، وهو الغمام المذكور في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ في ذلك الغمامِ بصحائف أعمالِ العباد.

***

(٢٦) ـ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾: الثابتُ له؛ لأنَّ كلَّ مُلْكٍ يومئذٍ يَبطُل ولا يَبقى إلَّا

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٣٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣١٣)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ٥٥٦) عن ابن مسعود: أنه كان يقول: والذي نفسي بيده، لا ينتصفُ النهار يوم القيامة حتى يقيل أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار، ثم قال: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

(٣) ليست في (ف) و(ك).

(٤) قرأ بإدغام التاء في الشين ابن كثير ونافع وابن عامر، وباقي السبعة بحذف التاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣ ـ ١٦٤).

مُلْكَه تعالى، فهو الخبر، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ صلته أو تبيينٌ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمولُ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ لا ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنه متأخِّر، أو صفةٌ والخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أو ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾: شديداً؛ لِمَا يَنالهم من الأهوال والتشديد في السؤال، ثم الخزيِ والنكال، ثم النارِ والأغلال، ويُفهَم منه يُسْرُه على المؤمنين، وفي الحديث: «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخفَّ من صلاةٍ مكتوبةٍ صلَّوها في الدنيا»[1].

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ مِن فرط الحسرة، وعضُّ اليدين كنايةٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنه من روادفهما، ولإفادة الدلالة على استمرارِ تلك الحال ضمِّن الفعلُ المذكور معنى الاستقرار، فعدَّاه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، والمراد بالظالم الجنس، وقيل: عُقْبَة بنُ أبي مُعَيْط.

﴿يَقُولُ﴾ جملة في محلِّ النصب على الحال: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ تابعاً له ﴿سَبِيلًا﴾ هَداهُ الله إليه، وتنكيره للإشعار بكمال الاتِّباع.

* * *

(٢٨) ـ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقرئ بالياء[2]، وهو الأصل؛ لأنَّ الرجلَ ينادي ويلته، وهي هَلَكتُه، يقول لها: تعالي فهذا أوانُك.

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٧) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، وحسَّن إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٤٨).

(٢) نسبت للحسن وابن قطيب. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤).

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني: مَن أضلَّه، و(فلان) كنايةٌ عن الأعلام، كما أنَّ الهَنَ كنايةٌ عن الأجناس.

* * *

(٢٩) ـ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾: عن ذِكْر اللهِ، أو كتابه، أو موعظةِ الرسول، أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ من الله، اعترافٌ بالقصور من جانبه.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: الخليلَ المضِلَّ، أو إبليسَ؛ لأنه حَمَله على مخالفته ومخالفةِ الرسول، أو كلَّ مَن تشيطَنَ من الجنِّ والإنس ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ المطيعِ له ﴿خَذُولًا﴾ مبالغةٌ في الخذلان؛ أي: من عادته ترك مَن يواليه وقتَ حاجته إليه.

* * *

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾؛ أي: في الدنيا بثًّا إلى الله، ولو كان في الآخرة لَمَا عدل عن سَنَنِ ما تقدَّم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً[١] ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾: متروكاً؛ أي: تركوه ولم يؤمنوا به، من الهجران، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾.

وفي هذا تعظيمٌ للشكاية وتخويفٌ لقومه؛ لأن الأنبياء عليهم السلام إذا شَكَوا إليه تعالى قومَهم، حلَّ عليهم العذابُ ولم يُنظَروا.

ثم أقبل عليه مسلِّياً وواعداً بالنصرة عليهم فقال:

---

(١) في (ف) و(ك): «أقربائي».

(٣١) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جعلناه لك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾ فاصبر كما صبروا، ومعنى الكلِّية الكثرةُ؛ كما في: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] فلا يُشكِل بآدم عليه السلام؛ فإنه لم يكن مبتلًى بعداوة قومه، والعدوُّ يجوز أن يكون واحداً وجمعاً.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾؛ أي: إلى طريق الصبرِ المؤدِّي إلى النصر، والباء زائدة، و﴿هَادِيًا﴾ تمييزٌ، ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: كفى ربُّك في حال الهداية.

﴿وَنَصِيرًا﴾ لك عليهم.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: أحبارُ اليهود[1]: ﴿لَوْلَا﴾: هلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: أُنزل عليه كخبَّر بمعنى أَخْبَر، بدلالة قوله:

﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: مُجتمِعاً دفعةً واحدةً كالتوراة والزَّبور، وهذا فضولٌ من القول ومماراةٌ بما لا طائلَ تحته، وغفولٌ عن مقتضى أصولِ البلاغة؛ من وجوب رعاية المطابقة لمقتضى المقام[2] في كلِّ جملةٍ من الكلام، ولا تتيسَّر تلك الرعاية عند نزولِ مجموعِ القرآن دفعةً واحدةً والشريعةِ من وجوبِ تقديم المُجمَل والعامِّ

---

(١) في هامش (ف) و(م): «في سورة النساء: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا﴾. منه».

(٢) في (ع) و(ي): «الكلام»، وفي (م): «الحال».

والمنسوخ، وتأخيرِ البيان والخاص والناسخ، ولا يتيسَّر ذلك أيضاً على التقدير المذكور والتذكير من[١] وجوب رعايةِ شرط التكرير، وهو أن يكون في أوقاتٍ متعدِّدة، مع أنَّ للتفرقة فوائدَ:

منها: ما أشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جوابٌ لهم؛ أي: أنزلناه إنزالاً كذلك[٢]، والإشارةُ إلى مدلولِ قولهم؛ لأَّن معناه: لِمَ ينزل عليه القرآنُ مفرَّقاً؟ فأَعْلَمَ أن ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بتفريقه؛ ليَقْوَى فؤادُك حتى تعيَهُ وتحفظَه؛ لأنَّ المتلقِّن وإن لم يكن أميًّا إنَّما يقوى قلبُه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، ولو أُلقيَ عليه جملةً واحدةً لعَجَزَ عن حفظه.

أو: لنثبِّت به فؤادَك عن الضَّجَر بتواتر الأصول، وتتابُع الرسول؛ لأن قلبَ المحبِّ يَسكُن بتواصل كُتُبِ المحبوب، ولأنه إذا نزل منجَّماً وهو يتحدى[٣] بكلِّ نجمٍ فيَعجزون عن معارضته، زاد ذلك قوَّة قلبه.

ومنها: أنَّ نزوله بحسب الوقائع يوجب زيادةَ بصيرة وغوصاً في المعنى[٤].

ومنها: انضمام القرائنِ الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يُعِين على البلاغة، وأما أنَّ الناسخ والمنسوخ لا يجتمعان، وكذا أسباب النزول لا يجتمعنَ، فليس من الفوائد وإن كان من جملة البواعث لذلك.

---

(١) في (ع): «عن».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «أنزلناه كذلك إنزالًا».

(٣) في (ك): «متحد».

(٤) في هامش (ف): «رد لمن قال: لأنه يخالف حال موسى عليه السلام، ثم إن ذلك القائل غافل عن نزول التوراة مكتوباً فهو بمعزل عما نحن فيه. منه».

ويحتمل أن يكون ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من تمام كلامِ الكفرة، ولذلك وقف عليه، فيكون حالاً، والإشارة إلى الكتب السالفة، واللام على الوجهين متعلِّق بمحذوف.

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تُؤَدةٍ وتَمهُّلٍ، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تفليجها(١).

***

(٣٣) ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤالٍ عجيبٍ من سؤالاتهم الباطلة، كأنه مَثَلٌ في البطلان.

﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الدافعِ له ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن بياناً، التفسير: التكشيف عمَّا يدلُّ عليه الكلام.

***

(٣٤) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يُساقون ويُجرُّون ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، ذمٌّ منصوب أو مرفوعٌ، أو مبتدأٌ خبرُه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعل مكانهم شرًّا ليكون أبلغَ في الدلالة على شرارتهم، وقيل: ﴿مَّكَانًا﴾: مُنصَرَفاً.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وصفُ السبيل بالإضلال من الإسناد المجازيِّ للمبالغة، والمفضَّل عليه هو الرسولُ عليه الصلاة والسلام على طريقةِ قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]، كأنه قيل: إنَّ

---

(١) في (ف) و(م): «تقليحها».

حاملَهم على هذه الأسولة[١] تحقيرُ مكانه بتضليل سبيله[٢]، ولا يعلمونَ حالَهم ليعلموا أنَّهم شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً.

***

(٣٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ في عبارة ﴿مَعَهُۥٓ﴾ إشارةٌ إلى أصالةِ موسى عليه السلام في أمر الدعوة ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل أو عطفُ بيان ﴿وَزِيرًا﴾ وهو في اللغة: مَن يُرجَع إليه ويُتحصَّن برأيه، مِن الوَزَر وهو الملجأ، والوزارة لا تنافي النبَّوة؛ فقد كان يُبعَث في الزمن الواحد أنبياءُ، ويُؤمَرون بأن يُوازرَ بعضهم بعضاً.

***

(٣٦) ـ ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: فرعونَ وقومِه.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ التدميرُ: الإهلاك[٣] بأمرٍ عجيبٍ، أراد الاختصارَ فاقتصر على حاشيتي القصَّة؛ لأنَّها المقصودُ منها، وهو إلزامُ الحجَّة ببعثة الرسل، واستحقاقُ التدمير بتكذيبهم، فالفاء فصيحةٌ، وهي فاءٌ سببيَّةٌ، ولا يلزمها التعقيب.

***

---

(١) في (ك): «الأسئلة».

(٢) في (ف): «سببه».

(٣) في (م): «الهلاك».

(٣٧) ـ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل مقدَّر يفسِّره هذا الظاهر؛ أي: أغرقنا قومَ نوحٍ، والعامل في ﴿لَّمَّا﴾ ذلك المحذوف.

﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾: أنكروا البعثةَ مطلقاً كالبراهمة.

﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطُّوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: وجعلنا قصَّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: عبرةً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لقومِ نوحٍ عليه السلام، وأصله[1]: وأعتدنا لهم، إلَّا أنه أراد تظليمَهم فأُظهروا، وهو عامٌّ لكلِّ مَن ظَلَمَ ظُلْمَ شركٍ، ويتناولهم بعمومه.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في جهنَّم، وأمَّا عذابهم في البرزخ فغيرُ متراخٍ عن إغراقهم.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾.

﴿وَعَاداً وَثَمُوداً﴾ عطفٌ على (هم) في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾، أو على ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنَّ المعنى: ووعدنا الظالمين.

وإنَّما صُرفَ (ثمود)؛ على تأويل الحيِّ، أو لأنَّه اسمُ الأبِ الأكبرِ، وقرئ: ﴿وَثَمُودَا۟﴾[2] على تأويل القبيلة.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قومُ شعيبٍ عليه السلام كانوا يعبدون الأصنامَ فكذَّبوا

---

(١) «وأصله»: ليست في (م).

(٢) قرأ بها حفص وحمزة، وقرأ الباقون بالصَّرف. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

شعيباً، فبينما هم حول ﴿ٱلرَّسِّ﴾ ـ وهو البئرُ غيرُ المطويَّة[1] ـ انهارت بهم، فخُسف بهم وبديارهم.

وقيل: الرَّسُّ: قريةٌ نبيِّهم، فهلكوا وهم أصحاب الرَّسِّ والأُخدود.

﴿وَقُرُونًۢا﴾: وأهلَ أعصارٍ، قد مرَّ تفسير القرون في سورة الأنعام.

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿كَثِيرًا﴾ لا يَعلمها إلا الله.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بيَّنَّا له القصصَ العجيبةَ من الأمم التي كانت قبلهم؛ أي: حذَّرنا كلَّ أمة أن يَنزل بها ما نزل بمَن قبلها، فلمَّا أصرُّوا أُهلكوا، كما قال:

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾؛ أي: أهلكنا إهلاكاً، وأصلُ التَّتبيرِ: التفتيتُ، ومنه: التِّبْر، لِفُتاتِ الذهبِ والزجاجِ.

و(كلًّا) الأوَّل منصوب بما دلَّ عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، وهو: أَنذرْنا، أو: حذَّرنا، والثاني بـ ﴿تَبَّرْنَا﴾ لأنه فارغ له.

* * *

(٤٠) ـ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ يعني: أهلَ مكَّة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ سَدُوم، وهي أعظمُ قرى قومِ لوط عليه السلام.

---

(١) أي: غير المبنية، يقال: طويت البئر، إذا بنيتَها بالحجارة.

﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ أي: أُهلكت بالحجارة، و﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ مفعول ثانٍ، والأصل: أُمطرت القريةُ مطراً، أو مصدر محذوف الزوائد؛ أي: إمطارَ السَّوء.

﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ في مِرَارِ مرورهم فيتَّعظون بما يَرون فيها من آثار عذابِ الله تعالى.

﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾: بل كانوا كفرةً لا يخافون[1] نشوراً، فلذلك لم يَنظروا ولم يتَّعظوا.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾: ما يتَّخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾: موضعَ هُزُوٍ، أو: مَهزوءاً به.

﴿أَهَٰذَا﴾ محكيٌّ بعد القول المضمَر، و(هذا) استصغارٌ واستحقار؛ أي: قائلين: ﴿أَهَٰذَا﴾.

﴿ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ والعائدُ إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ محذوف؛ أي: بعثه الله، وإخراجُه في معرض التسليم بجعله صلةً وهم في غاية الإنكارِ تهكُّمٌ واستهزاءٌ.

* * *

(٤٢) ـ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

---

(١) في (ف): «لا يرجون».

﴿إِن كَادَ﴾: إنَّه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾: ليَصرفُنا عن عبادتها[1] ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ فيه دلالةٌ على فرط مجاهدةِ الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوتهم وعَرْضِ المعجزاتِ عليهم، حتى شارفوا ـ بزَعْمهم ـ أن يَتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرطُ لجاجِهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم.

ولمَّا عَدُّوا عبادتهم الأصنام رشاداً واعتقدوا صرفهم عنها ضلالاً، أوعدهم الله تعالى فقال:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه وعيدٌ ودلالةٌ على أنَّه لا يُهملِهم وإنْ أَمهلهم.

* * *

(٤٣) ـ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: مَن أطاع هواه فيما يأتي ويَذَر، فهو عابدُ هواه وجاعلُه آلهةً، فيقول لرسوله: هذا الذي لا يَرى معبوداً إلَّا هواهُ كيف تستطيع أنْ تَدعوَه إلى الهدى، وإنَّما قدَّم المفعول الثاني للإشعار بأنَّ المعبودَ حقُّه التقديمُ والتعظيم، فهم أَخلُّوا بحقِّه حيث اتخذوا أهواءَهم آلهةً[2].

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: حفيظاً تحفظه عن متابعة هواهُ وعبادةِ ما يهواهُ، أو: أفأنت تكون عليه موكَّلاً فتصرِفَه عن الهوى إلى الهدى، عرَّفه أنَّ إليه التبليغ فقط، فالاستفهام الأول للتعجُّب والتقرير، والثاني للإنكار.

---

(١) في (م): «عبادتنا».

(٢) في هامش (ع) و(ف) و(م): «ومن زعم أنه قدَّم لمجرَّد العناية، فكأنَّه عن أن مثل هذا التقديم لا يكون بسلامة الأمر. منه».

(٤٤) ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فيُجدي لهم الآياتُ أو الحِجَجُ فتهتمَّ بشأنهم وتطمعَ في إيمانهم.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (أم) منقطعة، معناه: بل أتحسب، كأنَّ هذه المذمَّة أشدُّ من التي تقدَّمتْها حتى حُقَّت بالإضراب عنها إليها، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنَّهم لا يُلقُون إلى استماع الحقِّ أُذُناً، ولا إلى تدبُّره[1] عقلاً، ومشبَّهين بالأنعام التي هي مَثَلٌ في الغفلة والضلالة، فقد رَكِبهم الشيطانُ بالاستزلال لتركهم الاستدلال.

ثم هم أَرجحُ ضلالةً منها؛ لأنَّ الأنعامَ تُسبِّح ربَّها وتسجد له، وتطيع مَن يَعلفها، وتعرف مَن يُحسِن إليها ممَّن يُسِيءُ إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنبُ ما يضرُّها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادونَ لربِّهم ولا يَعرفون إحسانه إليهم مِن إساءةِ الشيطان الذي هو عدوُّهم، ولا يطلبون الثوابَ الذي هو أعظمُ المنافع ولا يتَّقون العقاب الذي هو أشدُّ المضارِّ، ولا يهتدون للحقِّ الذي هو المَشْرع الهنيُّ والعَذْب الرَّويُّ.

وإنَّما ذكر الأكثر؛ لأنَّ فيهم مَن لم يصدَّه عن الإسلام إلَّا حبُّ الرئاسة، وكفى به داءً عضالاً، ولأنَّ فيهم مَن آمَنَ.

* * *

---

(١) في (ك): «تذيره».

(٤٥) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أَلَم تنظر إلى صُنع ربِّك وقُدْرته ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ أي: بَسَطه فعمَّ الأرضَ؛ وذلك من حينِ طلوع الفجر إلى وقتِ طلوع الشمس في قول الجمهور، ولأنَّه ظلٌّ ممدودٌ لا شمس معه ولا ظُلْمة، وهو أطيب الأحوال، فإنَّ الظُّلْمة الخالصة تُنفِّر الطبع وتسدُّ النظر، وشعاعَ الشمس يُسخِّن الجوَّ ويُبهِر البصرَ، ولذلك وَصَف به الجنة فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: ثابتاً دائماً لا يَزول ولا تُذهِبه الشمسُ، وفيه دليلٌ على أنه تعالى يَفعل بالقدرة والاختيار لا بالإيجاب والاضطرار.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ لأنه بالشمس يُعرَف الظِّلُّ، ولولا الشمسُ لَمَا عُرفَ الظِّلُّ، فالأشياء تُعرَف بالأضداد.

***

(٤٦) ـ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ القَبْض: جَمْعُ المنبسطِ من الشيء، والمراد: إزالتُه بإيقاع الشيء موقعَه.

﴿إِلَيْنَا﴾؛ أي: حيث أردنا.

﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: سهلاً، أو قليلاً قليلاً.

وجاء بـ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين؛ لتفاضُل الأمور.

***

(٤٧) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ شبَّه ظلامَه الساترَ باللباس.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾: راحةً للأبدان بقطع المشاغل، وأصلُ السَّبْتِ: القَطْعُ، والنائمُ مسبوتٌ؛ لأنه انقطع عملُه وحركتُه.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾: ذا نشور؛ أي: انبعاثٍ من النوم، كنُشُور الميت، أو يَنشُر فيه الخَلْقَ للمعاش.

وفي هذه الآية ـ مع دلالتها على قدرة الخالق ـ إظهارٌ لنعمته على خَلْقه، فإن في الاستجنان(١) بستر الليل فوائدَ دينيَّةٍ ودنيويَّة، وفي النوم واليقظة الشَّبِيهين بالموت والحياة عبرةً لمن اعتَبر.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ وقرئ على التوحيد(٢)؛ إرادة للجنس ﴿نُشُراً﴾ ناشراتٍ للسَّحاب، جمع: نَشُور، وقرئ بالفتح على أنه مصدرٌ وصفت به، وقرئ: ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف بُشُر(٣)، جمع: بَشُور، بمعنى مُبشِّر.

---

(١) في (ع) و(ي): «الاحتجاب»، وفي (ف): «الاستحباب». واضطرب رسمها في (م)، والمثبت من (ك).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وقرأ الباقون بالجمع. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿نُشُراً﴾ بضم النون والشين، وابن عامر: ﴿نُشْراً﴾ بضم فسكون، وعاصم: ﴿بُشْراً﴾ بالباء، وقرأ الباقون: ﴿نَشْراً﴾ بفتح فسكون. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: قـدَّام المطـر؛ لأنـه ريـح ثـم سـحاب ثم مطـر، وهذه استعارةٌ مَليحةٌ.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾: بليغـاً فـي طهارتـه، وذلـك لأنَّـه لم يَشُـبْهُ شـيءٌ، بخـلاف مـا نَبَعَ مـن الأرض ونحوه، فإنَّه يَشـوبُه أجزاءٌ أرضيَّـةٌ مِن مَقـرِّه أو مِن ممرِّه، أو ممَّـا يُطرَح فيـه، وقيل: مُطهِّـراً لقولـه: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وهو اسـمٌ لِمَا يُتطهَّـر بـه، كالوضـوء لِمَـا يُتوضَّـأ بـه، قـال عليـه الصـلاة والسـلام: «التـرابُ طهورُ المؤمنِ»(١).

* * *

(٤٩) ـ ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ﴾ بالنباتِ ﴿بَلۡدَةً﴾ ذكَّر ﴿مَّيۡتًا﴾ على إرادة البلد والمكان، أو لأنَّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغة، فأُجري مجرى الجامد.

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ وقرئ: (ونَسْقِيَه)(٢)، وسَقَى وأَسْقَى لغتان، والأناسيُّ: جمع إِنْسِيٍّ على القياس، ككِرْسيٍّ وكَراسيَّ، أو: إنسانٍ، وأصله: أَناسِين، كسِرْحان وسَراحين، فأُبدلت النونُ ياءً وأُدغمت.

وقدَّم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسيِّ لأنَّ حياتها سببٌ لحياتهما، فقدَّم سبب حياتهما على سقيهما.

---

(١) رواه أبو داود (٣٣٣)، والترمذي (١٠٤)، ولفظه: «إنَّ الصَّعيدَ الطَّيِّبَ طَهورٌ، وإن لم تَجِدِ الماءَ إلى عَشرِ سِنينَ..»، من حديث أبي ذرٍّ الغفاري، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) قرأ بها ابن مسعود، والأعمش والمفضل في رواية عن عاصم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥). والمشهور عن عاصم كقراءة الجماعة.

وتخصيصُ الأنعامِ مِن بين الحيوانِ الشارب؛ لأنَّ عامَّةَ منافع الأناسيِّ متعلِّقةٌ بها، فكان الإنعامُ بسقي الأَنعام كالإِنعام بسقيهم.

وتنكيرُ الأنعام والأناسي ووصفُهما بالكثرة؛ لأنَّ أكثر الناس مُنيخون بالقُرب من الأودية والأنهار، فيهم غُنيةٌ عن سقي الماء، وأعقابهم ـ وهم كثيرٌ ـ يعيشون بما ينزل من رحمته.

وتنكيرُ البلدة؛ لأنَّه يريد بعضَ بلاد هؤلاء المتبعِّدين[1] عن مظانِّ الماء.

ولمَّا كان سقيُ الأناسيِّ من جملة ما أُنزِل له الماءُ وَصَفه بالطَّهور؛ إكراماً لهم، وبياناً أنَّ من حقِّهم أن يُؤثِروا الطهارةَ في بواطنهم وظواهرهم؛ لأنَّ الطهوريَّةَ شرطٌ للإحياء.

***

(٥٠) ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾: صرَّفنا هذا القولَ بين الناس في القرآن وسائرِ الكُتُب المنزلة على الرسل.

﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾: ليتفكَّروا ويعتبروا، أو يعرفوا كمالَ القدرة وحقَّ النعمة فيَشكروا.

﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾: فأَبى أكثرُهم إلَّا كفران النعمة وقلَّةَ الاكتراث لها، وإنَّما عدل عن الضمير لكيلا يُتوهَّم أنَّ المرادَ أكثرُ ذلك الكثيرِ.

أو: صرَّفنا المطرَ بينهم في البلدان المختلفة والأوقاتِ المتغايرة على الصفات المتفاوتة مِن وابلٍ وطَلٍّ وجَودٍ ورذاذٍ ودِيْمَة، فأَبَوا إلَّا كفوراً، وأن

---

(١) في (م): «المبعدين».

يقولوا: مُطِرنا بنَوءِ كذا، ولا يذكروا صنعَ الله تعالى ورحمته، وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما: ما مِن عامٍ أقلُّ مطراً من عامٍ، ولكن الله يُصرِّفه حيث يشاء، وقرأ الآية(١).

***

(٥١) ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾: نبيًّا يُنذِر أهلها، يعني: أنَّ المقصودَ من البعثة إبلاغُ الدعوة وإلزامُ الحجة، لا الاهتمامُ في أمر الهداية وقَبولها، وإلَّا لفعلنا ما هو أدعى لذلك من دعوة كلِّ أهلِ قريةٍ بنذيرٍ مستقلٍّ.

***

(٥٢) ـ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: فلا تُوافِق هواهُم في بعض الأمور؛ ابتغاءَ لقَبولهم الدعوة ودخولِهم في طريق الهداية.

وأمَّا ما قيل: نبيًّا يُنذِر أهلَها فيخفُّ عليكَ أعباءُ النبوَّة، لكن قَصَرْنا الأمرَ عليكَ تعظيماً لشأنك وتفضيلاً لكَ على سائر الرسل، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة، فلا تُطعِ الكافرينَ فيما يريدونك عليه.

فيَرِدُ عليه: أنَّ موجَب ذلك العطفُ بالواو دون الفاء، على ما أَفصحَ عنه مَن قال: فقابل ذلك بالتشدُّد والتصبُّر، ولا تُطع الكافرين، ولم يَدْرِ أنَّ فيه تغييراً لنَظْم القرآن وإثباتاً للقصور فيه.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٢٠) وصححه.

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ لترك طاعتهم الذي دلَّ عليه ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ يعني: أنَّهم يجتهدون في إبطال حقِّك، فقابِلْهم بالاجتهاد في مخالفتهم[١] وإزاحة باطلهم.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأنه جهادٌ مع كلِّ الكفرة، على ما فُهم ممَّا سبق مِن بعثه إلى[٢] جميع القرى وجملة الأمم.

ثم عاد إلى تعداد النِّعَم فقال:

(٥٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: خلَّاهما متجاورين متلاصقين، تقول: مرجتُ الدَّابَّة، إذا خلَّيتَها ترعى، وسمَّى الماءَين الكثيرين الواسعين بحرين.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامعٌ للعطش مِن فرط عذوبته.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغُ الملوحة، وقرئ: (مَلِحٌ) على فَعِلٍ[٣]، ولعلَّ أصله: مالح، فخفِّف، كبَرِدٍ في بارد، وقد نقل الأزهريُّ عن الكسائيِّ صحَّةَ: مالح، وإن كان المليحُ الفصيحُ: مِلْح[٤].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: حاجزاً من قُدرته.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: وتنافراً بليغاً، كأنَّ كلًّا منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ

---

(١) في (ف) و(م): «مقابلتهم».

(٢) في (ك): «بعثته إلى»، وفي (م): « بعثه على».

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف وقتيبة عن الكسائي في غير المشهور عنه. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٥).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ٦٤)، والنقل فيه عن أبي الدقيش لا عن الكسائي.

عنه، أو: ستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

* * *

(٥٤) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: من النطفة ﴿بَشَرًا﴾ لم يقل: إنساناً، لأَّن حقيقته وهو الروح غيرُ مخلوق منها.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ أراد تقسيم البَشَر قِسْمَين:

ذوي نَسَب؛ أي: ذكوراً يُنسَب إليهم، فيقال: فلان بنُ فلانٍ، وفلانةُ بنتُ فلانٍ.

وذوات صهر؛ أي: إناثاً يُصاهَر بهنَّ، وهو كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خَلَقَ من النطفة الواحدة تَوأَمَيْنِ ذكراً وأنثى.

* * *

(٥٥) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إنْ عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إنْ تركوه.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: على معصيته ﴿ظَهِيرًا﴾ مُعيناً ومظاهراً، يعني: للشيطان، وفَعِيل بمعنى مفاعل غيرُ عزيزٍ.

* * *

(٥٦) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيعين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصين؛ كافراً كان أو مؤمناً.

* * *

(٥٧) ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على التبليغ الذي دلَّ عليه ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: جُعْلٍ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾: إلَّا فعلَ مَن شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: أن يتقرَّب إليه ويَطلُب الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصوَّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنَّه مقصودٌ فِعْلُه، واستثناه منه قلعاً لشُبهة الطمع، وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتدَّ بإنفاعك نفسَك بالتعرُّض للثواب والتخلُّص عن العقاب أجراً وافياً مرضيًّا به، مقصوراً عليه، وإشعاراً بأنَّ طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدلالته[1].

***

(٥٨) ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: اتَّخذْ مَن لا يموت وكيلاً، لا يَكِلْك إلى مَن يموت ذليلاً، يعني: ثِقْ به وأَسْنِد أمرَكَ إليه في استكفاءِ شرورهم والإغناءِ عن أجورهم، فإنه الحقيقُ بأن يُعتمَد عليه في كلِّ أمرٍ.

---

(١) قوله: «اعتدّ» الضمير للنبي ﷺ، وضمير «إنفاعك» لغير معيَّن، والمراد: كل مؤمن مبلَّغ، والإنفاع لم يوجد في اللغة، وإنما فيها النفع، ولذلك غلط البيضاوي في استعماله، و«بالتعرض» متعلق به، فهو كقول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه. وقوله: «أجراً» منصوب بـ«اعتد» لتضمنه معنى الجعل، وكونه وافيا أي: تامّا مرضياً لحصره فيه لعدم الاعتداد بغيره. وقوله: «به» متعلق بـ«مرضيا» لتضمنه معنى قانعاً، أو الباء زائدة وضمير عليه للأجر أو للرسول ﷺ، وكون طاعتهم تعود عليه من جعلها أجرا له. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤٣٢).

﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزِّهْه عن أن يَكِلَ إلى غيره مَن توكَّل عليه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بتوفيقه الذي يُوجب الحمدَ.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظَهَر منها وما بَطَن ﴿خَبِيرًا﴾: مطَّلعاً، يعني: أنَّه عالمٌ بأحوالهم، كافٍ في جزاء أعمالهم.

***

(٥٩) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ قد سبق الكلام فيه، وذكره هنا لزيادة تقريرٍ لكونه حقيقاً بأنْ يُتوكَّلَ عليه من حيث إنه الخالق للكُلِّ والمتصرِّف فيه، وتحريضٌ على الثبات والتأنِّي في الأمور، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعةِ نفاذِ أمره في كلِّ مراد خَلَقَ الأشياء على تُؤدَةٍ وتدرُّجٍ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبر لـ ﴿ٱلَّذِى﴾ إنْ جُعل مبتدأً، أو لمحذوفٍ إنْ جعل صفةً لـ ﴿ٱلْحَىِّ﴾، أو بدلاً من المستكنِّ في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، وقرئ بالجرِّ[1] صفةً لـ ﴿ٱلْحَىِّ﴾.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ السؤال كما يعدَّى بـ(عن) لتضمُّنه معنى البحث والاستفسار، يُعدَّى بالباء لتضمُّنه معنى الاعتناء، قيل: إنَّه صلة ﴿خَبِيرًا﴾ أي: فاسأل عمَّا ذكر من الخَلْق والاستواء عالماً يُخبرْك بحقيقته، وهو الله تعالى، أو جبريل عليه السلام، أو مَن وجده في الكتب المتقدِّمة ليصدقَكَ فيه.

***

(١) قرأ بها زيد بن علي. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٦)، و«البحر المحيط» (١٦/ ٢٢٤).

(٦٠) ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾: للمشركين: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا نعرف الرحمنَ فنسجدَ له، فهذا سؤال عن المسمَّى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بـ(ما)، أو لأنَّهم ظنُّوا أنه أراد به غيرَه، ولذلك قالوا:

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ أي: للَّذي تأمرنا بالسجود له، أو لأمرك لنا من غيرِ عرفان، وقرئ: ﴿يأمرنا﴾ بالياء[1]، على أنه قولُ بعضِهم لبعضٍ.

﴿وَزَادَهُمْ﴾؛ أي: الأمرُ المذكورُ ﴿نُفُورًا﴾: تباعُداً عن الإيمان.

* * *

(٦١) ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ يعني: البروج الاثني عشر، سُمِّيت به لظهورها وارتفاعها، قال الزجَّاج: كلُّ ظاهرٍ مُرتفِعٍ يقال له: بُرْجٌ[2].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس لتوقُّدها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقرئ: ﴿سُرُجاً﴾[3] وهي الكواكبُ الكبارُ.

وقيل: الشمس والكواكب الكبار، وعلى هذا يَلزم تخصيصُ القمرِ بالذِّكر بعد دخوله في السُّرُج، مع أنَّ حقَّ التخصيص بالذِّكر للشمس؛ لظهور فضيلتها على سائرها.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧٣).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٤).

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: مضيئاً بالليل، وقرئ: (قُمْراً) كالرَّشَد والرُّشْد، والعَرَب والعُرْب[١].

* * *

(٦٢) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ جعلهما ذَوَي خِلْفةٍ؛ يَخلُف كلٌّ منهما الآخر؛ بأن يَقوم مقامه فيما ينبغي أن يُعمَل فيه، أو بأن يَعتقِبان[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهي للحالة مِن خَلَفَ، كالرِّكْبة والجِلْسة.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾: يتذكَّر آلاءَ الله ويتفكَّرَ في صنعه فيَعلم أنَّه لا بُدَّ له من صانعٍ حكيمٍ.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾: أن يَشكُرَ اللهَ على ما فيه مِن النِّعم.

* * *

(٦٣) ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ، خبره في آخر السورة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وإضافتهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، وقرئ: (وعُبَّادُ الرحمنِ)[٣] على أنه جمع: عابِد، كتُجَّار وتاجِر.

---

(١) نسبت للحسن والأعمش والنخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«الكشاف» (٣/ ٢٩٠)، و«والمحرر الوجيز» (٤/ ٢١٧)، و«البحر» (١٦/ ٢٢٩).

(٢) في (م): «يعتقبا».

(٣) قرأ بها اليماني. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥).

﴿هَوۡنٗا﴾ حالٌ أو صفةٌ للمشي؛ أي: هَيِّنين، أو مشياً هيِّناً، والهونُ: الرِّفق واللِّين؛ أي: يمشون بسكينةٍ ووقارٍ وتواضعٍ دون مرحٍ واختيال وتكبُّر، ولذا ولقولِه: ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] كَرِهَ بعضُ العلماء الركوبَ في الأسواق.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ أي: السفهاءُ بما يَكرهون ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾: سداداً من القول يَسلمون فيه من الإيذاء والإثم، أو: تسلُّماً منكم؛ نتارككم ولا نجاهلكم، فأقيم السلام مقام التسلُّم[1].

قيل: نَسَختها آيةُ القتال. ولا وجه له؛ لأن الإغضاءَ عن السفهاء مُستَحسنٌ شرعاً ومروءةً.

هذا وصفُ نهارهم، ثم وَصَفَ ليلَهم بقوله:

(٦٤) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا﴾: جمع ساجد ﴿وَقِيَٰمٗا﴾: جمع قائم، والبيتوتةُ خلاف الظلول، وهي أن يُدرِكَكَ الليلُ، نمتَ فيه أو لم تَنم، وتخصيصُها لأن العبادةَ بالليل أحمزُ وأبعدُ من الرياء، وتأخيرُ القيام لمحافظة الفاصلة.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: لازماً، ومنه الغريم لملازمته، وهو إيذانٌ بأنهم مع حُسْنِ مخالطتهم مع الخَلْق

(١) في (ف) و(ك): «التسليم».

واجتهادهم في عبادة الحقِّ وَجِلونَ مِن العذاب، مبتهِلونَ إلى الله في صَرْفه عنهم؛ لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقِهم على استمرار أحوالهم.

***

(٦٦) ـ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ﴿سَآءَتْ﴾ في حُكْم: بِئْسَت، وفيها ضميرٌ مُبهَمٌ يُفسِّره ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ والمخصوصُ بالذَّمِّ ضميرٌ محذوفٌ معناه: ساءَت مستقرًّا ومقاماً هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملةَ باسم (إنَّ) وجعلها خبراً لها.

أو بمعنى: أَحْزَنَت، وفيها ضمير اسم (إنَّ)، و﴿مُسْتَقَرًّا﴾ حالٌ أو تمييزٌ، والجملة تعليلٌ للعلَّة الأولى، أو تعليلٌ ثانٍ، وكلاهما يحتمِلان الحكاية والابتداء من الله تعالى.

***

(٦٧) ـ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ الإسرافُ: مجاوزة الحدِّ في الإنفاق، والإقتارُ: التقصيرُ عمَّا لا بُدَّ منه، وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: الإسرافُ: الإنفاقُ في معصية الله تعالى قلَّ أو كثُرَ، والإقتار: مَنْعُ حقِّ اللهِ تعالى من المال(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن مَنَعَ حقًّا فقد قتَر، ومَن أَعطى في غيرِ حقٍّ فقد أَسرف»(٢).

---

(١) رواه عنه الطبريُّ في «التفسير» (١٧/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨). وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٥٤٩).

﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ بضمِّ التاء، وبضمِّ الياء وكسرِ التاء، وبفتحِ الياء وكسرِ التاء[١]، والقترُ والإقتارُ والتَّقتيرُ: التضييقُ الذي هو ضدُّ الإسراف.

﴿وَكَانَ﴾؛ أي: إنفاقهم ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الإسراف والإقتار.

﴿قَوَامًا﴾ القَوام بالفتح: العَدل، وبالكسر: العماد، وهو ما يُقام به الحاجة، لا يَفضُل عنها ولا يَنقص، وهو خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ مؤكِّدة، ويجوز أن يكون الخبرُ ﴿قَوَامًا﴾، و﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ لغواً.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا يُشرِكون.

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حرَّمها، يعني[٢]: ذمَّ قتلها[٣]، وهي نفس الإنسان.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلِّق بالقتل المحذوف، أو بـ ﴿لا يقتلون﴾.

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ نفى عنهم أُمَّهات المعاصي بعدما أَثبت لهم أصولَ الطاعات؛ إظهاراً لكمال إيمانهم، وإشعاراً بأنَّ الأجر المذكور موعودٌ للجامع

---

(١) قرأ بالثانية نافع وابن عامر، وبالثالثة ابن كثير وأبو عمرو، وبالأولى الباقون. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) في (م): «أي».

(٣) في (ف) و(ك): «حرم قتلها». وجاء في هامش (ع) و(ف): «أراد بالقيد المذكور الاحتراز عن نفس الحيوان فإن قتلها غير محرم. منه».

بيـن ذلك، وتعريضـاً للكفرة بأضدادهـم، ولذلك عقَّبـه الوعيد؛ تهديـداً لهم فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ قال أبو عبيدة: الأثامُ: العقوبةُ[1]، وقرئ: (أَيَّاماً)[2] أي: شدائدَ، يقال: يومٌ ذو أيَّام؛ أي: صَعْبٌ.

***

(٦٩) ـ ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَلْقَ﴾؛ لأنهما في معنًى واحد؛ إذ مضاعفةُ العذاب هي لُقيُّ الآثام.

وقرئ: ﴿يُضَاعَفُ﴾[3] على الاستئناف، أو على الحال، وكذلك ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَاناً﴾[4]: ذليلاً.

***

(٧٠) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الكفر ﴿وَءَامَنَ﴾ بمحمَّد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بعد توبته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بـأن يمحـوَ سـابق معاصيهـم بالتوبـة، ويُثبِـت مكانهـا لواحـقَ طاعاتهـم، أو يوفِّقَهـم للمحاسـن بعـد القبائح.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٨١).

(٢) قـرأ بها ابن مسـعود. انظـر: «الكشـاف» (٣/ ١٠١)، و«البحر المحيـط» (١٦/ ٢٤٣)، وفي مطبوع «المختصـر في شـواذ القـراءات» (ص: ١٠٥): (الأيامى) ونسـبها أيضاً لابن مسـعود.

(٣) قرأ بها شعبة عن عاصم. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٤).

(٤) وهي قراءة شعبة عن عاصم الآنفة الذكر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ ولذلك يكفِّر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يُبدِلها بالحسنات.

* * *

(٧١) - ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: ومن خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات؛ أي: تاب وحقَّق التوبة بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ بذلك ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ مرضيًّا عنده، مُكفِّراً للخطايا، مُحصِّلاً للثواب.

* * *

(٧٢) - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: لا يُقيمون الشهادةَ الباطلةَ، أو: لا يَحضرون محاضرَ الكذبِ، فإنَّ مشاهدةَ الباطل شَركةٌ فيه؛ لأنَّ حضورَهم ونظرَهم دليلٌ على[1] الرضا به، وسببُ وجودِ الزيادة فيه.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ يعني: إذا مرُّوا بأهل اللغوِ والمشتغلينَ به، وهو كلُّ[2] ما ينبغي أن يُلقى ويُطرح.

﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾: مُعرِضين عنه، مُكرِمين أنفسَهم عن التلوُّث به بالوقوف[3] عليه والخوض فيه.

* * *

(١) ليست في (ف) و(ك).

(٢) سقط من (ك).

(٣) في (ك) و(م): «بالتوقف». وسقطت «به» من (م).

(٧٣) ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: قُرِئَ عليهم القرآنُ، أو وُعِظوا به.

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا ليس بنفي للخرور، بل هو إثباتٌ له ونفيٌ للصَّمم والعَمى، ونحوه قول الشاعر:

بأيدي رجالٍ لم يَشيموا سيوفَهم ... ولم تكثُر القتلى بها حين سُلَّتِ[1]

أي: بأيدي رجالٍ شاموا سيوفَهم، فقد كثرت القتلى.

يعني: أنَّهم إذا ذكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا، سامعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصرين بعيونٍ باصرةٍ لِمَا أُمروا به ونُهُوا عنه، لا كالمنافقين وأشباههم، دليله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] فإن القرآن يُفسِّر بعضُه بعضاً.

***

(٧٤) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ ﴿مِنْ﴾ للبيان، كأنَّه قيل: هَبْ لنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ثم بُيِّنت القُرَّةُ وفُسِّرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾، ومعناه: أنْ يَجعلهم اللهُ قُرَّةَ أعينٍ، وهو من قولهم: رأيتُ منكَ أسداً؛ أي: أنتَ أسدٌ.

أو للابتداء؛ على معنى: هَبْ لنا مِن جهتِهم ما تَقَرُّ به عيونُنا من طاعةٍ وصلاحٍ،

(١) البيت في «الكامل» للمبرد (١/ ٤٠١)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٢٥٩).

فإنَّ المؤمن إذا شاركه أهلُه في طاعةِ الله سُرَّ بهم قلبُه وقَرَّت بهم عينُه؛ لِمَا يَرى من مساعدته في الدِّين، وتوقُّع لحوقهم به في الجنة.

وتنكير الأعين لإرادة تنكير القُرَّة تعظيماً، فإنَّ المضاف لا سبيلَ إلى تنكيره إلَّا بتنكير المضافِ إليه.

وإنما قيل: ﴿أَعْيُنٍ﴾ على القِلَّة، دون: عيون؛ لأن المرادَ أعينُ المتقين، وهي قليلٌ بالإضافة إلى عيونِ غيرهم.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: أئمَّةً يَقتدون بنا في أمرِ الدِّين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل، واكتفى بالواحد لدلالته على الجنس وعدم اللَّبْس، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] أو لأنَّه مصدر في الأصل، أو لأنَّ المرادَ: واجْعَل كلَّ واحدٍ منَّا، أو لأنَّهم كنفسٍ واحدةٍ؛ لاتِّحادهم في الطريقة واتفاقِ كلمتهم.

وقيل: جمعُ آمٍّ، كصائمٍ وصيامٍ، ومعناه: قاصدين لهم مقتدِين بهم، قيل في الآية:

٧٥) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾؛ أي: الغُرُفات؛ وهي العلالي في الجنَّة، فوحَّد اقتصاراً على الواحد الدالِّ على الجنس، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصبرهم على المشاقِّ مِن مضض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمُّل المجاهدات.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ دعاءٌ بالتعمير وبالسلامة، يعني: أنَّ الملائكة

يُحيُّونهم ويسلِّمونهم، أو يُحيِّي بعضُهم بعضاً ويُسلِّم عليه، وقرئ: ﴿يَلْقَونَ﴾(١) مِن لقي(٢).

***

(٧٦) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتونَ ولا يخرجونَ عنها.

﴿حَسُنَتۡ﴾؛ أي: الغرفة ﴿مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾: موضعَ قرار وإقامةٍ، وهي في مقابَلةِ: ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مِثْله إعراباً.

***

(٧٧) ـ ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾.

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ (ما) متضمِّنةٌ لمعنى الاستفهام، وهي في محلِّ النصب على المصدر، كأنه قيل: أيَّ عَبْءٍ يَعبأُ بكم؟ معناه: ما يصنع بكم ربِّي؟ مِن: عبأتُ الجيشَ، إذا هيَّأته.

﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾: لولا دعاؤه إيَّاكم إلى الإسلام، أو: لولا عبادتُكم له؛ أي: أنه خلَقكم لعبادته؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: الاعتبار عند ربِّكم لعبادتكم(٣)، أو: ما يَصنَع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهةً، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٥).

(٢) في (ف) و(ك): «يلقى».

(٣) في (ف) و(ك): «لعبادته».

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتُكم به حيث خالفتُموه[1].

وقيل: فقد قصَّرتم في العبادة، من قولهم: كذب القتالَ، إذا لم يُبالغ فيه.

وقرئ: (فقد كذَّب الكافرون)[2] منكم؛ لأن الخطاب لعامَّة الناس بما وجدَ في جنسهم من العبادة والتكذيب.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ جزاء التكذيبِ وأثَره ﴿لِزَامًا﴾ لازماً بكم، وإنَّما أُضمر من غير ذكرٍ للتهويل، أو التنبيه على أنه ممَّا لا يُكتنهُ كنهُه بالوصف.

وقرئ: (لَزاماً)[3] بمعنى اللزوم، كالثبات والثبوت.

***

---

(١) في (م): «خالفتموني».

(٢) قرأ بها ابن الزبير وابن عباس. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٦).

(٣) قرأ بها المنهال وأبان بن تغلب وأبو السمال. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿طسٓمٓ﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ بتفخيم الألف وإمالتها، وإظهار النُّون وإدغامها[1].

* * *

(٢) ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ الإشارة إلى آيات السُّورة.

﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ المظهِر للحقِّ مِن الباطل.

* * *

(٣) ـ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتلُها غمًّا ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مِن أجل امتناعِ قومِك عن الإيمان[2].

(لعلَّ) هنا للإشفاق؛ أي: أشفقْ على نفسِك بتخفيفِ هذا الغَمِّ والهَمِّ.

---

(١) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بإمالة فتحة الطَّاء، والباقون بإخلاص فتحها، وأظهر حمزة النُّون من هجاء سين عند الميم وأدغمها الباقون. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٥).

(٢) في هامش (ع): «من قال: لئلا يؤمنوا، فكأنه غفل فائدة إدخال فعل الكون. منه».

ولَمَّا كانَ مظنَّة أنْ يُقال: إنَّ ذلك لتنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى وتحصيلِ المرادات الإلهيَّة مِن الأوامر والنَّواهي تُدورِكَ[١] دفعُه بقوله:

(٤) ـ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ قاهرةً قاسرةً لهم على الإيمان، أُشيرَ إلى ذلك بقولِه: ﴿عَلَيْهِم﴾؛ يعني: أنَّ إيمان تلك الطَّائفة ليس بمرادٍ لنا، إنَّما المرادُ مِن بعثِكَ تبليغُ أحكامِ التَّكليفِ على ما تقتضيه الحكمة، فليس أمرُنا عن إرادةٍ، ولا نهيُنا عن كراهةٍ.

﴿فَظَلَّتْ﴾ عطف على ﴿نُنَزِّلْ﴾، عطفَ (أكنْ) على (أَصَّدَّق)[٢]؛ لأنَّه لو قيل: أنزلنا، بدله لصحَّ.

﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ الخضوعُ أمارةُ الانقياد اللَّازم للإذعان، وهو المراد هاهنا[٣] بطريق الكناية، أصله: فظلُّوا لها خاضعين، فأقحِمَتِ الأعناق لبيان موضعِ الخضوع[٤]، وتُرِكَ الخبرُ على أصله، وفي الكناية المقصودة مِن عبارة الخضوع إشارةٌ إلى أنَّ قهر تلك الآية قهرُ حجَّةٍ وبرهانٍ، فلا يفوت الاختيار المعتَبر في صحَّة الإيمان.

* * *

(١) «تدورك» من (م) و(ي) و(ع).

(٢) يعني ما في سورة المنافقون: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾.

(٣) في (ع) و(ي): «هنا».

(٤) في هامش (ع) و(م): «قال المرزوقي: الخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن، يقال: خاشع الطرف، خاضع العنق. منه».

(٥) ـ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾؛ أي: ما يجدِّد[1] لهم اللهُ تعالى بوحيه على نبيِّه موعظةً وتذكيراً إلَّا استمروا على ما اعتادوا عليه مِن الإعراض.

* * *

(٦) ـ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ حذفُ المفعولِ إشارةٌ إلى أنَّ تكذيبَهم تجاوَزَ عن حدِّ الخصوص إلى حدِّ العموم؛ فإنَّ تكذيبَهم محمَّداً عليه الصلاة والسلام كان تكذيباً لسائر الأنبياء المخبِرين عنه والمبشِّرين به، بل تكذيباً لله تعالى أيضاً، والفاء في قوله[2]:

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ فصيحةٌ، تُفصِحُ عن محذوفٍ معطوفٍ على المذكور، تقديره: واستهزؤوا به.

﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إتيانُ الخبرِ: عبارةٌ عن وقوعِ المحذورِ المنتَظرِ، وهذا وعيدٌ لهم، وإيذانٌ بأنَّهم سيعلمون ـ إذا مسَّهم العذابُ يومَ بدرٍ أو يومَ القيامةِ ـ الشَّيءَ الذي كانوا يستهزئون به.

* * *

(٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ﴾ الواو للعطف على محذوفٍ، تقديره: ألم يتأمَّلوا في عجائب قدرةِ اللهِ تعالى، ولم ينظروا إلى الأرض؟!

---

(١) في (ك) و(م): «جدد».

(٢) «قوله» من (ك) و(م).

﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ﴾ الزَّوجُ: اللَّونُ؛ قاله الفرَّاء[١]، و﴿كُلِّ﴾ للإحاطة، و﴿كَمۡ﴾ للكثرة.

﴿كَرِيمٍ﴾: كثيرِ المنفعة، يأكل منه[٢] النَّاسُ والإنعامُ، كالرَّجلِ الكريمِ الذي نفعُه عامٌّ.

وفيه دلالةٌ على كمال القدرةِ، ولذلك قال:

(٨) - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: إنباتِ تلك الأنواع ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ عظيمةً على أنَّ مُنبِتَها تامُّ القدرةِ عامُّ النِّعمةِ والرَّحمةِ ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: مصدِّقين.

و﴿كَانَ﴾ هنا صلة في قول سيبويه[٣]، وهذا إخبار عن حالهم في الواقع، لا عن حالهم في علم الله تعالى.

* * *

(٩) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: المنيعُ الذي لا يغالَبُ، فليسَ لعجزِه وضعفِه طالَتْ مدَّةُ هؤلاءِ في الشِّرك والعتوِّ.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فلا يعجِّلُ في عقوبتهم؛ إذ لا يَخاف الفوت، ويقبل توبةَ مَن تابَ منهم قبل الموت.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٨).

(٢) في (ي): «منها»، وسقطت من (ف) و(ك).

(٣) انظر: «الكتاب» (١/ ٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١١).

ولَمَّا كانَ مساقُ الكلام في بيان القُدرةِ قدَّمَ صفة العزَّة على الرَّحمة، والرَّحمة إذا[١] كانت عن قدرةٍ كانَت أعظمَ وقعاً.

***

(١٠) ـ ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ مقدَّر بـ (اذكر)[٢]، أو ظرفٌ لِمَا بعدَه[٣].

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾: (أن) مصدريَّة أو تفسيريَّة.

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم، أو لبني إسرائيل.

***

(١١) ـ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾.

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ عطفُ بيانٍ، وليس فيه اقتصارٌ على قومِه، بل اكتفاءٌ بالدِّلالة في جانبه، وإيماءٌ[٤] للإشارة إلى أن[٥] ظُلْمَ قومِه لاتِّباعِهم له.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئنافٌ للتَّعجُّب من إفراطهم في الظُّلم واجترائهم عليه، وقرئ بالتَّاء[٦] على الالتفات للتَّوبيخ والحثِّ.

---

(١) في (ف): «الرحمة إن» بدل «الرحمة، والرحمة إذا».

(٢) في (ف): «بأن ذكر».

(٣) أي: لـ ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وليس بذاك عند الآلوسي. انظر: «روح المعاني» (١٩/ ١٤٥).

(٤) في (ع) و(ف) و(ي): «واعتناء»، وسقط من (ك)، والمثبت من (م).

(٥) «أن»: ليست في (م).

(٦) نسبت لعبد الله بن مسلم بن يسار. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

وأصلُ الاتِّقاءِ: صرفُ الأمرِ لحاجزٍ بينه وبين الصَّارف، والمرادُ: اتِّقاءُ العِقابِ بالطَّاعةِ.

***

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الخوفُ: انزعاجُ النَّفسِ بتوقُّع الضَّررِ.

﴿أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ لتكذيبهم إيَّايَ، مستأنَفٌ أو عطفٌ على ﴿أخاف﴾.

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ على ما أرى مِن المحال، وأسمعُ من الجدال.

وينصبهما يعقوبُ[١] عطفاً على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، فالخوف متعلِّقٌ بهذه الثَّلاثة على هذا التَّقدير، وبالتَّكذيب وحدَه بتقدير الرَّفع.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ أي: أرسل إليه جبريلَ واجعله نبيًّا يُعينني على الرِّسالة، ولم يكنْ هذا الالتماس منه عليه السلام توقُّفاً في الامتثال، بل التِماسُ عونٍ في تبليغ الرِّسالة، وتمهيد العذر[٢] في التماس المعين على تنفيذ الأمر، وكفى بطلب العون دليلاً على التَّقبُّل لا على التَّعلُّل، ومِن الدَّليلِ على ذلكَ وقوعُ ﴿فَأَرْسِلْ﴾ معترِضاً بين الأوائل والرَّابعة[٣]؛ فإنَّه لو كان تعلُّلاً لأخِّر[٤].

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٥).

(٢) «وتمهيد العذر» سقطت من (ف) و(ك)، وفي (ع): «وتمهيد القدر».

(٣) في (ف): «الأول والرابع»، وفي (ك) و(م): «الأولى والرابعة».

(٤) في (م): «لأضر»، وفي (ف) و(ك): «لضر».

(١٤) - ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾: دعوى جُرْمٍ، وهو قتلُ القِبْطيِّ.

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ كان عندَه عليه السلام خوفان: خوفُ تلفِ النَّفسِ، وخوفُ فواتِ مصلحة الرِّسالة، وإنَّما قدَّم الثَّاني على الأوَّل تقديماً لمصلحة الرِّسالة على مصلحة نفسه كما هو اللَّائق بشأن أولي العزم مِن الأنبياء عليهم السلام.

***

(١٥) - ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ﴾ إجابةٌ له إلى الطِّلبتَيْن بوعدِه للدَّفع اللَّازم ردعه[1] عن الخوف، وضمِّ أخيه إليه في الإرسال.

والفاء فصيحةٌ دلَّتْ على محذوفٍ تقديرُه ظاهرٌ مِن التَّفصيل في موضعٍ آخر، حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا﴾ الآية [الفرقان: ٣٥-٣٦]، فالخطاب في ﴿فَاذْهَبَا ﴾ على تغليب الحاضر؛ لأنَّه عطف على الفعل الذي دلَّ عليه ﴿كَلَّا ﴾، كأنَّه قيل: ارتدعْ يا موسى عمَّا تظنُّ، فاذهَبْ أنت والذي طَلَبْتَه، وهو هارون.

﴿إِنَّا مَعَكُم ﴾ يعني: موسى وهارون عليهما السلام وفرعون.

﴿مُّسْتَمِعُونَ ﴾ الاستماعُ من السَّمع بمنزلة النَّظر من الرُّؤية، والكلام من قَبيل التَّمثيل، والمراد: إنَّا لكما ولعدوِّكما كالنَّاصر الظَّهير لكما عليه إذا حضر واستمع

---

(١) في (ع) و(ي): «وردعه»، وفي (ف): «دعه». والمثبت من (ك) و(م)، وهو الموافق لكلام البيضاوي، وقال الشهاب في شرحه: «ردعه» مفعول «اللازم»، ويجوز أن يكون فاعله؛ أي: اللازم له ردعه. وقوله: «للدفع»؛ أي: لدفع بلائهم. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٧).

ما يجري بينكما وبينه، فالمفردات[١] على حقائقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

***

(١٦) - ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ﴾ له[٢] ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويجوز أنْ يُقال: أفردَ الرَّسولَ لاتِّفاقِ كلمتِهما، أو أفرد هنا[٣] وثنَّى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وذلك لأنَّه كان في هارون عليه السلام جهتان؛ جهة الرِّسالة مِن الله تعالى، وجهة الوزارة لموسى عليه السلام على ما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥]، فحين قيل: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[٤] [طه: ٤٧] نظر إلى جهة رسالته من الله تعالى، وحين قيل: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥] نظر[٦] إلى جهة وزارته لموسى عليه السلام، ولكون موسى عليه السلام أصلاً في باب الرسالة كان مخاطبة فرعون إياه ومجادلته معه خاصَّة. وإنَّما زِيدَ قوله: (له)[٧] لعدم كاف الخطاب المغني عنه.

---

(١) في (م): «فالمرادات».

(٢) «له» سقط من (ف) و(ك) و(م)، ووقعت في (ع) و(ي) ضمن الآية، وهو مراد المؤلف ظناً منه أنها من الآية كما هو واضح من كلامه فيما سيأتي عند نهاية تفسيرها.

(٣) في (ك) و(م): «هاهنا».

(٤) «فقولا» سقط من (ف).

(٥) «فقولا» سقط من (ك) و(م).

(٦) في (م): «نظرا».

(٧) «له» سقط من (ف)، والمثبت من باقي النسخ، وهذا سهو من المؤلف رحمه الله حيث ظنها من الآية.

(١٧) ـ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: بـأن أطلـق بنـي إسـرائيل عن أسـر الاسـتعباد، وخلِّهـم يذهبـوا حيـث شـاؤوا، وهـو كإرسـال[1] الصَّيد وأهـل القيد.

***

(١٨) ـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ لموسى بعدَ ما أتياه وقالا له ذلك:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ التَّربيةُ: تنشئةُ الشَّيء حالاً بعدَ حالٍ.

﴿فِينَا﴾: في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾: طفلاً، سُمِّيَ به لقربه مِن الوِلادة.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: مكثَ فيهم ثلاثينَ سنةً.

***

(١٩) ـ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلَ القِبطيِّ. وبَّخَهُ به معظِّماً إيَّاه[2] بعدما عدَّدَ عليه مِن نِعمتِهِ، وإنَّما عرَّضَ رعايةً لدأبِ الملوكِ.

وقرئ: (فِعْلَتَكَ) بالكسر[3]؛ لأنَّها كانَتْ قِتلةً بالوَكْزِ[4].

---

(١) في (ك) و(م): «كأرسل».

(٢) قوله: «وبخه به»؛ أي: بذلك القتل، وتعظيمُ القتل بما في الموصول من الإبهام الذي يستعمل لذلك كما في نحو: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] كأنه أمر لا يمكن الإحاطة به ومعرفة كنهه، وفيه أيضا تلطف به لعدم التصريح بذنبه. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٩).

(٣) نسبت للشعبي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥).

(٤) قوله: «قِتلةً» بكسر القاف، و(فِعْلةٌ) للهيئة والفعلِ المخصوص، كما أشار إليه بقوله: «بالوكز»، وهو الضرب بجمع كفه، وعلى الفتح هو للمرّة. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٩).

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بنعمتي، حيث قتلْتَ خبَّازي.

***

(٢٠) ـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾؛ أي: إذ ذاك ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: الجاهلين، وقد قرئ به[1]، والمعنى: مِن الفاعلين فِعلَ أولي الجهلِ، أو: مِن الذَّاهِلين عمَّا يؤول إليه الوَكْزُ؛ لأنَّه أراد به التَّأديب.

والضَّالُّ عن الشَّيء: هو الذَّاهِبُ عَن معرفتِه.

***

(٢١) ـ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ الفِرارُ: الذَّهابُ على وجهِ التَّحرُّزِ مِن الإدراكِ ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أنْ تقتلوني[2].

﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾: حكمةً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مِن جُملةِ رُسُلِهِ.

***

(٢٢) ـ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (تلك) إشارةٌ إلى خصلة شنعاءَ مبهمةٍ لا يُدرى ما هي إلَّا بتفسيرها.

---

(١) نسبت لابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥).

(٢) في (ف) و(م) و(ك): «تتفقدوني».

ومحلُّ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرَّفعُ عطفَ بيانٍ لـ (تلك)؛ أي: تعبيدك[١] لبني إسرائيل نعمةٌ تمنُّها عليَّ! كرَّ على امتنانِه عليه بالتَّربية فأبطلَه من أصلِه، وأبى أن[٢] يسمي نعمته إلَّا نقمة، حيثُ[٣] بيَّنَ أنَّ حقيقةَ إنعامِه عليه تعبيدُ بني إسرائيل؛ لأنَّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السَّبب في حصوله عنده وتربيته، ولو تركهم لربَّاه[٤] أبواه، فكأنَّ فرعونَ امتنَّ على موسى عليه السلام بتعبيد قومه وإخراجه مِن حجر أبوَيْه إذا حُقِّقَتْ[٥].

وتعبيدُهم: تذليلُهم واتِّخاذُهم عبيداً.

ووحَّد الضمير في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و﴿عَبَّدتَّ﴾ وجمع في ﴿مِنكُمْ﴾ و﴿خِفْتُكُمْ﴾؛ لأنَّ الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكنَّه منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله.

***

(٢٣) ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لَمَّا سمع جوابَ ما طَعن به فيه[٦]، ورأى أنَّه لم يَرْعَوِ بذلكَ، شرعَ في الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسِل.

---

(١) في (ف) و(م): «والمعنى أن تعبيدك»، وفي (ك): «والمعنى أن تعبدك»، بدل: «أي تعبيدك».

(٢) في (ع): «والى» بدل «وأبى أن».

(٣) في (ك) و(م): «حين».

(٤) في (ف) و(م): «ولو تركه لربه».

(٥) قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١١/ ٣٧): (قوله: (إذا حققت)؛ أي: إذا حققت التربية والمنة التي امتن بها فرعون على موسى عليه السلام كانت تعبيد بني إسرائيل نقمة لا نعمة، فهو من تعكيس الكلام، ويروى: (حقَّقْتَ) بفتح التاء؛ أي: إذا حققت النظر أيها المخاطب).

(٦) «فيه» من (ك) و(م) و(ي)، وسقطت «به» من (ي).

(٢٤) ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ عرَّفَه بأظهر خواصِّه وآثارِه لَمَّا امتنعَ تعريفُ حقيقتِه.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: إنْ كنتم تعرفون الأشياء بالدَّليل، فكفى[١] خلقُ هذهِ الأشياءِ دليلاً، وإن كان يُرْجَى منكم الإيقانُ الذي يؤدِّي إليه النَّظرُ الصَّحيح نفعَكم هذا الجواب، وإلَّا لم ينفعْ.

والإيقانُ: العلمُ الذي يُستَفادُ بالاستدلال، ولذا لا يُقالُ: اللهُ موقِنٌ.

***

(٢٥) ـ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِن أشرافِ قومِه:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ مُعجِّباً قومَه مِن جوابه؛ لأنَّهم يزعمون قدَمهما[٢] وينكرون أنَّ لهما ربًّا، فاحتاجَ موسى عليه السلام إلى أن يستدلَّ بما شاهدوا مِن حدوثِه وفنائِه.

***

(٢٦) ـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ عدولاً إلى ما لا مجال للنِّزاع فيه، وإنَّما قال:

﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لأنَّ فرعون كان يدَّعي الرُّبوبيَّة على أهل عصره، دونَ مَن تقدَّمهم.

---

(١) في (م): «فيكفي».

(٢) في (ع) و(ي): «قومهما»، ومكانها بياض في «ف»، وسقطت من (ك). والمثبت من (م)، والضمير يعود على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٢٧) ـ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أسـألُه عن شـيءٍ ويجيبُني عن آخر!

وسمَّاه رسولاً سخريةً، وترفَّعَ[١] عن نسبته إلى نفسه ولو سخريةً، ولذلك لم يقل: (إلينا).

***

(٢٨) ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ انتقلَ إلى هذا لأنَّ طلوعَ الشَّمس مِن أحد الخافِقَين وغروبها في الآخر على تقديرٍ مستقيمٍ في فصول السَّنة، وحسابٍ مستوٍ، مِن أظهرِ ما استدلَّ به[٢]، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليلُ الرَّحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾؛ أي: إنْ كانَ لكـم عقـلٌ علمتـم أنَّـه لا يمكنُ معرفتُـه إلَّا بهذا الطَّريق.

***

(٢٩) ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

فلمَّـا تحيَّـر فرعونُ ولم يتهيَّأ لـه أنْ يَدفعَ ظهورَ آثـار صنعِه ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ عُـدولاً إلـى التَّهديـد عـن المحاجَّـة بعـد الانقطـاع، وهكذا دَيْـدَنُ المعانِـدِ المحجوجِ.

---

(١) في (ف): «وترفعاً».

(٢) في (م) زيادة: «وأظهره».

واللَّام في ﴿ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد؛ أي: ممَّنْ عرفْتَ حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سَجنه فيطرحَه في هوَّةٍ ذاهبةٍ في الأرض، بعيدةِ العمقِ، فرداً لا يُبصرُ فيها[١] ولا يسمعُ، وكان ذلك أشدَّ من القتل، ولو قيل: (لأسجننك) لم يؤدِّ هذا المعنى، وإن كان أَخْصَرَ.

***

(٣٠) ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحال، وهمزة الاستفهام إنَّما دخلَتْ على الفعل المقدَّر، والمعنى: أتفعل ذلك ولو جئتك.

﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ صِدْقَ دَعوايَ؛ يعني: المعجزة.

***

(٣١) ـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ﴾: بالذي يبيِّنُ صِدقَكَ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أنَّك قادر على إتيانه، وهذا الكلام بمعزَلٍ عن الدِّلالة على أنَّ المعجزة لا يأتي بها إلَّا الصادق[٢].

***

(٣٢) ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: حيَّةٌ عظيمةٌ، يُقال: انثعبَ الماءُ: إذا جرى

---

(١) «فيها» ليست في (ف) و(ك).

(٢) في (ي) و(ع): «لا تأتي بهذا الصادق».

باتِّساعٍ، والمثعَبُ: المجرَى الواسِع، ومنه: الثُّعبانُ؛ لأنَّه يجري باتِّساعٍ لعظمه(١).

والجانُّ أيضاً: هو العظيم من الحيَّات، ذكره في «الفائق»(٢).

فلا تَدَافُعَ بينَ هذا وبينَ قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، على أنَّ المشابهة للجانِّ في الاهتزاز لا ينافي الثُّعبانيَّة، على تقدير المخالفة بينهما في القَدْرِ.

﴿مُّبِينٌ﴾ أبانَ عن نفسه أنَّه ثُعبانٌ حقيقةً، لا شيءٌ يشبه الثُّعبان، كما تكون الأشياء المزوَّرة بالشَّعوذة(٣) والسِّحر.

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ أي: أخرجَها مِن جيبِه أو كمِّه. والنَّزْعُ: إخراجُ الشَّيءِ ممَّا كان(٤) متَّصلاً به، أو ملابساً له.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ لها شُعاعٌ يكاد يُغشي الأبصار ويسدُّ الأفق.

وفي قوله: ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ بياضها كان شيئاً يجتمع(٥) النَّظَّارَةُ(٦) على النَّظر إليه؛ لخروجه(٧) عن العادة.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ي): «العظمته».

(٢) انظر: «الفائق» (١/ ٢٣٩) (مادة: جنن).

(٣) في (ك): «بالشعبذة».

(٤) «كان» سقط من (ي).

(٥) في (ك): «تجتمع».

(٦) النَّظَّارَةُ: القوم ينظرون إلى الشيء. انظر: «الصحاح» (مادة: نظر).

(٧) في (ك) و(م): «بخروجه».

(٣٤) ـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾: للأشراف[١]؛ ليلبِّسَ عليهم.

﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ منصوب بنصبيْن؛ نصب في اللَّفظ، والعامل فيه ما يُقدَّر في الظَّرف، ونصب في المحلِّ وهو النَّصب على الحال من الملأ؛ أي: كائنين حولَه، والعامل فيه ﴿قَالَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: فائِقٌ في علم السِّحر.

***

(٣٥) ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ بأنْ يُلقِي العَداوةَ والفُرْقةَ بينكم، ويستميل بعضَكُم ليحارِبَ به بعضَكُم، فيخرجَكُم مِن بلادِكم.

﴿فَمَاذَا﴾ منصوب لأنَّه مفعول به، من قولك: أمرتُكَ الخيرَ[٢].

﴿تَأْمُرُونَ﴾: تشيرون في أمرِه، من المؤامَرة، وهي المشاوَرة.

***

(٣٦) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أخِّر أمرَهما، وإنَّما أشاروا بذلك لأنَّهم رأوا أنَّ

---

(١) في (ك): «الأشراف».

(٢) قطعة من بيت اختلف في نسبته، فنسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. انظر: «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، وتمامه:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

النَّاس يُفتَنون إنْ قُتِل أو حُبِس، وأنَّ السَّحرة إذا قاومَتْه زالَ ذلك الافتتان، فكان له حينئذ عُذْرٌ في قتلِه أو حبسِه بحسب ما يراه.

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: رجالاً يحشرون. والحشرُ: السَّوقُ مِن جهاتٍ مختلفة إلى مكانٍ واحدٍ.

ثم إنَّهم عارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم:

(٣٧) ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصيغةِ المبالغة ليسكِّنوا بعضَ قلقِه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي: أَنفذ الحاشرين في المدائن، وأنهم حَشَروا فجمعوا السَّحرة، فالفاء فصيحة.

﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: يومِ الزِّينة، وميقاتُه: وقتُ الضُّحى؛ لأنَّه الوقت[1] الذي وقَّتَ لهم موسى عليه السلام في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

والميقاتُ: ما وُقِّتَ به ـ أي: حُدِّدَ ـ مِن زمانٍ أو مكانٍ، ومنه مواقيت الإحرام.

* * *

(١) في (ي): «وقت».

(٣٩) ـ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾؛ أي: اجتمِعوا، وهو استبطاءٌ لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم.

***

(٤٠) ـ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دِينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾: إن غلبوا موسى عليه السلام، وليس غرضُهم اتِّباع السَّحرة، وإنَّما الغرضُ أنْ لا يتَّبعوا موسى عليه السلام، فساقوا الكلامَ مساقَ الكناية.

والغَلَبة: الاستعلاءُ بالقوَّةِ.

***

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ الأجرُ: الجزاءُ على العمل بالخير، وإذا كان بالشَّرِّ يُسمَّى عقاباً.

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾؛ أي: حينئذٍ ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ التزمَ لهم الأجرَ، والقُرْبَةَ عنده زيادةً عليه إنْ غَلَبوا[1].

***

(١) في (ف): «غلبوه»، وفي (ك): «غلبه».

(٤٣) ـ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لم يُرِدْ به أمرَهم بالسِّحر والتَّمويه، بل الإذنُ في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة؛ توسُّلاً به إلى إظهار الحقِّ، ولذلك زاد قوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ فإنَّ قوله: ﴿أَلْقُوا۟﴾ كان كافياً في جوابهم حين قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥].

***

(٤٤) ـ ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ ﴾؛ أي: جاؤوا بسحرٍ عظيمٍ وقالوا، فالواو فصيحةٌ .

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أقسموا بعزَّته، وهي مِن أيمان الجاهليَّة. والعزَّةُ: القدرةُ[1] التي يُمتَنع بها مِن إلحاقِ ضيمٍ لعلوِّ منزلَتِها.

***

(٤٥) ـ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ الفاءُ فصيحةٌ تنبئ عن مقدَّر ذُكِرَ في سورة الأعراف.

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ التَّلقُّفُ: تناول الشَّيء بالفم بسرعة.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: ما يخيلونه[2] منقلِباً عن وجهه بتمويههم وتزويرهم، أو: إفكَهم؛ تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

---

(١) في (ع) و(ي): «القوة».

(٢) في (ف) و(م): «يحيلونه»، وفي (ع): «يحبونه».

(٤٦) ـ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لعلمهم بأنَّ مثلَه لا يتأتَّى بسحرٍ.

وعبَّرَ عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنَّه ذُكِرَ مع الإلقاءات، ولسرعةِ ما سجدوا كأنَّهم أُلْقُوا.

* * *

(٤٧) ـ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بدلٌ مِن (ألقي) بدلَ الاشتمال، أو استئنافٌ.

* * *

(٤٨) ـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ عطفُ بيانٍ لـ ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّهم أرادوا به فرعون، لأنَّه حين حشر جنوده نادى فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

* * *

(٤٩) ـ ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾؛ أي: لموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فعلَّمكم شيئاً دون شيءٍ، فلذلك غلبَكُم، وواعدَكُم ذلك، وتواطأتم عليه، وقد أفصح عن ذلك في سورة الأعراف، وأراد به التَّلبيس على قومِه كيلا يعتقدوا أنَّهم آمنوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقٍّ.

﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ما قصدتم، فالفاء فصيحةٌ، ومدخولُها مرتبِطٌ

بمحذوفٍ، وهو على ما ذكر في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ثمَّ خبَّرَ بما كَنى عنه فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ مِن كلِّ[1] شِقٍّ طرفاً، وهذه الطَّريقةُ في السِّياسة على الحكمة؛ فإنَّه حينئذٍ لا ييأس الجاني عن الحياة والتَّعيُّش، فيكون القتلُ بعدَه سياسةً أخرى، بخلافِ ما إذا قُطِعا مِن شِقٍّ واحدٍ، فإنَّه حينئذٍ يكون القتلُ راحةً وإزاحةً للعذابِ المَحْضِ.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لا أتركُ أحداً منكم لا[2] تنالُه عقوبتي.

***

(٥٠) ـ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾: لا ضررَ، وخبر ﴿لَا﴾ محذوفٌ؛ أي: في ذلك، أو: علينا.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ قد تقدَّم تفسيرُه في سورة الأعراف.

***

(٥١) ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ الطَّمعُ: طلبُ النَّفسِ للخير الذي يُقدَّر فيها أنَّه يكون.

﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾؛ أي[3]: ما فعلناه مِن السِّحر وغيره. والخطيئةُ: الزَّوالُ عن الاستقامة المؤدِّية إلى الثَّوابِ.

﴿أَن كُنَّا﴾: لأنْ كنَّا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن أتباعِ فرعونَ، أو مِن أهلِ المشهدِ.

---

(١) «كل» سقط من (ف) و(م) و(ك).

(٢) في (ف): «إلا».

(٣) «أي» من (م).

والجملةُ في المعنى تعليلٌ ثانٍ لنفي الضَّير، أو تعليلٌ للعلَّة المتقدِّمة.

وقرئ: (إنْ كنَّا)[1] على الشَّرط؛ لهضم النَّفس وعدم الثِّقة بالخاتمة، أو على طريقة الـمُدِلِّ[2] بأمرِه، المتحقِّقِ لصحَّته[3].

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ وكانَ هذا بعدَ سنين مِن إيمان السَّحرة.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾: ببني إسرائيل، وإضافتَهم إلى نفسه للتَّشريف؛ لأنَّهم آمنوا به وصدَّقوا نبيَّه. والإسراءُ: السَّير في اللَّيل، وإنَّما زِيْدَ قولُه:

﴿ليلاً﴾ لأنَّ المرادَ: السَّيرُ في معظمه، لا في أوائله أو أواخره.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: يتَّبعُكم عدوُّكم، وهو علَّةُ الأمر بالسَّير في الوقت المذكور، فإنَّهم لو ساروا في أوَّل اللَّيل لتبعه العدوُّ في الحال، فلا يحصل لهم التَّقدُّم، وكذا لو ساروا في آخره.

* * *

(٥٣) ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾؛ أي: ففعلَ موسى عليه السلام ذلك فخرجوا، فأُخْبِرَ بذلك فرعونُ فأرسلَ، فالفاء فصيحة.

﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: مدائن مصر.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(٢) في (ف) و(ك): «المدلول».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «بصحته».

وتعديـة (أرسـل) بــ ﴿فِي﴾ دون (إلـى) للتَّنبيـه على الاسـتعجال منه وسـرعةِ الامتثـال مِـن الرُّسـلِ، وعلـى أنَّ ملـكَ مصـر كان معمـوراً فـي عهده، بحيث سـار الرُّسـلُ كمـا خرجـوا مِن عنـده فـي المدائن.

وفيه كسر استبعاد ما[1] ذكر في كثرة[2] جنده.

﴿حَٰشِرِينَ﴾ العساكرَ ليتَّبعوهم:

* * *

(٥٤) ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ على إرادة القول. والشِّرْذِمَةُ: الجمعُ المحتَقَرُ، ذكرهم بالاسم الدَّال على القلَّة، ثمَّ وصفَهم بها، وأتى بصيغة الجمع باعتبار الأسباط، واختار جمع السَّلامة الذي هو للقلَّة، وإنَّما[3] استقلَّهم وكانوا ستَّ مئة ألف وسبعين ألفاً لكثرةِ مَن معه[4].

* * *

(٥٥) ـ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ لفاعلون ما يَغيظنا بخروجهم مِن مِصرَ بلا إذنٍ منَّا، وذهابهم بأموالنا التي استعاروها.

* * *

---

(١) «ما» سقط من (ع).

(٢) في (ف): «وفيه كثير استبعاد ما ذكره في أكثر جنده».

(٣) في (ف): «وإن».

(٤) أو لشدة استهانته بهم وأنهم مع كثرتهم لا يغنون شيئا.

(٥٦) ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وقرئ: ﴿حَـذِرُوْنَ﴾[1]، فالحـذرُ: اليقظُ، والحـاذِرُ الذي يجدِّد حـذرَه[2].

يعني: نحنُ قومٌ مِن عادتنا التَّيقُّظُ والحذرُ واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارِجٌ سارعنا إلى حسمِ فسادِه.

وهذه معاذيرُ اعتذرَ بها إلى أهلِ المدائن؛ لئلا يُظَنَّ به العجزُ والفتورُ.

***

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بإحداثَ الدَّاعي على الخروج.

﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ﴾ إنَّما خصَّها لأنَّ أموالهم الظَّاهرة قد انطمسَتْ، ومَن غفلَ عن هذا قال: سمَّاها كنوزاً لأنَّهم لم ينفقوا منها في طاعة الله.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: بهيٍّ بهيجٍ.

***

(٥٩) ـ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل النَّصبَ على: أخرجناهم مثلَ ذلك الإخراج، والجرَّ على أنه صفة (مقامٍ)؛ أي: مثلِ ذلك[3] المقام الذي كان لهم، والرَّفعَ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: الأمرُ كذلك.

---

(١) قرأ الكوفيون وابن ذكوان بالألف، وباقي السبعة بغير ألف. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٥).

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «فالحذر اليقظة والحذر الذي يحذر حذره».

(٣) «ذلك» ليست في (ف) و(ك).

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عن الحسنِ: لَمَّا عبروا النَّهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم(١).

* * *

(٦٠) - ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ يقال: أَتْبعَ فلانٌ فلاناً وتبعَهُ: إذا اقتفى أثَره(٢).

وقالَ الزَّجَّاجُ: يُقال: شَرَقَتْ: إذا طَلَعَتْ، وأشرَقَتْ: إذا أضاءَتْ(٣).

* * *

(٦١) - ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: تقابَلا بحيثُ يَرى كلٌّ منهمُ الآخرَ.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: لملحَقون.

* * *

(٦٢) - ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركوكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى وعدَكُم الخلاصَ عنهم.

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾؛ أي: وعدَ ربِّي(٤).

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٢).

(٢) في هامش (م): «من وهم أن الإتباع هنا بمعنى اللحوق فقد وهم، كيف ويأباه قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا﴾ الآية. منه».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٢).

(٤) في (ف): «أي وعدني ربي». وجاء في هامش (م): «لو كان المراد المعية بالحفظ والنصرة لكان الأنسب أن يقال: إن معنا ربنا. منه».

﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النَّجاةِ، ويجوز أن يكونَ مِن قَبيلِ التَّمثيل.

* * *

(٦٣) ـ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾: بحرَ القُلْزُم[١].

﴿فَانفَلَقَ﴾؛ أي: فضربَ فانفلقَ فانشقَّ فصار اثني عشر فِرْقاً على عدد الأسباط.

وفي حذف الفعل وترتيبِ الانفعال على الأمر المذكور في الظَّاهر إشعارٌ بأنَّ ذلك الأمرَ الخارق أثرُ أمرِه تعالى، لا أثرُ ضَرْبِ موسى عليه السلام.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾: كالجبل المنيف الثَّابت في مقرِّه، فدخلوا في شِعابها، كلُّ سبطٍ في شعبٍ[٢].

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: وقرَّبنا ﴿ثَمَّ﴾: حيثُ انفلق البحر ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعونَ وقومَه، حتى دخلوا على أثرِهم مداخلَهم.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظِ البحرِ على تلك الهيئةِ إلى أنْ عَبروا.

وإنَّما قالَ: ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾، ولم يقل: قومه؛ لينتظِمَ مؤمنَ آلِ فرعون؛ فإنَّه كانَ بينَ يدَي موسى عليه السلام.

---

(١) هو البحر الأحمر. وفي (ف) و(م) و(ك): «قلزم».

(٢) «في شعب» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

ويدلُّ على أنَّ نجاتهم كانت لبركةِ مصاحبتِهم[١] موسى عليه السلام ومتابعتِه.

* * *

(٦٦) - ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ بإطباقِ البحرِ عليهم، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دلَّتْ على تأخُّر الهالكين عن خروج النَّاجين، وذلك بحبس[٢] جبريل أوَّلَهم ليَلحقَ به آخرُهم، لا يَشَذَّ منهم أحدٌ.

* * *

(٦٧) - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: فيما فُعِلَ بموسى عليه السلام وفرعونَ ﴿لَآيَةً﴾: لعبرةً عجيبةً لا توصَفُ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما تنبَّه[٣] عليها أكثرهم؛ إذ لم يؤمن بها أحدٌ ممَّن بقي في مصر من القِبْط وبنو[٤] إسرائيل، بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها، واتَّخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[٥] [البقرة: ٥٥].

* * *

(١) في (ع) و(م): «مصاحبة»، وفي (ك): (مصاحبته».

(٢) في (ك): «بحث»، وفي (م): «بحبسان».

(٣) في (ف) و(ع): «تنبيه». ولعلها مع الحفاظ على الرسم: (يتنبه).

(٤) «وبنو» كذا في النسخ، ولعل رفعها جاء على الحكاية.

(٥) «لك»: ليست في (م) و(ع).

(٦٨) ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ غيرُ عاجزٍ عن الانتقام مِن أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يؤخِّرُ العذاب برحمته ليتوبَ منهم مَن تاب.

***

(٦٩) ـ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾: على مشركي العرب ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾: خبرَه العجيبُ الشَّأن.

***

(٧٠) ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾: أيُّ شيءٍ تعبدون؟ سألهم يريهم أنَّ ما يعبدونه ليس بمستحَقٍّ للعبادة.

***

(٧١) ـ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ كان السؤال عن المعبود لا عن العبادة، وإنَّما زادوا ﴿نَعْبُدُ ﴾ في الجواب افتخاراً ومباهاة بعبادتها، ولذا عطفوا على ﴿نَعْبُدُ ﴾:

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾: فنُقيم على عبادتها طول النَّهار، ويحتمل أن يكون (نظلُّ) بمعنى: ندوم، فلا يدلُّ على اختصاص عبادتهم بالنَّهار.

***

(٧٢) ـ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾: هل يجيبونكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴾؟

فإنَّ سَمِعَ بمعنى أجاب شائعٌ، ومنه: سمعَ اللهُ لمن دعَى، ولو كان (يسمعون) على معناه الحقيقيِّ لقيل: هل يسمعونكم تدعون؟

* * *

(٧٣) ـ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إنْ تركْتُم عبادَتها.

* * *

(٧٤) ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلْ﴾ إضراب؛ أي: لا تسمَعُ ولا تنفعُ ولا تضرُّ، ولا نعبدُها لشيءٍ[1] مِن ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقلَّدناهم.

* * *

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ فإنَّ التَّقدُّم لا يدلُّ على الصِّحة ولا ينقلب بها الباطل حقًّا.

* * *

(٧٧) ـ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ العدوُّ والصَّديقُ يجيئان في معنى الوحدة والجماعة، يعني: لو عبدتهم لكانوا أعداءً لي[2] إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

---

(١) في (ك): «بشيء».

(٢) «لي» من (ي) و(ع).

وقال الفرَّاء: هو مِن المقلوب؛ أي: فإنِّي عدوٌّ لهم(١).

وفي قوله: ﴿لِّيٓ﴾ دون: لكم، زيادةُ نصحٍ؛ ليكونَ أدعى لهم إلى القَبول.

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أو متَّصلٌ على أنَّ الضَّمير لكلِّ معبودٍ عبدوه، فيدخل فيه المعبودُ بحقٍّ، ولا حاجة إلى أنْ يُقالَ: وكان من آبائهم مَن عبدَ اللهَ؛ لأنَّهم أيضاً يعبدون الله إلَّا أنَّهم يشركون الأصنام في العبادة، دلَّ على ذلك قوله: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨].

* * *

(٧٨) ـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾ بالتَّكوين في القرار المكين.

﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ لـمَناجِح(٢) الدُّنيا ولمصالح الدِّين.

والاستقبال في ﴿يَهۡدِينِ﴾ مع سبقِ العناية بالهداية لأنَّه يحتمل: يهديني للأهمِّ الأفضل والأتمِّ الأكمل.

أو: الذي خلقني لأسبابِ خدمته فهو يهديني إلى آداب(٣) خلَّته.

والفاء للسَّببية إنْ جُعِلَ الموصولُ مبتدأً، وللعطف إنْ جُعِلَ صفةَ ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فيكون اختلافُ النَّظمِ لتقدُّم الخلق واستمرار الهداية.

* * *

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٧)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٥٦٧).

(٢) في (ك): «لمناهج»، ومثله في مطبوع «تفسير النسفي» (٢/ ٥٦٧).

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «لآداب».

(٧٩) ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ على الأوَّل مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ لدلالة ما قبلَه، وكذا[١] اللَّذان بعدَه.

وتكرير الموصول على الوجهين للدِّلالة على أنَّ كلَّ واحدةٍ من الصِّلاتِ مستقلَّة باقتضاءِ الحكم.

أضاف الإطعام إلى وليِّ الإنعام لأنَّ الرُّكون إلى الأسباب عادةُ الأنعام.

***

(٨٠) ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ لم يقلْ: أمرضني؛ لأنَّه قصدَ الذِّكْرَ[٢] بلسانِ الشُّكر، فلم يُضفْ إليه ما يقتضي الصَّبر[٣]، ولأنَّ ذلك لم يكون مقصوداً بذاته كسائر ما ذُكِرَ[٤] مِن أفعاله تعالى الكمالية، وإنَّما هو من[٥] روادف الطَّعام والشَّراب، ولهذا قال: ﴿وإذا مرضت﴾ على الفرض[٦]، فلم[٧] يَنسبه إليه تعالى نسبةَ البواقي؛ تنبيهاً على الفصل بينهما.

﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ إنْ شُفِيْتُ لا غيرُه، لا أنَّه يشفين لا محالة.

---

(١) في (م): «وكذلك».

(٢) في (ع): «الركن».

(٣) في (ع): «الضر»، وكذا في «تفسير النسفي» (٢/ ٥٦٨).

(٤) في (ي) و(ع): «سيرده»، ولعلها: «سيرد».

(٥) في (ي) و(ع): «في»، وسقطت من (ف) و(ك).

(٦) في (ف) و(ك) و(م): «العرض»، وفي هامش (م): «لعلها الفرض».

(٧) في (ي): «ولا».

(٨١) ـ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ﴾ لم يقل: إذا متُّ؛ لأنَّه الخروج مِن حبسِ البلاءِ ودارِ الفَناء إلى رَوضِ البقاء لوعد اللِّقاءِ، فليس هو كالمرضِ.

ولَمَّا كانت الإماتةُ والبعث ممَّا لا يمكن إسنادها[١] إلَّا إلى الله تعالى كالخَلْقِ، لم يَحتجْ إلى توكيدٍ، بخلاف الهداية والإطعام والإسقاء والشِّفاء، فإنَّه ممَّا يمكن إسنادها إلى غير الله تعالى.

وإنَّما أتى بأداة التَّراخي في قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ لأنَّه أرادَ الإحياءَ في الآخرة دون القبر، وبأداة التَّعقيب في الهداية والشِّفاء لأنهما يعقبان الخَلْق والمرض، وبأداة الجمع المطلق في السَّقي لأنه قد يَعقب الإطعامَ وقد يتأخَّر وقد يتقدم عليه[٢].

***

(٨٢) ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ ﴾ طمعَ العبيد في الموالي بالإفضالِ، لا على الاستحقاق بالسُّؤالِ.

﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ استغفارُ الأنبياء عليهم السلام تواضعٌ منهم لربِّهم، وهضمٌ لأنفسهم، وتعليمٌ للأمم في طلب المغفرة.

قدَّم الثَّناء على الله وذَكَره بالأوصاف الحسنة بين يدَي طَلِبته ومسألته، ثمَّ سألَه تعالى فقال:

***

(١) في (ك): «إسنادهما».

(٢) «عليه» سقط من (ف) و(م).

(٨٣) ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾: كمالاً في العلم والعمل لأنتظِم في عداد الكاملين في صلاح الدِّين[1] لا يشوب صلاحَهم كبيرُ ذنبٍ ولا صغيرُه.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾؛ أي: الأنبياءِ عليهم السلام، ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

***

(٨٤) ـ ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾؛ أي: ثناءً حسناً وذِكْراً جميلاً. وفي العبارة باللِّسان عن القول ما لا يخفى مِن البلاغة، وإنَّما أضافه إلى الصِّدق إضافةَ الموصوفِ إلى الصِّفة الدَّالة للاختصاص به والعَراقة فيه؛ احترازاً عن الإطراء في شأنه.

﴿فِي الْآخِرِينَ ﴾: في الأمم التي تجيء مِن بعدي، فأُعْطِيَ ذلك، فكلُّ أهلِ دينٍ يتولَّونه[2] ويثنون عليه بلا إطراء[3].

***

(٨٥) ـ ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: وارثاً من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ سألَه أن يفعل معه من الألطاف ما يختار عنده[4] الطَّاعات؛ لأن الجنة لا يُتنعَّم فيها إلَّا بالاستحقاق،

---

(١) في (ف) و(ك): «الذين».

(٢) في (ف) و(م): «يقولونه».

(٣) في (ك): «بالإطراء».

(٤) في (ع): «عنه»، وفي (ف) و(م): «عند».

وإنْ كان الدُّخول بمَحْضِ لُطْفِ الله تعالى، فلذلك قال: ﴿مِن وَرَثَةِ﴾؛ فإنَّ الوارث يأخذ الميراث بلا كَسْبٍ منه[١].

***

(٨٦) ـ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ طلبَ هدايتَه إلى الإيمان اقتضاءً؛ قضاءً لحق أبوَّته[٢]، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: استمرَّ على الضَّلال في الأزمنة الماضية، قاله تأسُّفاً وتلهُّفاً، لا إخباراً وإظهاراً، أو كان ذلك الطَّلبُ[٣] منه عليه السلام قبلَ أنْ[٤] مات أبوه، ولَمَّا ماتَ أبوه على الكفر فتبيَّن أنَّه عدوٌّ الله[٥] تبرأ منه[٦].

***

(٨٧) ـ ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ الإخزاءُ: مِن الخِزْيِ، وهو الهوان، أو مِن الخزاية، وهي الحياء.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضَّمير للنَّاس لأنَّه معلوم؛ أي: لا تخزني على رؤوس المعشر بتعذيب أبي يوم المحشر[٧]، فهو مِن تتمَّة الاستغفار لأبيه.

---

(١) في هامش (م): «فكل من الوراثة وإضافة النعيم إلى الجنة لايخلو عن دقيقة أنيقة. منه».

(٢) في (م): «أبويه».

(٣) في (م): «للطلب».

(٤) بعدها في (ف) و(ك): «كان».

(٥) في (ع): «انه عدو أبعد».

(٦) في هامش (م): «من قال: إنما استغفر له بعد موته على الكفر لأن الاستغفار للكفار لم يمنع بعد، فكأنه غافل عن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾».

(٧) في (م): «لا تخزني بتعذيب إلى يوم المحشر على رؤوس المعشر».

(٨٨) ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ ـ بدلٌ مِن اليوم الأوَّل ـ ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً، كما ينفع في الدُّنيا يفديه[١] ماله ويذبُّ عنه بنوه[٢].

* * *

(٨٩) ـ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ﴾ مفعول لـ ﴿يَنفَعُ﴾.

﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِن الكفرِ والنِّفاق سليم القلب[٣]، فقلبُ الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

أي: إنَّ المال إذا صُرِفَ في وجوه البرِّ وبنوه صالحون فإنَّه ينتفع به وبهم سليمُ القلبِ.

قد صوَّب الجليل استثناء الخليل إكراماً له، ثم جعله صفةً له في قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

* * *

(١) في (ك): «تعدد»، وفي (ي): «بفدية».

(٢) في هامش (م): «أي لا ينفع تفريق المال ولا جمع الرجال، يعني: لا تُدفع مكارهُ ذلك اليوم لا باللطف ولا بالعنف، ومعتاد العرب المظاهرةُ بالعشيرة والقبيلة، وإيراد البنون من قبيل ذكر الجزء وإرادة الكل، وعلى هذا يظهر وجه إيثاره على الولد، وإتيانه صيغة الجمع، وموجَبه انقطاع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾، إذ على تقدير الاتصال لا مجال لتعميم النفع.......». وطمست كلمة أو اثنتان في آخر الكلام.

(٣) «سليم القلب» ليست في (ع) و(ي).

(٩٠) ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قُرِّبَتْ، عطفُ جملةٍ على جملةٍ؛ أي: تُزلَف مِن موقفِ السُّعداء، فينظرون إليها، ويتبجَّحون بحشرهم إليها.

* * *

(٩١) ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾؛ أي: أُظْهِـرَتْ، فيرونَهـا مكشـوفةً، ويتحسَّـرون علـى أنَّهـم مسـوقون إليها.

وفي اختلافِ الفِعلَيْن دلالة على أنَّ أرضَ المحشر قريبةٌ مِن الجحيم.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الغاوي: العاملُ بما يوجب الخيبةَ مِنَ الثَّوابِ، وأصلُ الغِوايةِ: الخيبةُ، قالَ الشَّاعرُ:

فمَـنْ يلقَ خيـراً يحمَـدِ النَّاسُ أمـرَهُ ... ومَنْ يغـوِ لا يعدمْ على الغـيِّ لائماً[1]

* * *

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ علـى وجـهِ التَّوبيـخ والتَّقريـع: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾: هـل ينفعونكُـم بنصرتهـم لكـم.

﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾: أو هل ينفعون أنفسَهم بانتصارهم، وهذا لأنَّهم وآلهتَهم وَقودُ النَّارِ.

* * *

---

(١) للمرقش الأصغر. انظر: «المفضليات» (ص: ٢٤٧).

(٩٤) ـ ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾.

﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾: نُكِّسُوا، أو طُرِحَ بعضُهم على بعضٍ ﴿فِيهَا﴾: في جهنَّم ﴿هُمْ﴾؛ أي: الآلهة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ وعبدتُهم الذين برِّزَتْ لهم الجحيم.

والكَبْكَبَةُ: تكرير الكَبِّ، جعل التَّكريرَ في اللَّفظ دليلاً على التَّكرير في المعنى، كأنَّه إذا أُلْقِيَ في جهنَّمَ ينكبُّ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ حتى يستقرَّ في قَعرها.

***

(٩٥) ـ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾: شياطينُه، أو مُتَّبعوه مِن عُصاةِ الإنسِ والجنِّ.

﴿أَجْمَعُونَ﴾: تأكيدٌ للجنود، إنْ جُعِلَ مبتدأً خبرُه ما بعدَه، وإنْ لم يُجْعلْ مبتدأً بل معطوفاً على ﴿هُمْ﴾ يكون ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيداً للضَّمير الذي هو ﴿هُمْ﴾ ولِمَا عطف عليه وهو ﴿الغاوون وجنود إبليس﴾، وهذان الاحتمالان قائمان في الضَّمير المنفصل، وما يعودُ عليه في قوله:

(٩٦) ـ ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يجوزُ أنْ يُنطِقَ الله تعالى الأصنامَ حتَّى يصحَّ التَّقاوُلَ والتَّخاصُمَ، ويؤيِّدُه الخطاب في: ﴿نُسَوِّيكُم﴾.

***

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: بيِّنٍ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾: نَعدِلُكم أيُّها الأصنام ﴿بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ في استحقاق العبادة.

(٩٩) ـ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: رؤساؤهم الَّذين أضلُّوهم، أو إبليس وجنوده، ومَن[1] سَنَّ الشِّرْكَ.

***

(١٠٠) ـ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ مِن الأباعد[2]، كما للمُؤمنين[3] مِن الأنبياءِ والأولياءِ والملائكةِ.

ولَمَّا أتى بصيغة الجمع لمصلحة الفاصلة تُدورِكَ حقُّ المقام بزيادة (مِن) التَّبعيضيَّة.

***

(١٠١) ـ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾: مِن الأقارب، كما نرى[4] للمؤمنين أصدقاء، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

والحميمُ: مِن الاحتمام، وهو الاهتمام، وهو الذي يهمُّكَ ما يهمُّه، أو من الحامَّة بمعنى الخاصَّة، وهو الصَّديق الخاص.

***

---

(١) في (ك): «من».

(٢) في (ع) و(ي): «الإباعة».

(٣) في (م): «كالمؤمنين».

(٤) في (ك) و(ي): «ترى».

(١٠٢) ـ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: رجعةً إلى الدُّنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجوابُ (لو) محذوفٌ، وهو: لفعلنا كَيْتَ وكَيْتَ.

أو (لو)[1] في مثل هذا للتَّمنِّي، كأنَّه قيل: فليْتَ لنا كرَّةً؛ لِمَا بينَ معنى (لو) و(ليت) من التَّلاقي.

***

(١٠٣) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: فيما ذُكِرَ مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام.

﴿لَآيَةً﴾: لَحُجَّةً وعبرةً لِمَنْ أرادَ أنْ يستبصِرَ بها ويعتبرَ؛ فإنَّها جاءَتْ على أنظَمِ ترتيبٍ وأحسنِ تقريرٍ، يتفطَّنُ المتأمِّلُ فيها لغزارة علمه؛ لِمَا فيها مِن الإشارة إلى أصول العلوم الدِّينيَّة، والتَّنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وحُسْن مخالفته معهم، وكمال إشفاقه عليهم، وتصويرِ الأمر في نفسه، وإطلاقِ الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم؛ ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقَبولِ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾: أكثرُ قومه ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به.

***

(١٠٤) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القادرُ على تعجيل الانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال، لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ مِن ذرِّيَّتِهم.

---

(١) في (ف) و(ك) و(ي): «ولو». والصواب المثبت. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٤٣)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٥٧١) والكلام منه.

(١٠٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ القومُ مؤنَّثة(١)، ولذلك يصغَّرُ على: قُوَيْمَة.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قد مرَّ الكلام في تكذيبهم المرسَلين.

***

(١٠٦) ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ إنَّما قال: ﴿أَخُوهُمْ﴾ لأنَّه كان منهم:

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالقَ الأنام فتتركوا عبادةَ الأصنام.

***

(١٠٧) ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم، كمحمَّدٍ عليه الصلاة والسلام في(٢) قريش.

***

(١٠٨) ـ ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكم به مِنَ التَّوحيد والطَّاعة للهِ تعالى.

***

(١٠٩) ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه مِن الدُّعاءِ والنُّصحِ.

---

(١) في (م): «مؤنث».

(٢) في (ك): «و».

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ الأجرُ: عبارةٌ عن المنفعةِ المستحقَّة، فأمَّا الذي لا يكون مستحَقًّا فذلك لا يُسمَّى أجراً، بل هبةً.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بحكم وعدِه، وفيه دلالةٌ[1] على عِظَم شأنِ ما أُمِرَ بتبليغِه، وهذا هو الموجِبُ لطاعته فيما يدعوهم إليه، فلذلك أعادَ قولَه:

(١١٠) - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وأمَّا حَسْمُ الطمع المستفادُ ممَّا تقدَّم فقاصرٌ عن إيجابها.

ثمَّ إنَّ قولَه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ التزام الأجر في ذلك لمصلحةِ تربيتِهم، لا لأمرٍ يعود إلى نفسِه مِن نفعٍ أو دفعٍ.

***

(١١١) - ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ﴾ الواو للحال، و(قد) مُضمَرةٌ بعدَها، دليله قراءة: ﴿وأتباعُك﴾[2] جمعُ تابعٍ؛ كشاهد وأشهاد، أو: تَبَعٍ؛ كبَطَل وأبْطَال.

﴿الْأَرْذَلُونَ﴾: جمع الأرذل[3] على الصِّحة، والرَّذالةُ: الخسَّةُ والدناءةُ.

وإنَّما استرذلوهم لإيضاع نسبِهم وقلَّة نصيبهم مِن الدُّنيا، وقيل: كانوا مِن أهل الصِّناعاتِ الدَّنيَّةِ، وأشاروا بذلك إلى أنَّ اتِّباعَهم ليس عن نظرٍ وبصيرةٍ، وإنَّما هو لتوقُّعِ مآلٍ ورفعة فلذلك:

---

(١) في (م) و(ك): «تنبيه»، وفي (ف): «دليل».

(٢) قرأ بها يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٥).

(٣) في (ي): «أرذل».

(١١٢) ـ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أنَّهم عملوه إخلاصاً أو طَمَعاً في طُعْمَةٍ[١]، وما عليَّ إلَّا اعتبار الظَّاهر.

* * *

(١١٣) ـ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾: ما حسابُهم على بواطنهم إلا على الله تعالى؛ فإنَّه المُطَّلعُ على السَّرائرِ.

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لعلمتم ذلك، ولكنَّكم تجهلون، فتقولون ما لا تعلمون.

* * *

(١١٤) ـ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابٌ لِما أَوهم قولهم: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ مِن استدعاء طردهم استنكافاً عن الشِّركةِ معهم في المتابعة ـ خصوصاً إذا كان لهم فضلُ التَّقدُّم وقدمُ السَّبقِ ـ وتوقيفِ[٢] إيمانهم عليه، وقوله:

* * *

(١١٥) ـ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كالعلَّة له؛ أي: ما أنا إلَّا رجلٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين مِن الكفر والمعاصي، سواءٌ كانوا أعزَّاء أو أذلَّاء، وكم مِن ذليلٍ عندَ النَّاسِ وهو عزيزٌ

---

(١) في (ع) و(ي): «طمعاً وطمعة»، والمثبت موافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٤٤).

(٢) في (ع): «وتوفيق». والمقبت موافق للمصدر السابق، ولفظه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيفِ إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه.

عندَ اللهِ، وبالعكس، فكيفَ يليقُ بي طردُ الفقراء لاستتباعِ الأغنياءِ، أو: ما عليَّ[1] إلَّا إنذاركم إنذاراً بيِّناً بالبرهانِ الواضحِ، ثمَّ أنتم أعلمُ بشأنِكم.

***

(١١٦) ـ ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ ﴾ عمَّا تقولُ، والانتهاءُ: بلوغُ الحدِّ مِن غير مجاوزةٍ إلى ما وقعَ عنه[2] النَّهيُ، وأصلُ النِّهايةِ: بلوغُ الحدِّ.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾: مِن المضروبين بالحجارة.

***

(١١٧) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ إظهاراً لِمَا يدعو عليهم لأجله، وهو تكذيبُ الحقِّ، لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

***

(١١٨) ـ ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾: فاحكم بيني وبينهم حُكْماً، مِن الفتاحة وهو الحُكومَةُ، والفتَّاحُ: الحاكم؛ لأنَّه يفتحُ المستغلَقَ.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: مِنْ قَصدِهم، أو مِن شُؤمِ عَملِهم.

***

---

(١) في (ف) و(ك): «أمَّا ما عليَّ».

(٢) في (ف): «عليه».

(١١٩) ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: المملوء، ومنه شِحنةُ[1] البلدِ؛ أي: الذي يملؤه كفايةً.

كانت السَّفينة مملوءةً مِن النَّاس وأنواع الحيوان مِن سباعِ البهائم وجوارح الطَّير، فكانت في قصَّتهم هذه نجاةٌ في نجاةٍ، ومِن هنا اتَّضح وجه[2] توصيف الفُلك بالوصف المذكور في مقام الامتنان.

* * *

(١٢٠) ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّفاوُتِ بينَ الحالَيْنِ لا للتَّراخي، ولذلك قال: ﴿بَعْدُ﴾؛ أي: بعدَ إنجائه ومَن معَه ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مِن قومِه.

* * *

(١٢١) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ عظيمةً، شاعَتْ وتواترَتْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

(١٢٢) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنتقم[3] بإهانة مَنْ جَحَدَ وأصَرَّ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: المنعِمُ بإعانَةِ مَن وحَّدَ وأقرَّ.

---

(١) في (ف) و(ع): «شحنه».

(٢) «وجه»: ليست في (ك) و(م).

(٣) في (ف) و(ك): «الممتنع». والمثبت موافق لما في «تفسير النسفي» (٢/ ٥٧٤).

(١٢٣) ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هي قبيلةٌ، وفي الأصل اسم رجلٍ هو أبو القبيلة.

***

(١٢٤ ـ ١٢٧) ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد تقدَّم تفسيره عن قريب.

***

(١٢٨) ـ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: مكانٍ مرتفعٍ، والبناءُ: وضعُ سافٍ[1] على سافٍ إلى حيث ينتهي.

الرِّيعُ: الارتفاع من الأرض، ومنه: الرِّيع في الطَّعام، وهو ارتفاعه بالزِّيادة والنَّماء.

﴿آيَةً﴾: بناءً يكون لارتفاعه كالعلامَة.

﴿تَعْبَثُونَ﴾: تلعبون.

***

(١) (السَّافُ): الصَّفُّ مِن اللَّبِن أَو الطِّين. انظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (مادة: سوف). ووقع في (ف): «ساق على ساق».

(١٢٩) ـ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: مآخِذَ الماءِ، أو: قصوراً[١] مشيَّدة، أو: حصوناً؛ أي: أتجعلون في كلِّ موضعٍ عالٍ مشرِفٍ علامةً تبنونها ولا تحتاجون إليها لسكناكم، إنَّما تريدون به المباهاة والمراءاة وذا عبثٌ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: وترجون الخلود في الدُّنيا فتُحْكِمون بُنيانها.

* * *

(١٣٠) ـ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ البَطْشُ: العَسْفُ قتلاً[٢] بالسَّيف وضرباً بالسَّوط.

﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الجبَّارُ: العالي على غيره بعظيم[٣] سلطانه، وهو في صفةِ الله تعالى مدحٌ، وفي صفة غيره ذمٌّ.

وقال الحسن: بطش الجبرية: هو المبادرة مِن غير تثبُّت ولا توقُّف[٤].

فذمَّهم الله تعالى بذلك، ونهاهم هود عليه السلام.

* * *

(١٣١) ـ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه؛ فإنَّه أنفع لكم.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «وقصوراً».

(٢) «قتلا»: ليست في (م).

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «العالي إلى غيره لعظيم»، لكن كتب فوق «إلى» في (ك): «على».

(٤) بنحوه في «الكشاف» (٣/ ٣٢٦).

(١٣٢ ـ ١٣٣) ـ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ قرَنَ البنينَ بالأنعام لأنَّهم يُعينونهم على حفظِها والقيام عليها.

* * *

(١٣٤) ـ ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وقرن العيون بالجنَّات في قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] لأنَّ قوامَها ودوامَ منافعها بها.

كرَّرَ الأمرَ بالاتِّقاء مرتَّباً على إمداد الله إيَّاهم بما يعرفونه[2] من أنواع النِّعم؛ تعليلاً وتنبيهاً[3]: بالوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيد على تركه بالانقطاع، ثمَّ فصَّل بعضَ تلك النِّعم كما فصَّل بعضَ مساويهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مبالغةً في الإيقاظ والحثِّ على التَّقوى[4] فقال:

* * *

(١٣٥) ـ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدُّنيا والآخرة، فإنَّه كما قدرَ على الإنعام قدرَ على الانتقام.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «العالي إلى غيره لعظيم»، لكن كتب فوق «إلى» في (ك): «على».

(٢) بنحوه في «الكشاف» (٣/ ٣٢٦).

(٣) في (م): «أو تنبيهاً».

(٤) في (م) زيادة: «ثم أوعدهم».

(١٣٦) ـ ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: مستوٍ عندنا، وإنَّما قيل: ﴿عَلَيْنَآ﴾ لأنَّ المراد بالاستواء من جهة التَّأثير.

﴿أَوَعَظْتَ﴾ الوعظُ: كلامٌ يليِّنُ القلب[1] بذكر الوعدِ والوعيدِ.

﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنَّا لا نَرْعَوي عمَّا نحن عليه. وتغيير شقِّ النَّفي عمَّا تقتضيه المقابلة بارتكاب الإطناب؛ للمبالغة في جانب السكوت عن الوعظ[2]؛ لكونه مقصوداً، فإنَّ الإخراج مِن عداد الواعظين أبلغُ مِن نفي المباشرة للوعظ، والمحافظةِ[3] على رؤوس الآي.

***

(١٣٧) ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قرئ: ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء، مِن الاختلاق؛ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلَّا كذب الأوَّلين.

وقرئ بضم الخاء[4]؛ أي: ما هذا الذي نحن عليه مِن تهيئة أسباب المعاش واتِّخاذ الأبنية إلَّا عادة الأوَّلين.

***

(١) في (م): «القلوب».

(٢) أي: للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه.

(٣) عطف على «للمبالغة».

(٤) وهي قراءة ابن كثير والكسائي وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة بضمهما. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٦).

(١٣٨) ـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الدُّنيا، ولا بعْثَ ولا عذابَ في الآخرة.

* * *

(١٣٩ ـ ١٤٥) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم إيَّاه بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١] تقدَّم تفسيرُه في هذه السُّورة.

* * *

(١٤٦) ـ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾.

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ إنكارٌ لأَنْ يتركوا كذلك، وتذكيرٌ بالنِّعمةِ في تخلية[٢] الله تعالى إيَّاهم وأسباب تنعيمهم.

﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾: في الذي استقرَّ[٣] في هذا المكان مِن النَّعيم.

﴿آمِنِينَ﴾ مِن العذاب والزَّوال والموت، ثمَّ فسَّره بقوله:

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

(٢) في (ك): «تحلية»، وفي (ع): «تخلفة».

(٣) في (ف): «يستقر».

(١٤٧) ـ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثمَّ تفصيل.

* * *

(١٤٨) ـ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ أفردَ النَّخل تفضيلاً له على سائر أشجار الجنَّات.

﴿طَلْعُهَا﴾ وهو ما يخرجُ من النَّخلة كنَصْلِ السَّيفِ.

﴿هَضِيمٌ﴾: ليِّنٌ نضيجٌ[1].

كأنَّه قالَ: ونخلٍ قد أَرْطبَ ثمرُه، فإنَّه ما دام رطباً فهو هضيم، فإذا يَبِسَ فهو هَشِيم.

* * *

(١٤٩) ـ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾.

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: وتَنقبون ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾: بَطِرين[2]، وهذا هو المناسب لِمَا في سورة الحِجْر مِن قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، لا معنى: حاذقين[3].

* * *

---

(١) في (ع) و(ي): «نضج».

(٢) في هامش (م): «وفي سورة الأعراف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ على الحذف والإيصال، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فلا وجه لما قيل: إن انتصاب ﴿بُيُوتًا﴾ على الحالية، أو على أن (تنحتون) بمعنى: تتخذون. منه».

(٣) زاد في (ي): «طيب قلب»، وزاد في (ع): «طبيب قلب».

(١٥٠ ـ ١٥١) ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا ﴾؛ أي: لا تمتثلوا ﴿أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ إنَّما صرف الكلام عن الظَّاهر، والكلمةَ عن المتبادِر، حيث لم يقل: (ولا تطيعوا المسرفين) تنزيلاً لشأنهم من درجة الإطاعةِ، وتبعيداً لهم عن حيِّزِ المطاعين، وأمَّا جَعْلُ الأمرِ مُطاعاً على المجاز الحكمي فلا يناسب المقام[1].

***

(١٥٢) ـ ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصفٌ موضِّحٌ لإسرافِهم، ولذلك عطف: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ على ﴿يُفْسِدُونَ﴾؛ دلالةً على خلوصِ فسادِهم[2]، وتعميمُ إفسادِهم[3] المستفادُ من الإسناد إلى كليَّة الأرض يناسبُ هذا.

***

(١٥٣) ـ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ المسحَّرُ: الذي سُحِرَ كثيراً حتى غلبَ على عقلِه.

***

(١٥٤) ـ ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ كنايةٌ عن استحالةِ كونه رسولاً بناءً على ما زعموا مِن أنَّ

---

(١) في هامش (ي): «لأن المقام مقام نفي الإطاعة لهم رأساً، لا نفي كمال الإطاعة لهم. منه».

(٢) في (ع): «الفسادهم»، وكذا كانت في (ي)، ثم ضرب على (الـ).

(٣) في (ك): «وتعميم فسادهم». وسقطت من (ع) و(ي).

الرَّسولَ(١) لا يكونَ مِن جنس البشرِ، خصوصاً بلا امتيازٍ له عن سائر الأفراد.

وكأن صالحاً عليه السلام ردَّ قولهم هذا بأنْ يقولَ: إنِّي رسولُ اللهِ بواسطة الملك، ولي(٢) امتياز عن سائر البشر بالمعجزة الخارقة للعادة، فقالوا في مقابلته: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ خارقةٍ للعادةِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك.

* * *

(١٥٥) ـ ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾: نصيبٌ من الماء، فلا تزاحموها فيه.

﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا تزاحمُكُم فيه.

* * *

(١٥٦) ـ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهيٌ عن المسِّ الذي هو مقدِّمة الإصابة(٣) بالسوء الجامعِ لأنواع الأذى؛ مبالغةً في الأمر، وإزاحةً للعذر.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عِظَمُ اليومِ لعِظَمِ ما يحلُّ فيه، وهو أبلغ مِن تعظيمِ العذابِ؛ لأنَّ اليوم إذا عَظُمَ بسببِهِ(٤) كان موقعُه مِن العِظَمِ أشَدَّ.

---

(١) في (ع): «رسول الله ﷺ»، وفي (ي): «رسول الله».

(٢) من قوله: «امتيازٍ له... » إلى هنا سقط من (ي).

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «إصابة».

(٤) في (ي) و(ع): «السبب»، والمثبت موافق لما في «تفسير النسفي» (٢/ ٥٧٧).

(١٥٧) ـ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَـٰدِمِينَ ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ الفـاءُ فصيحـةٌ، والجملة المحذوفة مذكورة في سـورة الأعراف، وإنَّمـا أسـندَ الفعل إلى الجميع لأنَّه كان بأمرهم وتعاوُنهـم على ما أفصح عنه قوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَأَصْبَحُوا نَـٰدِمِينَ ﴾ لا على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم، لأنه مردود بقوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني بعدما عقروها: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الاعراف: ٧٧]، بل على ترك ولدِها، وقد تقدَّم ذلك في سورة الأعراف.

***

(١٥٨) ـ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾؛ أي: العذاب الموعود، وهو الرَّجفةُ الحادثةُ مِن الصَّاعقةِ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ﴾ عظيمةً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماءٌ بأنَّه لو آمنَ أكثرُهم أو شطرهم لَما أُخِذوا بالعذابِ، وأنَّ قريشاً إنَّما عُصِموا عن مثله ببركة مَن آمنَ منهم.

***

(١٥٩) ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ جامع لجهَتَي الانتقام والإنعام.

***

(١٦٠ ـ ١٦٤) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] تقـدم[2] تفسـيره في هذه السـورة.

***

(١٦٥) ـ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾؛ أي: أتأتون [الذكران] مِن أولادِ آدمَ مع كثرتهم وغلبةِ الإناث فيهم كأنهنَّ قد أعوَزْنكم.

أو: أتأتون مِن بينِ مَن عَداكم ﴿مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الذُّكرانَ، لا يشارككم فيه غيركم.

فالمراد بـ ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ على الأوَّل: النَّاس، وعلى الثَّاني: كلُّ مَن يُنكَح[3].

وعلى هذا: الجمعُ للتَّغليب، ومبنى هذا الوجه على اختصاص ذلك الفعل بالإنسان، وفيه نظر.

***

(١٦٦) ـ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لأجلِ استمتاعِكم ﴿رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ لبيانِ ﴿مَا﴾ إنْ أُرِيْدَ به جنسُ الإناث، أو للتَّبعيضِ إنْ أُرِيْدَ به العضو المباح منهنَّ، فيكون تعريضاً بأنَّهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائِهم، وإنَّما خَصَّ الأزواجَ بالذِّكْرِ لعمومِه؛ فإنَّ الإماء مخصوصَةٌ بالأحرار.

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾».

(٢) في (م): «قد تقدم».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٤٧)، وما بين معكوفتين منه.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ بمعنى الانتقال مِن شيءٍ إلى شيء.

والعادي[1]: المتعدِّي في ظُلْمِه، المجاوِزُ فيه الحدَّ، والمرادُ هاهنا: التَّجاوزُ عن حدِّ الشَّهواتِ بالزِّيادة على سائر النَّاس، بل الحيوانات، أو الإفراطُ في المعاصي مطلقاً، وعلى هذا: الإضرابُ للتَّرقي.

* * *

(١٦٧) ـ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾؛ أي: لم تمتنعْ من إنكارك علينا، وتقبيحِ[2] أمرنا.

﴿يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾: مِن جُملةِ مَن أخرجْناه مِن بينِنا وطردْناه مِن ديارِنا، ولعلَّهم كانوا يُخْرِجُونَ مَن أخرجُوهُ على أسوءِ حالٍ.

* * *

(١٦٨) ـ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ فلا أكرَهُ مفارَقتكم، ولا أرضى مجاوَرَتكم.

والقِلَى: البغضُ الشَّديدُ، كأنَّه بغضٌ يقلي الفؤادَ.

وإنَّما قال: ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ للتَّنبيه على أنَّه غير منفردٍ بذلك، بل واحدٌ مِن الجماعة المعروفين به، وأيضاً هو أبلغ مِن (قَالٍ) وإن كان هو أرجحَ من جهة اللَّفظ لِمَا بينه وبين ﴿قَالَ﴾ مِن صنعة التَّجنيس.

* * *

(١) في (ف) و(م) زيادة: «المتعادي».

(٢) في (ك) و(م): «أو تقبيح».

(١٦٩) - ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾: مِن شؤمِه وعذابِه.

* * *

(١٧٠) - ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: مَن آمنَ به ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بإخراجِهم مِن بينهم وقتَ حلولِ العذاب بهم.

* * *

(١٧١) - ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ مقدَّرةً ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ العجوزُ: المرأةُ التي قد أعجزَها عن أمورٍ كثيرةٍ كبرُ سنِّها.

وهي امرأتُه على ما أفصحَ عنه قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الاعراف: ٨٣]؛ أي: الباقين من لِدَاتِها وأهل بيتها.

وقيل: الغابرُ: الباقي في قِلَّةٍ، كالتُّراب الذي يذهب بالكنس ويبقى غباره.

* * *

(١٧٢) - ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ التَّدميرُ: الإهلاك.

* * *

(١٧٣) - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أمطرَ اللهُ تعالى على شذَّاذِ[1] القومِ حجارةً فأهلكَهم.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ك) و(م): «شداد»، والمثبت من (ي) وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٣١)، =

﴿فَسَآءَ﴾ فاعلـه: ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ والمخصوصُ بالـذَّمِّ ـ وهو: مطرُهم ـ محذوفٌ، والمرادُ بـ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾: جنسُ الكافرين.

* * *

(١٧٤ ـ ١٧٥) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم تفسيرُه.

* * *

(١٧٦ ـ ١٨٠) ـ ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الخليلُ: الأيكةُ: غيضةٌ تُنبتُ السِّدرَ والأراكَ وناعمَ الشَّجر[1].

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ إنَّما لم يقل: أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن مِن نسبِهم، بل كان مِن نسبِ أهلِ مَدين. وفي الحديث: أنَّ شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة[2].

= و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٤١)، «تفسير النسفي» (٢/ ٥٧٩). قال الشهاب في «الحاشية» (٧/ ٢٥): «شذاذ» بمعجمات بوزن جُهال، جمع شاذ، وهو من انفرد عنهم في الطريق أو من كان غريباً من غير قبائلهم، وهذا إشارة إلى التوفيق بين طرق إهلاكهم، فإنه ورد أنه بصيحة، وفي أخرى برجفة، وفي أخرى بإمطار حجارة، فهو إمّا بوقوع بعضه لبعضهم، أو لأنه أرسل لطائفتين أهلك كل منهما بنوع منه، ولا مانع من الجمع بينهما.

(١) انظر: «العين» للخليل (مادة: أيك) (٥/ ٤٢٣).

(٢) روى نحوه ابن أبي حاتم في «العلل» (١٧٨٦)، ونقل عن علي بن الحسين بن الجنيد قوله: هذا باطل. وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٤٦): «غريب، وفي رفعه نظر».

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1) قد مرَّ تفسيرُه في هذه السُّورة.

* * *

(١٨١) ـ ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: أتمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ حقوقَ النَّاسِ بالتَّطفيف.

ولو قيل: ولا تُخسروا، لكان أبلغَ في النَّهي، على ما تقدَّم في تفسير: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣]، وإنَّما عدل عنه إلى ما ذَكَرَ تعريضاً لاشتهارِهم بتلكَ الحالِ.

* * *

(١٨٢) ـ ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الوزنُ: وضعُ الشَّيء بإزاء المعيار بما يُظهِرُ منزلَتَهُ منه في ثِقَلِ المقدار: إمَّا بالزِّيادة، أو النُّقصان(2)، أو التَّساوي.

والقِسْطاسُ: الميزانُ، أو القبان؛ فإنْ كان مِن القِسْطِ وهو العدل وجعلَتِ العين مكرَّرة فوزنه فِعلاس(3)، وإلَّا فهو رباعيٌّ.

---

(١) في (ف) و(م) و(ك): «﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

(٢) في (ف): «المقدار إلى الزيادة والنقصان».

(٣) قوله: «فعلاس»، كذا قاله الزمخشري، وتابعه النسفي، ونقل فيه الطيبي فيه نظراً بأن الصواب أن وزنه: فعلاع، لأن التكرير يقتضي أن يوزن بما قبله، وأما فعلاسٌ فلم يوجد أصلاً. قلت: وهو عند الآلوسي: (فعلاع). انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٣٢)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٥٨٠)، و«فتوح الغيب» (١١/ ٤١٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٦٣).

(١٨٣) ـ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ﴾ يقال: بخستَهُ حقَّه: إذا نقصْته إيَّاه.

﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾: دراهمهم ودنانيرهم[1] بقطع أطرافها، ولولا[2] [أن] المرادُ النَّهيُ عن المعتاد لقيل: ولا تبخسوا الناس شيئاً؛ لأنَّه أبلغُ في النَّهي.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهذا أيضاً نهيٌ عن معتادهم، ولذلك عدل عن الأبلغ في النَّهي وهو: (لا تفسدوا في الأرض).

والعُثُوُّ: أشدُّ الفسادِ، وذلك قد يكون لمصلحةٍ كتخريب ديار الكفر[3]، فلدَفْعِ هذا الاحتمال قيل: ﴿مُفْسِدِينَ﴾.

***

(١٨٤) ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: مَن تقدَّمهم مِن الخلائق، أُطلقَ الخليقةُ وأُريدَ به[4] الخَلْقُ.

قيل: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾: الخَلْق المتجمِّد[5] الغليظ، مأخوذ مِن الجَبلِ، فحينئذ يناسبُ التَّفسير عن خِلْقَةِ عادٍ وثمودَ.

***

(١) في (ف) و(م) و(ك): «دراهم ودنانير».

(٢) في (ف): «ولو كان»، والمثبت هو الصواب، وما سيأتي بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في (م): «الكفرة»، في (ي) و(ع): «الكفار».

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «بها».

(٥) في (ف): «المتجد»، وفي (م) و(ك): «المتخذ». وفي «البحر المحيط» (١٦/ ٣١٩): «المتجسد».

(١٨٥) ـ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تركَ أداةَ الجمع في قصَّة ثمود ليفيدَ التَّوكيد والتَّقرير والقطع بأنَّه بشرٌ مثلهم؛ أي: لا ينبغي أنْ نؤمن برسالتك إلَّا بشيءٍ تمتازُ به عنَّا، ولهذا قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وأتى بها هنا للدِّلالة على أنَّه جامعٌ بينَ وصفَيْنِ متنافِيَيْنِ للرِّسالة؛ مبالغةً في تكذيبهم، فكأنَّهم قالوا: نحن وأنت في عدم صلاحيَة الرِّسالة من جهة كوننا بشراً سواءٌ، ولكَ[1] المزيَّة علينا في كونك مسحَّراً[2] دوننا، ثمَّ أكَّدوا ذلك بقولهم:

﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ والظَّنُّ بمعنى اليقين، ولذلك أدخل (إنْ) واللَّام.

ولَمَّا كانَ هذا الرَّدُّ أبلغُ مِن الأوَّلِ، ما طلبوا البرهان كما طلبَ ثمودُ حيثُ قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، بل قطعوا بما يدلُّ على اليأس مِن إيمانهم بقولهم على سبيلِ الاستهزاءِ:

(١٨٧) ـ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾: جمع كِسْفَةٍ، وهي قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ عقوبةً ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ كما قطعَ قريشٌ بقولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

***

---

(١) في (ك): «ذلك».

(٢) في (ي): «مسخراً».

(١٨٨) ـ ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بأعمالِكم وبما تستحقُّون عليها مِنَ العذابِ؛ فإنْ أرادَ أن يعاقبَكُم بإسقاط كِسَفٍ مِن السَّماءِ فَعَلَ، وإنْ أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة.

* * *

(١٨٩) ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ على نحو ما اقترحوا.

و﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾: سحابةٌ أظلَّتْهُم بعدَ ما حُبِسَ عنهم الرِّيحُ وعُذِّبوا بالحرِّ سبعةَ أيَّام، فاجتمعوا تحتَها مستجيرين[1] بها ممَّا نالهم مِن الحرِّ، فأمطرَتْ عليهم[2] فاحترقوا.

ولهذا ـ أي: ولكونهم معذَّبين في ذلك الوقت بسببٍ آخر غير الظُّلَّةِ ـ أضيف العذاب إلى اليوم دون الظُّلَّة، وقطعُ إضافةِ العذابِ عنها لا يخلو عن نوعِ إشعارٍ بأنَّ عذابهم قبلَ نزول النَّار مِن الظُّلَّةِ بلغ إلى حَدٍّ كان ذلك خلاصاً لهم من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ قد مرَّ أنَّ وصفَ اليومِ بالعِظَمِ أبلغُ مِن وصفِ العذابِ بِهِ.

* * *

(١) في (ك) و(م) و(ف): «متحسرين»، وفي (ع): «مسحرين»، والمثبت من «تفسير النسفي» (٢/ ٥٨١).

(٢) من قوله: «وعُذِّبوا بالحرِّ..» إلى هنا سقط من (ي).

(١٩٠) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القَصص السَّبع المذكورة على وجه الاختصار تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به.

***

(١٩٢) ـ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: إنَّ القرآنَ لَمُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى لمصلحةِ العالَمِين.

***

(١٩٣) ـ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: أي: جبريل عليه السلام، فإنَّه أمين الله على وحيه.

وقرئ ﴿نَزَّلَ﴾ مشدَّداً و﴿الرُّوحَ﴾ منصوباً[١]؛ أي: جعلَ اللهُ الرُّوحَ نازلاً به، والباء على القراءتَيْنِ للتَّعدية.

***

(١٩٤) ـ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أقحمَ القلبَ ـ والمعنى: عليكَ ـ لأنَّه محلُّ الوحيِ والتَّثبيت، وليُعْلَمَ أنَّ المنزَلَ محفوظٌ عن المخالطة والمغالطة؛ لوصوله إلى القلب بالذَّات، لا بواسطة الصَّوت وآلة السَّمع، فافهم هذا السِّرَّ الدَّقيقَ.

---

(١) قرأ بها ابن عامر وحمزة وأبو بكر والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٦).

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اقتصرَ على الإنذار لعمومِه الفريقَيْن، ولأنَّه أزجرُ للسَّامعِ.

* * *

(١٩٥) - ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾: بلغةِ العربِ، متعلِّق بـ﴿نَزَلَ﴾، ويجوز أنْ يتعلَّق بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: لتكونَ ممَّنْ أنْذَروا بلغة العرب، وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمَّد عليهم الصلاة والسلام.

﴿مُّبِينٍ﴾ للنَّاسِ ما يحتاجون إليه مِن أمورِ دينِهم ودنياهم.

* * *

(١٩٦) - ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذِكْرُهُ مُثبَتٌ في سائر الكتب المنزَلَةِ السَّماويَّةِ.

وقيل: إنَّ معانيه فيها، فلا دلالة فيه على أنَّ القرآن قرآن إذا تُرْجِمَ بغير العربية.

والزُّبُرُ: جمع زَبُورٍ، كرُسُلٍ ورَسُولٍ، وقد تقدَّمَ بيانُه.

* * *

(١٩٧) - ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ على صحَّةِ القرآنِ ونبوَّةِ محمَّدٍ عليه السلام ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أنْ يعرفوه بنعته المذكور في كتبِهم. وهو تقريرٌ لكونه دليلاً.

قرئ: ﴿يَكُن﴾ بالتَّذكير، و﴿ءَايَةً﴾ بالنَّصب، على أنَّها خبره، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ هو الاسم، تقديره: أو لم يكن لهم عِلمُ علماءِ بني إسرائيل آيةً.

وقـرئ: ﴿تكُـنْ﴾ بالتَّأنيث و﴿آيـةٌ﴾ بالرَّفع[١]، علـى أنَّها اسـم (كان) وخبره: ﴿لَهُمْ﴾، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدل.

وقيـل في ﴿تكُـنْ﴾ ضمير القصَّـة، و﴿آيةٌ﴾ خبـر مقدَّم والمبتـدأ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾، والجملـة خبر (كان).

وقيـل: (كان) تامَّـةٌ، والفاعل ﴿آيـةٌ﴾، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدل منهـا[٢]، أو خبرُ مبتدأ محـذوف؛ أي: أولـم يحصـل لهم آيةٌ.

***

(١٩٨) ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادة في إعجازه، أو: بلغة العجم.

***

(١٩٩) ـ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لفَرْط عنادِهم واستكبارِهم، أو لعدم فهمِهم واستنكافِهم مِن اتِّباع العجم.

و﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: جمع أعْجَميٍّ[٣] على التَّخفيف، كما قالوا: الأشعرون؛ أي: الأشعريُّون، بحذف ياء النِّسبة، ولولا هذا التَّقديرُ لم يَجزْ أنْ يُجمَعَ جمعَ السَّلامة؛ لأنَّ مؤنَّثه عجماء[٤].

---

(١) قراءة ابن عامر، وباقي السبعة بالياء والنصب. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٦).

(٢) في (ك): «منه».

(٣) «أعجمي»: ليست في (ك) و(م)، وفي (ف): «عجمي».

(٤) في (ف): «لأن مؤنث عجمي عجماء».

وزيـادة (كان) لإفـادة معنـى الاسـتمرار، والمـرادُ اسـتمرارُ[1] النَّفـيِ، لا نفيُ الاسـتمرار؛ فافهـم سـرَّ هـذا الاعتبار.

* * *

(٢٠٠) - ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾؛ أي: مثلَ ما ذكرنا مِن إدخال[2] التَّكذيب به على تقدير قراءة الأعجم أدخلنا التَّكذيب ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بقراءة أفصحِ العربِ.

* * *

(٢٠١) - ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المـرادُ بـه: معاينةُ العـذابِ عندَ الموت، وذلك إيمـان يأسٍ[3] فـلا ينفعهم.

* * *

(٢٠٢) - ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعني: أنَّ العذاب الذي يستعجلونه يجيئهم فجأةً.

والبغتةُ: حصولُ الأمرِ العظيمِ الشَّأن مِن غيرِ توقُّعٍ وتقديمِ أسبابٍ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

* * *

---

(١) «استمرار»: ليست في (م).

(٢) «من إدخال» ليست في (ع) و(ي).

(٣) في (ف) و(ك): «بأس»، وفي (ي) و(ع): «الباس».

(٢٠٣) ـ ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

﴿فَيَقُولُواْ﴾ حذف النُّون منه عطفاً على قوله: ﴿يَرَوُاْ﴾.

﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: يَسألون النَّظِرةَ والإمهال طرفةَ عينٍ فلا يجابون إليها.

***

(٢٠٤) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، وحالُهم عند حلول[1] العذاب طلب النَّظِرة، فجيء بالهمزة للإنكارِ، والفاءُ دلالةٌ[2] على ترتيبه على السَّابق، إلَّا أنَّها أُخِّرَتْ لأنَّ همزة الاستفهام لها حقُّ الصَّدارة وإنْ استعيرَتْ لمعنًى آخر.

قال يحيى بن معاذ: أشدُّ النَّاسِ غفلةً مَن اغترَّ بحياته، والتذَّ بمراداته[3]، وسكن إلى مألوفاته، والله يقول:

(٢٠٥ ـ ٢٠٧) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[4] مِن العذابِ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ به في تلك السِّنين في دفع العذاب وتخفيفه.

---

(١) في (ك): «نزول».

(٢) في (ف): «دالة».

(٣) في (ك): «بمراراته».

(٤) انظر: «تفسير السلمي» (٢/ ٨١).

وإنَّما جيء بفعل الرُّؤية والاستفهامِ ليكون في معنى أخبر إفادةً لمعنى التَّعجُّب والإنكار، وأنَّ مِن حقِّ هذه القصَّة أنْ يُخبَرَ بها كلُّ أحدٍ حتى يتعجَّب(١).

وزيادة (كان) في الموضعَيْن لإفادة الاستمرار.

***

(٢٠٨) ـ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا ﴾ لم تدخل الواو على الجملة بعد إلَّا كما في: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤] لأنَّ الأصل عدم الواو؛ إذ الجملة صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصِّفة بالموصوف.

﴿مُنذِرُونَ﴾ أتى بصيغة الجمع لأنَّ ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ عامٌّ، فكأنَّه قيل: وما أهلكنا من القرى، والعدول عنه لإفادته الدِّلالة على أنَّ المراد الكلَّ الإفراديَّ، لا الكلَّ(٢) المجموعيَّ.

***

(٢٠٩) ـ ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿ذِكْرَىٰ﴾: تذكرةً، ومحلُّها النَّصب على العلَّة، أو المصدر؛ لأنها في معنى الإنذار، أو حال من الضَّمير في ﴿مُنذِرُونَ﴾، أو الرَّفعُ على أنَّه صفة منذرين بإضمار ذَوو، وبجعلهم ذكرى لإمعانهم في التَّذكرة(٣)، أو خبرُ مبتدأ محذوف بمعنى: هذه ذكرى.

---

(١) في هامش (ي): «لما كانت الرؤية أقوى سند الإخبار استعمل (أرأيت) بمعنى الإخبار. منه».

(٢) في (ف): «الكلي الإفرادي لا الكلي».

(٣) في (ف): «التذكر».

والجملة اعتراضية، فلا يجوز أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ متعلِّقةً بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مفعولاً له؛ لأنَّ مذهب الجمهور أنَّ ما بعد إلَّا لا يعمل فيما قبلَها، إلَّا أن يكون مستثنًى أو مستثنًى منه، أو تابعاً له غير معتمِد على الأداة.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: ليس مِن شأننا الظُّلم فنعذِّبَ فيها غير مستحقِّين له.

ولَمَّا قال المشركون: إنَّ الشَّياطين تلقي القرآنَ على محمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ نزل:

(٢١٠) ـ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وإنَّما أتى بصيغة التَّكلُّف والجمعِ لأنَّه على تقدير وقوع المنفيِّ لا يكون إلَّا بزيادة كُلْفَةٍ ومشقَّةٍ مِن جماعةٍ منهم على ما بُيِّنَ عند تفصيل كيفيَّة استراق السَّمع.

ردٌّ لِما زَعَمَ المشركون أنَّه مِن قَبيل ما يُلقي الشَّياطينُ على الكهنةِ.

* * *

(٢١١) ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أن ينزِلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك. نفى أوَّلاً الوقوع، ثمَّ اللِّياقة، ثمَّ القدرة، ثمَّ بيَّنَ علَّة عدم القدرة بقوله:

(٢١٢) ـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلامِ الملائكةِ ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾: لمنحَّونَ.

والعَزْلُ: تنحية الشَّيء عن الموضع[1] إلى خلافه.

---

(١) في (ع): «الموضوع».

وسبب ذلك ما ذُكِرَ في سورة الجنِّ من كونهم مَرْجومينَ بالشُّهبِ.

***

(٢١٣) ـ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ إنَّما نهى النَّبيَّ عليه السلام عن الشِّركِ في العبادة مع عدم الحاجة إليه في حقِّه تمهيداً لبيان ترتُّب العذابِ عليه على وجهٍ لا يتخلَّفُ عنه أصلاً، حيث لا يتخلَّف عنه في حقِّ[1] خيرِ الخلقِ، فكيف في حقِّ غيره؟

***

(٢١٤) ـ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ خصَّهم لنفي التُّهمة؛ إذ الإنسان يُساهِلُ قرابَته، ولِيَعلموا أنَّه لا يغني عنهم مِن الله شيئاً؛ فإنَّ النَّجاةَ في اتِّباعه دون قربه.

والعشيرة تنتظِم الفخذَ فما فوقَها.

***

(٢١٥) ـ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾: وألِنْ[2] جانِبَكَ وتواضَعْ، مستعارٌ مِن خفضِ الطَّائر جناحَه إذا أرادَ أنْ ينحطَّ.

﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: مِن عشيرتِكَ وغيرهم، ولإفادة هذا التَّعميم ذكر قولَه: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وإلَّا فالإيمان واتِّباعه عليه الصلاة والسلام توأمان.

---

(١) في (ف): «عن حق».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «وألق».

(٢١٦) ـ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ مرتبطٌ بقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، وكان أصلُ الكلامِ: أنذرْ أقرباءَكَ فإنِ اتَّبعوك وأطاعوك فاخفضْ لهم جناحَك وإنْ عصَوْكَ[١] ولم يتَّبعوكَ فتبرَّأْ مِن أعمالهم، إلَّا أنَّه غيَّرَ التَّعبير في أحدِ الشِّقَّينِ تنزيلاً للمُقدَّرِ منزلةَ المُحقَّقِ في الجانب الغالب، وعمَّمَ حكمَه تنبيهاً على أنَّ حكم الإنذار أصلُه غيرُ مخصوصٍ، إنَّما[٢] الاختصاص بأقربائه عليه السلام في صفة تقديمه، وخصَّ حكم شقِّ العصيان بهم ليظهرَ ذلك الحكم في حقِّ غيرِهم بطريقِ الأَولى.

﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ لَمَّا كانَ الحكمُ في صورة الاتِّباع وجوديًّا، وفي صورة خلافه عدميًّا، أمرَ بنفسِ الحكم في الأولى، وبالإظهار قولاً في الثَّانية، وهذا مِن دقائق الاعتبار، قلَّما يتنبَّه له إلَّا ذوو الاختبارِ[٣].

﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: ممَّا تعملونه، أو: مِن أعمالِكم.

أمرَ بالبراءة مِن عملِهم لا منهم؛ إشعاراً بأنَّهم لا يُتركون بإظهار العصيانِ، بل يُدعَون إلى الإطاعة مرَّةً بعدَ أخرى باللُّطف، إلى أنْ نزلَ الأمرُ بالعنفِ.

* * *

(٢١٧) ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ﴾ التَّوكُّلُ: تفويضُ الأمرِ إلى مَن يملكُه. وقرئ: ﴿فتوكَّل﴾[٤] على الإبدال من جواب الشرط.

---

(١) في (م): «عصوا».

(٢) في (م): «وإنما».

(٣) في (ك) و(م): «الاختيار».

(٤) قرأ به نافع وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧).

﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: على الذي يقهَرُ أعداءَك بعزَّته، وينصرُكَ عليهم برحمَتِهِ، يَكفِكَ شرَّ مَن يعصيْكَ منهم ومِن غيرهم.

***

(٢١٨) ـ ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ﴾ الرُّؤيةُ: علمٌ خاصٌّ بنوعٍ مِن المحسوسِ غيرُ متوقِّف على النَّظر، بل قد يحصل بطريقٍ آخر، فلذلك زاد موسى عليه السلام قوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] حين طلب الرُّؤيةَ المعهودة.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ متهجِّداً.

***

(٢١٩) ـ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾؛ أي: ويرى تقلُّبَكَ ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: في المصلِّين.

أتبعَ كونَه رحيماً على رسولِه ما هو مِن أسبابِ الرَّحمةِ، وهو ذكرُ ما كان يفعلُه في جوفِ اللَّيل مِن قيامِه للتَّهجُّدِ، وتردُّدِه في تصفُّح أحوال المتهجِّدين مِن أصحابه رضي الله عنهم ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويعلم أنَّهم كيفَ يعبدون الله في خلواتِهم.

وقيل: تصرُّفه فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود إذا أمَّهم، ولا يخفى ما في التعبير عن أركان صلواته عليه الصلاة والسلام حال إمامته بالتقلب في الساجدين مما يخلُّ بشأنها، ثم إن المناسب عطفه على ﴿تَقُومُ﴾، والعدول عن سننه لكونه جنساً، وهو على ما قررناه.

(٢٢٠) ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لِمَا تقولُه وتعمَلُه[١]. هوَّن عليه معاناةَ مشاقِّ ما تحمَّلَه مِن التَّهجُّدِ والتَّفقُّد حيث أخبرَ برؤيته له؛ إذْ لا مشقَّةَ على مَن يعلَمُ أنَّه يعملُ بمرأى مِن مولاه.

***

(٢٢١) ـ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إنَّما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنَّه أكثر ما يكون في الهواء، وأنَّه تمر مَرَّ[٢] الرِّيحِ.

***

(٢٢٢) ـ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: على كلِّ مَن بلغَ في الإفكِ والإثمِ الغايةَ.

لَمَّا بَيَّنَ أنَّ القرآنَ لا يصحُّ أنْ يكون ممَّا تنزَّلُ به الشَّياطينُ أكَّدَ ذلك بأنْ بيَّنَ أنَّ محمَّداً عليه الصلاة والسلام لا يصلحُ لأنْ ينزلوا عليه بوجهَيْن[٣]:

أحدهما: أنَّه إنَّما يكون على شرِّيرٍ كذَّابٍ كثيرِ الإثم وهم الكهَنة والمتنبِّئة، ومحمَّدٌ عليه السلام يشتمُ الأفَّاكين ويذمُّهم، فكيف تنزلُ الشَّياطينُ عليه؟! وإنَّما زادَ كلمة ﴿كلِّ﴾ اعتباراً لِمَا في ﴿مَن﴾ مِن معنى العموم، وإلَّا فلا حاجةَ إليه في أصل الكلام.

---

(١) في (ع): «ولعلمه».

(٢) في (ع): «من».

(٣) في (ف): «لوجهين».

(٢٢٣) ـ ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾.

وثانيهِما: ما ذكرَه بقوله: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾؛ أي: الأفَّاكون يلقونَ السَّمعَ إلى الشَّياطين، فيتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ لنُقصان علمِهم، فيضمُّون إليها على حسب تخيُّلاتهم أشياءَ لا تُطابق أكثرَها، كما جاء في الحديث: «الكلمة يَخطَفُها[1] الجنِّيُّ، فيَقُرُّها[2] في أذن وليِّه، فيزيد فيها أكثرَ مِن مئةِ كَذْبَةٍ»[3].

ولا كذلك محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام، فإنَّه أخبرَ عن مغيَّباتٍ كثيرةٍ لا تُحصَى، وقد طابق كلَّها.

و﴿ يُلْقُونَ ﴾ حالٌ؛ أي: تنزِلُ مُلقينَ السَّمع، أو صفةُ ﴿كلِّ أفاك﴾؛ لأنَّه في معنى الجمع، فيكون في محل الجرِّ، أو استئناف فلا يكون له محلٌّ من الإعراب، كأنَّه قيل: لِمَ تنزلُ على الأفَّاكين؟ فقيل: لأنَّهم يفعلون كيْتَ وكيْتَ.

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾؛ أي: أكثرُ الأفَّاكين ﴿كَٰذِبُونَ ﴾: يفترون على الشَّياطين ما يُوحون إليهم.

واختصاصُ هذا النَّوع مِن الكذبِ بأكثرهم لا ينافي تناولَ جنس الكذبِ كلَّهم.

***

(٢٢٤) ـ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ وأتباعُ محمَّد عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك، وهو استئنافٌ أبطلَ كونَه شاعراً.

---

(١) في (ي) و(ع) و(م): «يحفظها».

(٢) في (ي) و(ع): «فيقرؤها»، وفي (م): «فيقرعها».

(٣) روى نحوه البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: «يخطفها» من الخطف وهو الأخذ بسرعة «فيَقُرُّها»: يصبها. «وليه»؛ أي: الكاهن الذي يواليه.

(٢٢٥) ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ تمثيلٌ لذهابهم في كلِّ شِعْبٍ مِن القَولِ، واعتسافِهم، وقلَّةِ مبالاتهم، بالغُلُوِّ في المنطقِ[١]، ومجاوزةِ الحدِّ في القصدِ، حتى إنهم يفضِّلون[٢] أجبنَ النَّاسِ على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وبَهَتوا البريءَ، وفسَّقوا التَّقيَّ.

***

(٢٢٦) ـ ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وذلك لغلوِّهم في أفانين الكلام، ولَهجهم بالفصاحة والمعاني اللَّطيفة، وقد ينسبون لأنفسهم ما لا يقع منهم.

لَمَّا كان إعجازُ القرآن مِن جهة المعنى واللَّفظ، وقد قدحوا في المعنى بأنَّه ممَّا تنزَّلُ[٣] به الشَّياطين، وفي اللَّفظ بأنَّه مِن جنسِ كلام الشُّعراء = تكلَّمَ في القِسْمَيْنِ، وبيَّنَ منافاةَ القرآنِ لهما، ومضادَّة حالِ الرَّسول عليه السلام بحالِ أربابهما.

***

(٢٢٧) ـ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ استثناءٌ للشُّعراءِ[٤] مِن المؤمنين الصَّالحين؛

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «النطق»، وفي (م): «بالغوا»، بدل: «بالغلو».

(٢) في (ع) و(ك) و(م) و(ي): «يفضلوا».

(٣) في (ف): «تنزله».

(٤) في (ك) و(م): «استثناء الشعراء»، وفي (ف): «استثنى الشعراء».

كعبد الله بن رواحة، وحسَّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك.

﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: كان ذكرُ اللهِ وتلاوةُ القرآنِ أغلبَ عليهم مِن الشِّعرِ، وإذا قالوا شعراً قالوه في التَّوحيد بالله تعالى والثَّناء عليه.

﴿وَانتَصَرُوا﴾: وهَجَوا ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾: هُجُوا[١]؛ أي: رَدُّوا هجاءَ مَن هجا رسول الله ﷺ والمسلمين.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تهديدٌ شديدٌ؛ لِمَا في ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ مِن الوعيدِ البليغِ، وفي ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِن الإطلاق والتَّعميم، وفي: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ـ أي: بعدَ الموت ـ من الإبهام والتَّهويل.

وقرئ: (أيَّ منفلَتٍ ينفلتون) بالفاء والتَّاء[٢]، ومآلُ المعنى واحدٌ، ذكره الثعلبي[٣].

ختم السُّورة بما يقطِّع أكبادَ المتكبِّرين[٤] المنذَرين[٥].

***

(١) «هجوا» سقط من (ف) و(ع).

(٢) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ١٨٧).

(٤) في (ك) و(م): «المنكرين».

(٥) في (ي) و(ع): «المتدبرين».

سُورَةُ النَّمۡلِ

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾.

﴿طسٓۚ تِلۡكَ﴾ إشارةٌ إلى السُّورة.

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ عطفَه على ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ كعطفِ إحدى الصِّفتَيْن على الأخرى، وتنكيرُه للتَّعظيم.

وإبانته: أنَّه يبيِّنُ[١] ما أُوْدِعَ فيه مِن الحِكَمِ والأحكام، أو الصحَّة[٢] بإعجازِه.

وإنَّما عرَّف القرآن ونكَّر الكتاب على عكس ما في (سورة الحجر) لأنَّهما اسمان علَمان للمنزَّلِ على نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، ووصفان له باعتبار معناهما الأصليَّين، فأيُّهما جُعِلَ أصلاً والآخر صفةً صحَّ.

و﴿كتاب﴾ قرئ بالرَّفع[٣] على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، على معنى: وآياتُ كتابٍ مبين.

***

---

(١) في (ك): «تبيين» بدل «أنه يبين».

(٢) في (ع): «لصحة»، وفي (ي): «لصحته».

(٣) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٨).

(٢) ـ ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿هُدًى﴾ للبشر ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الآيات، والعامل فيها معنى الإشارة، أو بدلان منها، أو من ﴿وَكِتَابٍ﴾، أو صفةٌ له، أو خبران آخران، أو خبران[1] لمحذوف؛ أي: هي هدى.

***

(٣) ـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تقدَّم تفسيره في سورة البقرة.

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ مِن تتمَّة الصِّلة، والواو للحال أو للعطف.

وتغيير النَّظم للدِّلالة على قوَّة يقينهم وثباتهم، وأنَّهم الأوحديُّون فيه، أو استئناف كأنَّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون[2] بالآخرة، ويدلُّ عليه أنَّه عقد جملة اسمية وكرَّر فيها المبتدأ حتى صارَ معناها: وما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلَّا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح[3]؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمُّل المشاقِّ.

***

(٤) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحةَ بخلق الشَّهوة فيهم، حتى رأوا ذلك حسناً كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وقد

---

(١) «آخران أو خبران» سقطت من (ف) و(ك)، وسقطت «آخران» من (ع).

(٢) في (ف): «المؤمنون».

(٣) في (م): «الصالحات».

مـرَّ البحـث مسـتوفًى في إسـناد التَّزييـن إليه تعالى في تفسـير سـورة البقـرة[١].

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾: يتحيَّرون ويتردَّدون في ضلالتهم، كما يكون حال الضَّالِّ عن الطَّريقِ.

***

(٥) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ لم يؤمنوا ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ بما كان منهم[٢] مِن سُوءِ الأعمال.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: أشدُّ النَّاس خسراناً لفواتِ التَّوبةِ واستحقاقِ العقوبةِ.

***

(٦) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: يُلقَى عليك بشدَّةٍ.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾: مصيبٍ في أقوالِه وأفعالِه ﴿عَلِيمٍ﴾ بكلِّ شيءٍ وأحوالِه، فليس الأوَّل منهما مشتملاً على الآخر حتى يكون حقُّه التَّأخير، والتَّنكيرُ فيهما للتَّعظيم.

وهذه[٣] الآيةُ تمهيدٌ لِمَا يريدُ أنْ يسوقَ بعدها مِن القَصص، وما في ذلك مِن لطائفِ حكمتِه ودقائقِ علمِه.

***

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «لهم».

(٣) في (ك) و(م): «وفي هذه»، وفي (ف): «ومن هذه».

(٧) ـ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: اذكر قصَّة إذ قال موسى، وقيل: متعلِّق بـ ﴿عَلِيمٍ﴾.

﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ الإيناسُ: الإحساسُ بالشَّيءِ مع سُكونِ النَّفسِ إليه.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن حال الطَّريق؛ لأنَّه قد ضلَّها.

روي أنَّه لم يكن معه غير امرأته، وإنَّما وَرَدَ[1] الخطاب بلفظ الجمع لكنايته عنها بالأهل؛ إقامةً لها مقامَ الجماعة في الأُنْسِ بها والسُّكون إليها في الأمكنةِ الموحشةِ.

والسِّين للتَّقريبِ، وتقليلِ مدَّة الوعد؛ كيلا تَستَوحِشَ[2]، وفي التَّعبير بالإيناس دون الإبصار نوعُ تمهيدٍ لهذا.

﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: القطعة من النَّار، والشِّهابُ: ما يمتدُّ منها، وإضافته إليه لأنَّه يكون قبساً وغير قبسٍ.

وقرئ منوناً[3] على أنَّ القَبَسَ بدلٌ منه، أو وصفٌ له؛ لأنَّه بمعنى المقبوس.

والعِدَتان على سبيل الظَّنِّ، ولذلك عبَّر بصيغة التَّرجِّي في موضع آخر، والتَّرديدُ لبيانِ عدم الخلوِّ بناءً على العادة، فلا ينافي الجمع[4]، وبيانِ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أمرٌ مهمٌّ باعثٌ للسَّعي في تحصيله.

---

(١) في (ف): «أورد».

(٢) في (ي) و(ع) و(م) زيادة: «أهلها».

(٣) قرأ الكوفيون: ﴿بِشِهَابٍ﴾ بالتنوين، وباقي السبعة بغير تنوين. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) في (ف): «الجميع».

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستغيثوا بها مِن البرد، والطَّاء بدل من[1] التَّاء الافتعاليَّة لأجل الصَّاد.

***

(٨) ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾؛ أي: النَّار التي أبصرَها.

﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، تقديرُه[2]: بأنَّه بُورِكَ، والضَّميرُ ضميرُ الشَّأنِ، وجاز ذلك مِن غير عوضٍ لأنَّ قولَه: ﴿بُورِكَ﴾ دعاءٌ، والدُّعاء[3] يخالف غيره في أحكامٍ كثيرةٍ.

أو مفسِّرةٌ؛ لأنَّ في النِّداء معنى القول.

﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: جعل البركة والخير قسمَيْن[4]: في مكان النَّار وهم الملائكة، ومَن حولَ مكانِها؛ أي: موسى عليه السلام بحدوثِ أمرٍ دينيٍّ.

وفي تصدير الخطاب بذلك بشارةٌ بأنَّه قد قُضِيَ له أمرٌ عظيمٌ تنتشرُ[5] بركته في أقطار الشَّام.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مِن تمامِ ما نُوديَ به؛ لئلَّا يتوهَّم مِن سماع كلامه

---

(١) في (م): «عن».

(٢) في (ف): «وتقديره».

(٣) «والدعاء» سقط من (ف).

(٤) في (ي) و(ع): «فيمن».

(٥) في (ك): «تنشر».

تشبيهاً، أو للتَّعجيب[١] مِن ذلك الأمرِ، أو تعجُّبٌ مِن موسى عليه السلام لِمَا دهاه[٢] مِن عظمتِه.

***

(٩) ـ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الهـاء للشَّـأن، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ مفسِّـرة لـه، أو للمتكلِّم[٣] و﴿أَنَا﴾ خبـره، و﴿ٱللَّهُ﴾ بيـانٌ له.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان للهِ ممهِّدتان لِمَا أراد أنْ يُظهِرَ على يده من المعجزة لمصلحةِ إثباتِ النُّبوَّةِ.

***

(١٠) ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، تقديرُه يُفهَم مِن التَّفصيل المذكور في سورة طه، لا على ﴿بُورِكَ﴾؛ لأنَّ الفصل بينهما بتجديد النِّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يأباه.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ حالٌ من المفعول، والاهتزازُ: تحرُّكٌ بحركتَيْنِ متدافِعَتَيْنِ.

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ أي: حيَّةٌ سريعةُ الحركةِ.

﴿وَلَّىٰ﴾ موسى عليه السلام ﴿مُدْبِرًا﴾: أعرضَ عنها، وجعلها تلي ظهرَه خوفاً منها بمقتضى البشريَّة.

---

(١) في (ف) و(ع): «للتعجب».

(٢) في (م): «رآه».

(٣) أي: للمتكلم المنادي له، فالتقدير: إنّ المنادي المتكلم أنا. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٣٥).

﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾: لم يرجع، يقال: قد عقَّبَ فلانٌ: إذا رجعَ، يقاتل بعدَ أن ولَّى.

فنُودِيَ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾؛ أي: مِن غيري[1] ثقةً بي[2]، وحُذف المفعول لظهوره، أو مطلقاً على تنزيل المتعدِّي منزلةَ اللَّازم.

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ أي: لا ينبغي لهم أن يخافوا حالَ تقريبي إيَّاهم بالخطاب، وفيه إشارة إلى أنَّ تلك الحالة كانت مقدِّمة للرِّسالة[3].

***

(١١) ـ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، استدرك به ما يختلج في الصَّدر[4] مِن نفي الخوف عن كلِّهم، ومنهم مَن فَرَطتْ منه صغيرة، فإنَّهم وإنْ فعلوها أَتبعوا فعلها ما يُبطلها[5]، ويستحقُّون مِن اللهِ مغفرةً ورحمةً.

ولم يقصدْ به تعريضَ موسى عليه السلام بوكزِه القِبطيَّ؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن وقتئذٍ[6] مرسلاً.

وقيل: متَّصل، و﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ مستأنَفٌ معطوفٌ على محذوفٍ؛ أي: ومَن ظلم ثمَّ

---

(١) في (ك): «أي: غيري»، وفي (ف): «أي غير».

(٢) في (ف) و(ك) و(ع): «لي».

(٣) في (م): «متقدمة للرسالة»، وفي (ك): «متقدمة الرسالة».

(٤) في (ك) و(م): «الصدور».

(٥) في (ك): «فعلهم ما يبطلها»، وفي (ف) و(م): «فعلهم ما يبطلون».

(٦) في (ع): «وحينئذ».

بدَّل حُسناً؛ أي: أتى بالتَّوبة بعد سُوءٍ متبدِّلاً[١] له بالحسن؛ أي: كان ذلك منه سبباً بتبديل السَّيئة بالحسنة.

وفي التَّعبيرِ عنها[٢] بالحُسْنِ مبالغةٌ في حسنها؛ لبعدِها مِن مَظنَّة شَوبِ الرِّياء والشِّرك، فإنَّ العَمَلَ قلَّما يخلو عنه[٣]، وهذا البَدَلُ لَمَّا لم يحصلْ بالعمَلِ خلَصَ عنه.

***

(١٢) ـ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ إنَّما قالَ: ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ لأنَّه كان عليه مَدْرَعَةُ صوفٍ لا كُمَّ له.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ فيه جمعٌ[٤] بينَ أمرَي التَّكليفِ والتَّكوينِ.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: قبحٍ، لَمَّا كانَ خروج الشَّيء مِن خِلقتِهِ وجوهرِهِ ممَّا[٥] يُستقبَحُ ويُستقذَرُ أخبرَ أنَّه لم يكنْ كذلكَ.

وأمَّا احتمالُ البَرَصِ فبِمَعزلٍ عن هذا المقامِ، مثلُ ذلك لا يخطرُ بالبالِ في أمثال[٦] هذه الآيات العِظام حتى يُحتاجَ إلى دَفعِهِ[٧].

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «مبدلًا».

(٢) في (ع): «عنه»، وفي (ف) و(ك): «هنا».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «العمل لا يخلو منه».

(٤) في (م) زيادة: «قلما».

(٥) في (ف) و(م): «بما».

(٦) في (ك): «مثل».

(٧) في (ع): «رفعه».

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾؛ أي: آيةً في تسعِ آياتٍ، وهي: العصا واليد والطُّوفان والجراد والقُمَّلَ والضَّفادع والدَّم والطَّمسة والجدب ونقصان الزَّرع[1].

وأمَّا الفَلْقَ فليس منها؛ لأنَّه عليه السلام لم يُبعَثْ به.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾؛ أي: مرسلاً.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ للإرسالِ.

***

(١٣) ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ لم يقل: جاءَهم موسى عليه السلام بها؛ لأنَّها كانت خارجةً عن حيِّزِ طاقته، وفي بعضها لم يكن منه عليه السلام تصرُّفٌ عاديٌّ.

﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ظاهرةً بيِّنةً، جُعِلَتْ كأنَّها تُبْصِرُ فتَهدي؛ لأنَّ العُمْيَ لا تقدرُ على الاهتداء، فضلاً عن أن تَهديَ غيرها[2]، ومنه قولهم: كلمةٌ عَيناءُ، وكلمةٌ عوراءُ؛ لأنَّ الكلمةَ الحسنةَ تُرشِدُ، والكلمةَ العوراءَ تُغوي، فهو مِن قَبيلِ الاستعارة الـمَكْنيَّة، وهي أبلغُ مِن المجازِ.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: واضحٌ سحريَّته، قُوبل بين المبصرة والمبين.

***

(١٤) ـ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ يُقالُ: جَحَدَ حقَّه وبحقِّه بمعنًى، ذكره في «الدِّيوان»[3].

---

(١) في (م): «المزراع»، وفي (ي): «المزارع منه».

(٢) في (ك) و(م): «غيره».

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٥٩٤)، ويظهر من كلام النسفي أن «الديوان» اسم كتاب، ولم أعرفه.

والجحودُ: هو الإنكارُ للشَّيءِ للجهلِ به، وقد يكونُ بعدَ المعرفة تعنُّتاً.

والواو في: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ للحال، و(قد) بعدها مضمَرةٌ، والاستيقانُ أبلغُ مِن الإيقانِ.

﴿أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: جَحدوها بألسنتهم، وقد استيقنوها بقلوبهم. وفي التَّعبير بـ ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ عن قلوبهم تنزيلٌ[1] لآلةِ الإقرار منزلةَ الترجمان.

﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾: ترفُّعاً عن الإيمان، وانتصابهما على العلِّيَّة من (جحدوا).

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق والإحراق في الدَّارَيْنِ.

***

(١٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ طائفةً مِن العلمِ، وهو علمُ الحُكْمِ والشَّرائع، أو: علماً أيَّ علمٍ.

﴿وَقَالَا﴾ الواو فصيحةٌ، تُفصح عن محذوفٍ تقديرُه: ففعَلا[2] شكراً لله تعالى ما فَعلا ممَّا لا يفي ببيانه[3] العبارة، وقالا:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أرادَ بالكثيرِ[4] المفضَّلِ عليه مَن لم

---

(١) في (ف) و(ك): «تنزيلاً».

(٢) في (م): «فعلا».

(٣) في (ف): «بيانه».

(٤) في (ي) و(ع): «بالتكثير».

يؤْتَ مثلَ علمها، دلَّ على ذلك تقييدُهم بالإيمان، فإنَّ المؤمن لا يخلو عن علمٍ، وفيه إخراجٌ للكفَّار عن حيِّزِ الاعتبار، وتعظيمٌ لنعمة التَّفضيل بتوصيف المفضَّل عليه بوصفٍ جليل، ودليلٌ على فضلِ العلمِ وشرفِ أهلِه، حيثُ شَكرَا على العلمِ وجعلاه أساسَ الفضلِ، ولم يعتبرا دونه ممَّا[1] أُوتِيا مِن الملك الذي لم يؤتَ غيرَهما، وتحريضٌ للعالِمِ على أنْ يحمدَ اللهَ تعالى على ما أتاه مِن فضلِهِ، وأنْ يتواضَعَ ويعتقدَ أنَّه وإنْ فُضِّلَ على كثيرٍ فقد فُضِّلَ عليه كثيرٌ، أو تساويا.

***

(١٦) ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النُّبوَّةَ والملكَ، بأنْ قامَ مقامَه في ذلك بعدَ موتِه[2]، ولهذا قال: ﴿وَوَرِثَ﴾ فإنَّ حقيقةَ الميراثِ: انتقالُ التَّركةِ مِن مِلْكٍ إلى مِلْكٍ.

والتركةُ: ما بقيَ بعدَ الموتِ، واستُعير هاهنا لِما ذكر.

وأمَّا العلم[3] فقد شاركَ أباه فيه، بل ترجَّح[4] عليه حالَ حياته على ما أفصحَ عنه قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[5] [الأنبياء: ٧٩].

﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، واعترافاً بمكانها، ودعاءً للنَّاس بذكرِ المعجزةِ التي هي عِلْمُ منطقِ الطَّير وغير ذلك مِن عظائمِ ما أوتيه.

---

(١) في (ك): «ما».

(٢) «بعد موته» سقط من (ك).

(٣) في (م): «ذكروا من العلم» بدل «ذكر. وأما العلم».

(٤) في (ف): «يترجح».

(٥) «سليمان»: ليست في (ك) و(م) و(ي) و(ع).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ النُّطقُ والـمَنْطِقُ في المتعارَف: الأصواتُ المقطَّعة التي يُظْهِرُها اللِّسانُ وتَعيها الآذانُ، ولا يُقالُ لغير الإنسان إلَّا على سبيلِ التَّبعِ؛ نحو: النَّاطق والصَّامت، لِمَا له صوتٌ ولِما لا صوتَ له.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ المرادُ به: كثرةُ ما أوتي، كما يُقال: فلانٌ يعلمُ كلَّ شيءٍ، ويعضدُه كلُّ أحدٍ.

والضَّمير في ﴿عُلِّمۡنَا﴾ و﴿أوتينا﴾ له ولأبيه، أو له وحدَه، وهذه النُّونُ نونُ الواحدِ المُطاعِ، فكانَ مَلِكاً مُطاعاً يكلِّم[1] أهلَ طاعته[2] على صفته وحاله التي كان عليها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قولٌ واردٌ على سبيلِ الشُّكرِ، كقوله عليه السلام: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ»[3]؛ أي: أقولُ هذا القولَ شكراً ولا أقولُه[4] فخراً.

***

(١٧) - ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: جُمِعَ مِن جهاتٍ مختلفةٍ.

﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ قدَّم الجنَّ على الإنس لأنَّ مقامَ التَّسخيرِ لا يخلو مِن نوعِ تحقيرٍ[5].

---

(١) في (ع) و(ك) و(م): «فكلم»، وفي (ي): «فكلمه»، والمثبت من (ف).

(٢) في (ف) و(ك) زيادة: «على إطاعته».

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٥) وصححه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون قوله: «ولا فخر».

(٤) في (ك): «أقول».

(٥) كذا قال، وقد تعقبه الشهاب الخفاجي والآلوسي بالقول: (ليس بشيء؛ لأنّ التسخير للأنبياء =

﴿وَٱلطَّيۡرِ﴾ لو كان فيها جنسٌ آخر لذكره هنا.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾: يُمْنَعون عن التَّفرُّقِ والانتشار حتى يجتمعوا في مسيرهم، وذلك أحسنُ في الهيئةِ وأهيبُ في الرُّؤيةِ.

* * *

(١٨) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ ضمَّنَ ﴿يُوزَعُونَ﴾ معنى فعلٍ يصلحُ أن تكون (حتى) غايةً له؛ أي: فهُم يسيرون لُفُوفاً[1]، لا يفارق بعضهم بعضاً.

﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ هو وادٍ بالشَّام كثيرُ النَّمل، وعُدِّي ﴿أَتَوۡاْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ إمَّا لأنَّ إتيانهم كان مِن فوق، أو لأنَّه أريد معنى قطع الوادي وبلوغِ آخره.

= عليهم الصلاة والسلام شرف؛ لأنه في الحقيقة لله الذي سخر كل شيء). قلت: وقد ذكر الآلوسي رحمه الله من الحكمة في ذلك ما هو أنسب بالمقام وأقرب إلى الأفهام فقال: (وتقديم الجن للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزة سلطانه من أول الأمر؛ لِمَا أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير. ولم يقدم الطير على الإنس مع أن تسخيرها أشق أيضاً وأدلُّ على قوة الملك وعزة السلطان لئلا يُفصل بين الجن والإنس المتقابلين والمشتركين في كثير من الأحكام). وما أحسن هذا الكلام، وقد دار بخلدي قبل أن أراه عند الآلوسي، فكفاني الله به مؤونة التعبير عنه.

(١) في النسخ: «ملفوفاً»، وفي هامش (م): «لعلها لفوفاً». قلت: وهي الصواب، واللُّفوف: جمع لِفٍّ بكسر اللام، وهو القوم المجتمعون، والصنف من الناس، والحزب. انظر: «القاموس» (مادة: لفف).

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ تاؤها للوحدة، وهي في حكم المؤنَّث اللَّفظي، جاز أن يعامل معاملته، كتمرٍ وتمرة، فلا دلالة فيه على كونه أنثى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ لم يقلْ: (ادخلْنَ) لأنَّه جعلها قائلة والنَّمل مَقولاً لهم، كما يكون في أولي العقل، فأجرى خطابَهم مجرى خطابِهم.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ الحَطْمُ: الكَسْرُ.

﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ نهى سليمانَ عليه السلام عن الحَطْمِ، والمرادُ نهيُها عن التَّوقُّف بحيث يحطمونها، كقولهم: لا أرينَّك هاهنا، فهذا استئنافٌ، أو بدلٌ مِن الأمرِ، لا جوابٌ له فإنَّ النُّونَ لا تدخله في السَّعة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّهم يحطمونكم، إذْ لو شعروا لم يفعلوا.

قالَتِ النَّملةُ ذلك على وجهِ العُذْرِ ووَصْفِ سليمانَ وجنودِه بالعدلِ.

***

(١٩) - ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ الفاء فصيحة، تُفْصِحُ عن محذوفٍ، تقديرُه: سمِعَ سليمانُ كلامَها فتبسَّمَ.

﴿ضَاحِكًا﴾ شارعاً في الضَّحكِ، آخذاً فيه.

﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ متعجِّباً مِن حذرِها وتحذيرِها واهتدائِها لمصالحها ونصيحتها للنَّمل، أو فرحاً لظهور عدله.

وإنَّما قال: ﴿ضَاحِكًا﴾ لأنَّ التَّبسُّم قد يكون مِن غضبٍ، وقد يكون مِن استهزاءٍ، وتبسُّمُ الضَّحكِ لا يكونَ إلَّا عن سرورٍ.

فإنْ قلْتَ: الظَّاهر مِن هنا أنَّ سليمان عليه السلام كان عالماً بلسان غير الطَّيرِ مِن الحيوانات، فما وجهُ تخصيصه بالذِّكر في مَقامِ إظهارِ الشُّكرِ على ما آتاه الله تعالى مِن جلائل النِّعم؟

قلْتُ: قد أجابَ الشَّعبيُّ عن هذا حيث قال: كانَ للنَّملةِ جناحان، فصارَتْ مِن الطَّيرِ، فلذلك علمَ سليمانُ مَنطقَها، ولولا ذلك لَمَا علمَه[1].

﴿وَقَالَ﴾ سائلاً توفيقَ شكر تلك النِّعم الجليلة:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ أي: يسِّرْ لي الشُّكرَ وازِعاً إيَّاه، ووزعُ الشُّكر كنايةٌ عن وزعِ مُوجبِه وهو النِّعمة، فهو كلام في غاية الفصاحةِ.

﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أدرجَ فيه ذكر والديه تكثيراً للنِّعمةِ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ تماماً للشُّكرِ واستدامةً للنِّعمةِ.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: في عدادهم الجنَّة.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ حقيقةُ التَّفقُّد: تعرُّفُ فُقدانِ الشَّيء.

﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ بدأ أوَّلاً بنفسه، ثمَّ قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ قرينُه: أحادَ بصري عنه بسببٍ؟ ولَمَّا كانَ المذكور في قوَّته نُزِّلَ منزلَتَهُ، وعُطف عليه على سبيل العطف من جهة المعنى، وكأنَّ الغالب على ظنِّه هذا الاحتمال، على ما دلَّ عليه عبارة ﴿كَانَ﴾، فلذلك قال:

---

(١) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٧).

(٢١) ـ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ كَنَتْفِ ريشِه وإلقائِه في الشَّمسِ أو حيث النَّملُ يأكلُه، أو جعلِه مع ضِدِّه في قفصٍ.

﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليَعتبرَ به أبناءُ جنسِه.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بحجَّةٍ تبيِّنُ عذرَهُ. والسُّلطانُ في الأصل: إظهارُ ما يتسلَّطُ به.

والحلفُ في الحقيقةِ على أحدِ الأمرَيْنِ بتقديرِ عدم الثَّالث، لكنْ لَمَّا اقتضى ذلك وقوعَ أحدِ الأمور الثَّلاثةِ ثلَّثَ المحلوف عليه بعطفه عليهما.

***

(٢٢) ـ ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

﴿ فَمَكَثَ ﴾؛ أي: كان غائباً فمكَثَ، فالفاء فصيحة.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾؛ أي: لبثَ زماناً غيرَ بعيدٍ عن وقتِ تفقُّدِه، يريد به الدِّلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه عليه السلام.

ولَمَّا كان المذكور في وقت(١) الإخبار عن مجيئِه عن قريبٍ رتَّب عليه قوله:

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا ﴾ علمْتُ مِن جميع جهاتِه شيئاً ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يعني: حال سبأ(٢).

وفي مخاطبته إيَّاه بذلك تنبيهٌ له على أنَّه في أدنى خلق الله تعالى مَن أحاطَ

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «حكم».

(٢) في (ك): «من أحواله» بدل «سبأ».

علماً بما لم يحطْ به؛ لتتحاقرَ إليه نفسُه، ويتصاغرَ لديه علمُه، ويكونَ لطفاً في ترك الإعجابِ الذي هو فتنةُ العلماءِ.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ قرئ مصروفاً على أنَّه اسم للحيِّ أو للأب الأكبر، وغيرَ مصروفٍ على تأويل القبيلة أو البلدة[1].

﴿بِنَبَإٍ﴾: بخبرٍ له شأنٌ.

أتى بهذا النَّوعِ مِن الإطناب مِن جهة المعنى تشويقاً له حتى تنكسرَ سَورَةُ غضبِه[2].

﴿يَقِينٍ﴾: مُحقَّق.

***

(٢٣) - ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ يعني: بلقيس بنتَ شراحيل[3]، وإنَّما قال: ﴿وَجَدتُّ﴾ دون: رأيت، إشعاراً بغرابةِ الحالِ، حيث كانَتْ بتلكَ العظمةِ والشَّوكةِ وقربِ المكان مجهولةً لسليمان عليه السلام وأصحابِه[4].

---

(١) قرأ البزي وأبو عمرو بفتح الهمزة من غير تنوين، وقنبل بإسكان الهمزة على نية الوقف، والباقون بخفضها مع التنوين. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «تشريفاً له حيث يتشوق ليكسر سورة غيظه».

(٣) في (ف) و(ك): «بنت أصل».

(٤) في هامش (م): «قال القرطبي: كيف خفي على سليمان عليه السلام مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة؟ فالجواب: أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام. منه».

﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ الضَّمير لسبأ أو لأهلها، وإنَّما لم يقلْ: تملكها؛ لأنَّه أرادَ بيان ملكها وسلطنتها، وتعيينُ ذلك بالإضافة إلى أهل الدِّيار، لا بالإضافة إليها، ففيه أيضاً تقويةٌ لمعنى الغرابة المقصودة بعبارة النَّبأ، حيث كانت امرأةً ملكةَ قبيلةٍ عظيمةٍ.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ قد نبَّهْتُ فيما تقدَّمَ أنَّ المرادَ مِن (كلّ شيء) في مثل هذا: المبالغةُ في الكثرة، فمَن قيَّده بقوله: يحتاج إليه الملوك، فقد فوَّتَ تلكَ المبالغةَ.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: سريرٌ كبيرٌ قَدْراً أو قِيمةً.

***

(٢٤) ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ﴾: يعبدونَ.

﴿لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أضلَّهم الله تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فالواو فصيحةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على مقدَّرٍ.

﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مِن عبادةِ الشَّمس وغيرِها مِن قبائحِ الأفعالِ.

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ مِن صدَّ السَّبيلُ[1]: إذا اعترضَ دونَه مانعٌ من عقبةٍ أو غيرها فأخذتَ في غيره[2]؛ ففيه ثلاثُ معانٍ: المنعُ والدَّفع والصَّرف.

---

(١) في (ك) و(م): «صد عن السبيل»، وفي (ف): «صدر السبيل». والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الموافق لما في «الأساس» و«اللسان» و«التاج» (مادة: صدد).

(٢) في (ع) و(ف): «فأخذ في غيره»، وفي (م): «فانتذب غيره»، وسقطت من (ك).

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: طريقِ الحقِّ والصَّوابِ، وإنَّما أطلقَ السَّبيلَ لأنَّ السبَّيلَ الذي لا يجوز سُلوكُه ممنوعٌ، فكأنَّه ليس بسبيلٍ.

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

***

(٢٥) ـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: فصدَّهم لِأَنْ لا يسجدوا، أو: زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم لِأَنْ لا يسجدوا[1]، فحذف الجار مع (أن)، فأدغمت النُّون في اللَّام، أو: زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم أنْ لا يسجدوا، على أنَّه بدل من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أو: لا يهتدون إلى أنْ لا يسجدوا، بزيادة (لا).

وقرئ ﴿أَلَا﴾ بالتَّخفيف على أنها للتنبيه و﴿يسجُدوا﴾ بمعنى: يا اسجدوا[2]؛ نداءٌ، والمنادى مضمَر؛ أي: يا هؤلاء اسجدوا لله.

وعلى هذا صحَّ أنْ يكون استئنافاً من سليمان عليه السلام أو من الله، والوقفُ على ﴿يَهْتَدُونَ﴾، وكان أمراً بالسُّجودِ، وعلى الأوَّل ذمًّا على تركه، وعلى الوجهَيْن يقتضي وجوبَ السُّجودِ في الجملةِ، لا عندَ قراءتها.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخبء: ما يخفَى في غيره، وإخراجُه:

---

(١) «أو زين له الشيطان أعمالهم لأن لا يسجدوا» ليست في (م)، وكلمة: «الشيطان» ليست في (ي) و(ع).

(٢) قراءة الكسائي، ويقف على (يا)، ويبتدئ: (اسجدوا) على الأمر. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧).

إظهارُه، وهو يعمُّ إشراقَ الكواكبِ، وإنزالَ الأمطارِ، وإنباتَ النَّباتِ، بل الإنشاء، فإنَّه إخراجُ ما في الشَّيءِ بالقوَّة إلى الفعل، والإبداع فإنَّه إخراجُ ما في الإمكان والعَدم إلى الوجوب والوجود، ومعلومٌ أنَّه يختصُّ بذاته.

﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(١) وصفٌ له تعالى بما يوجبُ اختصاصَه باستحقاقِ السُّجود مِن التَّفرُّد بكمالِ القُدرةِ والعِلمِ، حثًّا(٢) على السُّجود، ورداً(٣) على مَن يسجدُ لغيره.

وتقديم ﴿ما يُخْفُونَ﴾ على ﴿ما يُعْلِنُونَ﴾ مع أنَّ مقتضى أسلوب التَّرقي تأخيرُه عنه؛ للتَّسوية بين جُزْئَي الكلامِ في الاهتمام.

***

(٢٦) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أوَّلُ الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتِها، فبينَ عظمِه وعظمِ عرشِها(٤) بونٌ بعيدٌ.

وقرئ: ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴾ بالرَّفع نعتاً لله تعالى(٥).

***

---

(١) كذا في النسخ بالياء في الفعلين، وهي قراءة أكثر السبعة إلا حفصاً والكسائي فقرأا بالتاء فيهما. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٨).

(٢) في (ف): «حث».

(٣) في (ك): «وردٌ».

(٤) أي: عرش بلقيس.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩).

(٢٧) ـ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ مِن النَّظرِ بمعنى التَّأمُّل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرْتَ.

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ هذا أبلغ مِن: أكذبْتَ؛ لأنَّه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإنَّما استحقَّ هذه المبالغة على تقدير الكذب لأنَّه أخبر بأمرٍ عظيمٍ، وبالغَ فيه.

* * *

(٢٨) ـ ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ﴾ إنَّما أمرَه بالإلقاء لأنَّ الطَّائر لا يمكنُه تبليغُ الكتاب مقاولةً، إلَّا أنَّه ضمَّنه معنى الإيصال، ولذلك قال:

﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: اطْرَحه على وجهٍ يصلُ إليهم.

ولَمَّا كانَ المقامُ مقامَ التَّأنِّي الذي يقتضي قَدْراً مِن الزَّمان نبَّهَ عليه بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: تنحَّ عنهم إلى مكانٍ قريبٍ، بحيث تراهم ولا يروْنَك؛ ليكون ما يفعلونه بمنظرٍ منك، على ما دلَّ عليه قولُه:

﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ مِن الرَّجْعِ لا مِن الرُّجوعِ؛ أي: ماذا يردُّون في مقابلةِ كتابنا.

* * *

(٢٩) ـ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾؛ أي: قالَتْ ملكةُ سبأ لأشرافِ قومِها بعدما فعلَ الهدهدُ ما أُمِرَ به.

﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾: حَسَنٌ مضمونُه، أو: مختوم، قال عليه السلام: «كرمُ الكتاب ختمُه»[١].

***

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ استئنافٌ، كأنَّه قيل لها: ممَّنْ هو؟ فقالت: إنَّه؛ أي: إنَّ الكتاب.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإنَّ المكتوبَ أو المضمونَ[٢].

وقرئ بالفتح[٣] على الإبدال من ﴿كِتَٰبٞ﴾، أو التَّعليلِ لكرمه.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ﴾: لا[٤] تترفَّعوا ﴿عَلَيَّ﴾ و(أنْ) مفسِّرة أو مصدريَّة، فيكون بصِلَته خبرَ محذوفٍ؛ أي: هو أو المقصودُ أنْ لا تعلوا، أو بدلٌ من ﴿كِتَٰبٞ﴾.

﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾: منقادين.

قولها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ صريحٌ في أنَّ الدَّعوة كانت دعوة السَّلطنة لا دعوةَ النُّبوَّة.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «كرامة الكتاب..». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٩): فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٢) في هامش (ي): «صورة مكتوب سليمان عليه السلام: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد، فلا تعلو عليَّ وأتوني مسلمين. الكواشي».

(٣) نسبت لعكرمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩).

(٤) في (ف): «ألا».

(٣٢) ـ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾: أشيروا عليَّ ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾: في الأمر الذي نزل بي.

والفتوى: الجوابُ في الحادثة، اشتُقَّتْ[1] على طريق الاستعارة من الفتيِّ في السِّنِّ، والمرادُ هاهنا: الإشارةُ عليها بما عندهم مِن الرَّأي.

وقصدُها بالرُّجوع إلى استشارتهم: تطييبُ نفوسِهم ليمالئوها ويقوموا معها[2]، ولذلك قالت:

﴿مَا كُنتُ﴾ في الزَّمان الماضي ﴿قَاطِعَةً﴾: قاضية ﴿أَمْرًا﴾؛ أي: ممضيةً حكماً.

﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ بكسر النون، والفتح لحنٌ؛ لأنَّ النُّون إنَّما تُفتَح في موضع الرَّفع، وهذا موضعُ النَّصب، وأصله: تَشهدونني، فحذفت النُّون الأولى للنَّصب، والياءُ لدلالة الكسرة عليها، وبالياء في الوصل والوقف[3]؛ أي: تَحضروني؛ أي: كانت عادتي أنْ لا أبتَّ أمراً إلَّا بحضرتكم، فكيف في هذه النَّازلة الكبرى؟!

فراجعَها الملأُ بما يُقِرُّ عينَها مِن إعلامِهم إيَّاها بأنهم أولو[4] القوة والبأس، ثمَّ سلَّموا الأمرَ إلى نظرها، وهذه محاورةٌ حسنةٌ مِن الجميعِ.

***

(٣٣) ـ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ مجيبينَ لها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوَّةِ قوَّةَ الأجساد

---

(١) في (ف): «استفتت».

(٢) في (ك): «ويوافقوها».

(٣) وهي قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٠)، و«تفسير النسفي»، وعنه نقل المؤلف.

(٤) في(ك): «بأنهم في غاية»، وفي (م): «بأنهم هي»، وفي (ي) و(ع): «ما بهم من».

والآلات، وبالبأس: النَّجدة والبلاء في الحرب؛ أي: قادرون على القتال لا فتورَ فينا ولا قصورَ لوُفور عَددنا وعُددنا، وإنَّما قدَّموا هذا الكلام لكيلا تتوهَّم العجزَ مِن تفويض الأمر إليها بقولهم:

﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكول ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من الحرب والصُّلح، نطيعك ونمتثِل أمرَكِ.

***

(٣٤) - ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ أتى بصيغة الجمع تنصيصاً على تعميم الحكم للأفراد؛ فإنَّ في الجنس احتمالَ الخصوص.

﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ يعني: عنوةً، بقرينة قوله: ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالتَّخريبِ ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾: أهانوا أشرافَها لتستقيمَ لهمُ الأمور.

زيَّفَتْ ما أحسَّتْ منهم مِن الميل إلى المحاربة بادِّعائهم أسبابَ الغلبة، وذكرَتْ لهم سوءَ عاقبة الحرب، وأشعرَتْ بأنَّها ترى الصُّلحَ مخافةَ أنْ يتخطَّى سليمان عليه السلام خططَهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم[(١)].

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وصفَتْ مِن حالِهم، وتقريرٌ بأنَّ ذلك عادتُهم الثَّابتةُ المستمرَّة، أو تصديقٌ لها من الله تعالى.

***

---

(١) في هامش (ف) و(م): «وأما ما قيل: الحرب سجال، فلا يناسب المقام، إنما يقال ذلك لمن غلب مرة. منه».

(٣٥) - ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم﴾ رسولاً ﴿بِهَدِيَّةٖ﴾ بيانٌ لِـمَا ترى تقديمه في المصالحة.

﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾: منتظرةٌ ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ بالرِّعاية أو بالإهانة، حتى أعملَ بحسب ذلك.

﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾: الرَّسولُ ومَن أُرْسِلَ معَه.

***

(٣٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: الرَّسولُ، وقرئ: (فلمَّا جاؤوا)[1]؛ أي: المرسلون سليمان[2].

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ خطابٌ للرَّسولِ ومَن معَه، أو الرَّسولِ والمرسِل على تغليب المخاطَب، استفهامٌ إنكاريٌّ، فالفاء في قوله:

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ تعليليَّة؛ أي: فالذي أعطاني الله تعالى مِن النُّبوَّة والملك وسخَّر لي الجنَّ والإنس والرِّيح والطَّير والوحش ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فلا حاجةَ لي بهديَّتكم، ولا وَقْعَ لها عندي.

﴿بَلۡ﴾ إضراب عن إنكارِ الإمداد بالمال عليه وتعليلِه[3] إلى بيان السبب

---

(١) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٩)، و«البحر المحيط» (١٦/ ٤٣١).

(٢) «سليمان» من (ك) و(م).

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «وتقليله»، والمثبت من (ع) و(ي)، والبيضاوي، وقال الشهاب: قوله: (وتعليله) بالجر معطوف على (إنكار)، وهو المستفاد من قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ﴾ إلخ.

الـذي حملهـم عليـه، وهـو قيـاسُ حالـه علـى حالهـم فـي قصـور الهمَّـة بالدُّنيـا والزِّيـادة فيها.

﴿أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ والهديةُ: اسمٌ لِمَا يُهدَى، كما أنَّ العطيَّةَ اسمٌ لِمَا يُعطَى، فتضاف إلى المهدِي والمهدَى له، تقول: هذه هديةُ فلانٍ؛ تريد: الذي أهداها، أو أهدِيَتْ له.

﴿تَفْرَحُونَ﴾ لأنَّكم لا تعلمون إلَّا ظاهرَ الحياة الدُّنيا، فـتفرحونَ بما يُهدَى إليكم لزيادةِ أموالِكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالِكم.

***

(٣٧) ـ ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾.

﴿ ارْجِعْ ﴾ خطابٌ للرَّسولِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيسَ وقومِها.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾؛ أي: إنْ لم يأتوني مسلمين فلنأتينَّهم ﴿بِجُنُودٍ﴾ بأنواع من الجند[١] ﴿لَّا قِبَلَ﴾: لا طاقةَ ﴿لَهُم بِهَا﴾ وحقيقةُ القِبَلِ: المقابلةُ والمقاومةُ؛ أي: لا يقدرون أن يقابلوهم[٢].

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾: مِن ديارهم ﴿أَذِلَّةً﴾ الذُّلُّ: أنْ يذهبَ عنهم ما كانوا فيه مِن العزِّ والملكِ.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الصَّغارُ: أنْ يقَعوا في أسرٍ واستعبادٍ.

فلمَّـا رجـع إليهـا رسـولُها بالهدايا، وقـصَّ عليهـا القصَّة، قالَـتْ: هو مؤيَّـدٌ مِن عنـدِ اللهِ تعالـى، ومـا لنا بـه طاقةٌ، ثـم جعلَتْ عرشَـها في آخر سبعةِ أبيـات، وغلَّقَتِ الأبـوابَ، ووكَّلـت حرسـاً يحفظونـه، وبعثت إلى سـليمان عليه السـلام: إنِّـي قادمةٌ

---

(١) في (م): «الجنود».

(٢) في (ك): «يقابلونا»، وفي (ف): «يقابلوا».

إليـك لأنظـرَ مـا الذي تدعـو إليه، وشَـخَصَتْ إليـه في اثني عشـرَ ألف قَيـلٍ[1]، تحت كلِّ قَيـلٍ ألـوفٌ، فلمَّـا بلغَـتْ على رأس فرسـخٍ مِن سـليمان عليه السـلام.

* * *

(٣٨) ـ ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ سليمانُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أراد أنْ يُريَها بذلك بعضَ ما خصَّه اللهُ تعالى به مِن إجراء العجائب على يده لتطَّلع على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوَّة سليمان عليه السلام حتى تصدِّقَه[2] وتؤمنَ به، ثمَّ إنَّه قصد في ضمن هذا فائدةً أخرى على ما تقف عليها.

﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وإنَّما تعرَّض بوصف الإسلام إعلاماً بأن طلبه عرشها ليس طمعاً فيه؛ فإنَّ النَّبيَّ بمعزَلٍ عن مظنَّةِ الطَّمع في مالِ مَن علِمَ أنَّه يأتيه مسلِماً، وأمَّا ما قيل: إنَّها لو أسلمَتْ لحظرَ عليه مالُها فلا يؤتى به؛ فإنَّما يصحُّ وجهاً لطلبه عرشها قبل إتيانها مسلِمةً، لا لتقييد[3] أمرِه بذلك القيد[4]؟

* * *

(٣٩) ـ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ العِفْرِيـتُ: الخبيثُ المنكرُ المعفِّرُ[5] أقرانَه، ولا اختصاصَ

---

(١) في (ف) و(م): «فيل» في الموضعين. والقَيل: أحد ملوك حمير دون الملك الأعظم. كما في «النهاية».

(٢) في (ك): «تصدقها».

(٣) في (ك): «لتعيد». وفي (م): «لتفيد».

(٤) في هامش (ف) و(ي): «يعني قيد الإسلام وأما قيد الإتيان فلا بد منه. منه».

(٥) في (ك): «المعفر».

له بالجنِّ، ولذلك احتيج[١] إلى البيان بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّه صخرٌ الجنِّيُّ[٢].

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ صالح للفعليَّة والاسميَّة ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: مجلسَه للقضاء، وهو مِن الغداة إلى نصف النَّهار.

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الإتيان به ﴿لَقَوِىٌّ﴾: لقادرٌ، وإنَّما عبَّرَ عن القدرة بالقوَّة للحاجة في تحصيل ما ذكر إلى القدرة بالقوَّة.

﴿أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو لا أختزلُ[٣] منه شيئاً، ولا أبدِّلُه.

***

(٤٠) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ الفصلُ بينَ القولَيْنِ لأنَّ أحدَ القائلَيْنِ لم يكن مِن جملة المخاطَبين، والظَّاهرُ أنَّه هو الثَّاني منهما، واحتمال أن يكون المراد مِن القائل الثَّاني سليمان عليه السلام يردُّه كافُ الخطابِ في ﴿ءَاتِيكَ﴾؛ فإنَّ حقَّه حينئذٍ أنْ يقولَ[٤]: (أنا آتي به)، وأيضاً لا يناسبه قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾، إنَّما المناسب حينئذٍ أن يقول: فلمَّا أتى به.

---

(١) في (م): «احتاج».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٤).

(٣) في (ف): «لا أترك».

(٤) «أن يقول»: ليست في (م).

والمشهور أنَّه آصفُ بن بَرخيا كاتبُ سليمان عليه السلام، ويناسبه التَّعبير عنه بقوله:

﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وفي التَّوصيف به إشارة إلى أنَّه ما قدرَ على ما قدرَ[1] عليه بقوَّةٍ حيوانيَّةٍ[2]، بل بقوَّةٍ صمدانيَّةٍ.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ الطَّرْفُ: تحريكُ الأجفانِ؛ أي: ما بينَ امتدادِ الطَّرْفِ بفتحها وارتداده بطبقها، وليس فيه وضع الطَّرْفِ موضعَ النَّظرِ[3].

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾؛ أي: العرشَ، والفاء فصيحة؛ أي: أَذن له سليمانُ عليه السلام فأتى به فلمَّا رآه.

﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾: ثابتاً غيرَ مضطربٍ لديه، وقرارُه في موضعه أمرٌ آخر وراءَ حضورِه يحتاج إلى فضلِ زمانٍ بحسَب العادة، وبهذا الاعتبار كان لعبارة ﴿مُسۡتَقِرًّا﴾ فضيلةٌ على عبارة (حاضراً).

﴿قَالَ﴾ تلقِّياً للنِّعمةِ بالشُّكرِ: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: حصولُ مرادي، وهو حضورُ العرشِ في طرفةِ العينِ ﴿مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ عليَّ وإحسانِه إليَّ مِن غير استحقاقٍ منِّي.

﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾: ليتعبَّدني في صورة الاختبار: ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ إنعامه ﴿أَمۡ أَكۡفُرُ﴾: أَجحد.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لأنَّه يَحطُّ به عنها عبءَ الواجب، ويَصونها عن وَصْمةِ الكفران، ويستجلب به المزيد، ويُرتبَط به العتيد[4].

---

(١) «على ما قدر» ليست في (ف) و(ك).

(٢) في (ع) و(ي): «ليس بقوة جسدانية» بدل: «بقوة حيوانية».

(٣) في هامش (ف) و(م): «هو مقدمة النظر كما أن النظر مقدمة الرؤية. منه».

(٤) العتيد: الحاضر المهيأ، وجاء في «تفسير النسفي» (٢/ ٦٠٧): (وترتبط به النعمة)، والمثبت موافق لما في «تفسير أبي السعود» (٧/ ٧١)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٥٤).

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ حذف جزاءَه، وهو: فإنَّما يكفر على نفسه؛ أي: ضررُ كفرِه عليه لا يتعدَّاه؛ لظهوره بقرينة ما ذكر في قرينه، وأقيم تعليله مقامَه.

﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن الشُّكرِ، لا[١] يتضرَّر إنْ لم يُشكَرْ.

﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعامِ، لا يتوقَّع عوضاً ولا يفعل لغرضٍ حتى ينفعل عند عدم حصولِه، فالوصفُ المذكور مِن تمامِ التَّعليلِ.

***

(٤١) ـ ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا﴾ أرادَ بتنكيرِ ﴿عَرْشَهَا﴾ تغيير معاهده[٢] عندها، ولذلك قال: ﴿لَهَا﴾، لا تبديل شكلها وتغيير هيئتها؛ إذ حينئذ يكون منكراً مطلقاً، لا منكراً عندها فقط، وأيضاً مدارُ الاختبار على التَّغيير في الجملة، وأمَّا وجه الاختبار فسيأتي تفصيلُه.

﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على الجواب، وقرئ بالرَّفع على الاستئناف[٣].

﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى الجوابِ الصَّواب، وقيل: إلى الإيمان بالله ورسوله، ويَرِدُ عليه: أنَّه حينئذ لا حاجة إلى التَّنكير، بل لا وجهَ له؛ لأنَّ بقاءَه على حاله أعونُ على تحصيل هذا المراد، والله الهادي إلى سبيل الرَّشاد.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾: أم يظهرُ كونُها ﴿مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لا يقدرون على الاهتداء.

---

(١) في (ف) و(ك): «بأن» بدل «لا».

(٢) في (ك): «معاهدته».

(٣) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩).

قالوا: إنَّ الشَّياطين خافوا أنْ يتزوَّجَها سليمان عليه السلام، فيولَدَ له منها ولدٌ يجتمع له فِطنةُ الإنسِ والجنِّ؛ لأنها كانت بنتَ جنِّيَّة، فيخرجون مِن مُلْكِ سليمان إلى مُلْكٍ هو أشدُّ وأفظع، فقالوا: إنَّ في عقلِها شيئاً، وهي شَعْراءُ السَّاقين، ورجلُها كحافر الحمار، فاختبَرَ عقلَها بتنكيرِ العرشِ، وتعرَّف ساقيها ورجليها باتِّخاذ الصَّرْح على ما يأتي بيانُه، فالمرادُ مِن كونِها مِن الذين لا يهتدون: كونُها مِن الطَّائفةِ الحمقى، ومِن هاهنا تبيَّن وجهُ الإطنابِ، والله أعلم بالصَّواب.

***

(٤٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ الفاء فصيحةٌ، والمقدَّرُ يظهرُ بأدنى تأمُّلٍ.

﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ (ها) للتَّنبيه، والكاف للتَّشبيه، و(ذا) اسم الإشارة[١]، ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكنْ: أمثلُ هذا عرشُكِ؟ لئلا يكون تلقيناً[٢].

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فأجابَتْ[٣] أحسنَ جوابٍ؛ فلم[٤] تقل: (هو، هو)، ولا: (ليس هو)، وذلك مِن رَجاحة عقلِها، حيث لم تقطَع في المحتمِلِ للأمرَيْنِ، أو لَمَّا شبَّهوا عليها بقولهم: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ شبَّهَتْ عليهم بقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ مع أنَّها علمَتْ عرشها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ مِن تمامِ كلامِها؛ أي: وأوتينا العلم بقدرة الله وبصحَّة

---

(١) في (ك): «إشارة».

(٢) في (ف): «ليكون تلقيا». وفي (م): «لئلا يكون تلقيا».

(٣) في (م): «فأجابته».

(٤) في (ك) و(م): «ولم».

نبوَّتِـك بالآيـات المتقدِّمـة مِـن أمرِ الهدهـد والرُّسـل مِن قبل هـذه الحالـة الخارقة للعادة.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادِينَ لكَ مطيعينَ لأمرِكَ، وكأنَّها وقفَتْ على ما قصدَه سليمانُ عليه السلام بذلك أوّلاً وآخِراً.

***

(٤٣) ـ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَصَدَّهَا﴾ كلامٌ مبتدأٌ مِن اللهِ تعالى.

﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: منعَها عن التَّقدُّم إلى الإسلام عبادةُ الشَّمسِ ونشوؤها بين ظهرانَي الكفرَة، ثمَّ بيَّنَ نشأتها بينهم بقوله:

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ وقرئ بالفتح[1] على الإبدال من فاعل (صدَّ)؛ أي: صدَّها نشوؤها بينَ أظهر الكفَّار، أو على التَّعليل فتكون لامُ التعليل محذوفاً من (أنَّ).

***

(٤٤) ـ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ الصَّرح[2]: هو الموضعُ البسيطُ المنكشِفُ مِن غيرِ سقفٍ، ومنه قولهم: صرَّحَ بالأمر: إذ أفصحَ[3] به ولم يَكْنِ عنه، وكانَ ذلك الصَّرحُ مِن زجاجٍ أبيضَ شفَّافٍ، تحتَه ماءٌ جارٍ، فيه سمكٌ.

---

(١) نسبت لسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩).

(٢) «الصرح» من (م) و(ي).

(٣) في (م): «إذا أفصح».

﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً﴾ اللُّجَّةُ: معظمُ الماءِ.

﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ لتخوضَه، والواو فصيحة عاطفة على مُقدَّرٍ، تقديره: فشمَّرَتْ ذيلها[1]، فالمرتَّبُ على الحسبان المذكور مجموعُ المعطوفَيْن، والواو المذكورة كاشفةٌ عن هذا.

وكان سليمان عليه السلام على سريرِه في صدْرِ الصَّرْحِ، فرأى ساقيها وقدميها حِساناً، فصرَفَ بصرَه ثمَّ ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ﴾ مملَّسٌ مستوٍ، ومنه: الأمرد.

﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾: من الزُّجاج.

وأراد سليمان عليه السلام تزوُّجَها، فكرِهَ شعرَها، فعملَ له الشَّياطين النُّوْرَةَ، فأزالته، فنكحها[2].

﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بعبادةِ غيرِكَ ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: تابعةً إيَّاه ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه التفاتٌ مِن الخطاب إلى الغيبة؛ إظهاراً لباعث إسلامه له تعالى، وهو ألوهيَّتُه المستتبِعةُ لربوبيَّة العالمين[3].

***

(١) في (ف): «عن ذيلها».

(٢) كذا قيل، وفي بعض الأخبار: أنه لم يتزوجها بل زوجها من ذي تبَّعٍ ملك همدان، وليس في كليهما شيء يثبت، وأحسن ما جاء فيه قول عبد الله بن عتبة، وسئل: هل تزوج سليمان بلقيس؟ فقال: انتهى أمرها إلى قولها: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. قيل: يعني لا علم لنا وراء ذلك. وانظر تفصيل ذلك في «روح المعاني» (١٩/ ٤٦٢).

(٣) «العالمين» سقط من (ك). وفي (م): «لربوبيته للعالمين».

(٤٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النَّسبِ ﴿صَٰلِحًا﴾ بدل[1].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي[2]: بأن اعبدوا الله؛ أي: وحِّدوه[3].

﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فَرِيقَانِ﴾ خبره ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة، وهي العامل في (إذا)، والمعنى: فإذا قومُ صالحٍ فريقان؛ مؤمنٌ به وكافرٌ به يختصمون، فيقول كلُّ فريقٍ: الحقُّ معي، وقد مرَّ تفصيلُه في سورة الأعراف.

***

(٤٦) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

﴿قَالَ﴾ حين قال الفريق الكافر: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧][4]:

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: بالعذاب الذي توعَدون به ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قبلَ التَّوبةِ.

﴿لَوْلَا﴾: هلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: تطلبون المغفرة مِن كفركم بالتَّوبة والإيمان قبلَ نزولِ العذابِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة.

***

---

(١) في (م): «بدله».

(٢) «أي»: ليست في (م) و(ي) و(ع).

(٣) في (ف): «وحده».

(٤) في (ف) زيادة: «قال».

(٤٧) ـ ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ ﴾: تشاءمنا بك؛ لأنهم قُحِطوا عند مبعثِه لتكذيبِهم، فنسبوه إلى مجيئِه، والأصل: (تطيَّرنا) وقرئ به[١]، فأُدغِمَتِ التَّاء في الطَّاء وزِيْدَتِ الألف لسكون الطَّاء.

﴿وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ مِن المؤمنين.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾؛ أي: سببُكم الذي يجيء منه[٢] خيرُكم وشرُّكم عندَ اللهِ، وهو قدَره[٣] وقِسمته، أو: عملُكم مكتوبٌ[٤] عندَ الله تعالى، فمنه نزل بكم ما نزلَ؛ عقوبةً لكم وفتنةً، وقد مرَّ أصلُ ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿بَلْ﴾ إضرابٌ مِن بيان السَّببِ إلى بيانِ سببِ السَّببِ.

﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾: تُختَبرونَ[٥] بتعاقُب السَّراءِ والضَّراءِ.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾؛ أي: مدينةِ ثمود، وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ الرَّهْطُ اسمُ الجماعةِ، فكأنَّهم كانوا رؤساء يَتبعُ كلَّ واحدٍ منهم رهطٌ، كذا قال القرطبي[٦].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٧١).

(٢) في (ف): «فيه».

(٣) في (ف): «قدرته».

(٤) «مكتوب» سقط من (ك).

(٥) في (ك): «مختبرون».

(٦) انظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٨٢).

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: شأنُهم الإفسادُ الخالصُ مِن شَوبِ الصَّلاح.

***

(٤٩) ـ ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالَ بعضُهم لبعضٍ ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ خبرٌ في محلِّ الحال بإضمار (قد) لأنَّه ماضٍ؛ أي: قالوا متقاسمين، أو أمرَ بعضُهم بعضاً بالقسمة.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾؛ أي: لنقتلنَّه مباغتةً ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾: ولدَه وتبعَه.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾: لرَهْطه الذي له ولاية الدَّم: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾: ما حضرنا ﴿مُهْلَكَ أَهْلِهِ﴾ الـمُهْلَكُ مِن أهلَكَ يحتمِل المصدرَ والزَّمان والمكان، وكذا المَهلِكُ بكسر اللَّام[1]، وقرئ بالفتح أيضاً[2] فيكون مصدراً؛ أي: لم نتعرض لأهله فكيف تعرَّضنا له؟! أو: ما حضرنا موضع هلاكه فكيف تولَّيناه؟!

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما ذكرنا.

***

(٥٠) ـ ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ في ذلك ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾؛ أي: جزيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة.

---

(١) فعلى الأول يكون المعنى: ما حضرنا إهلاكهم، أو: مكان إهلاكهم، أو: زمان إهلاكهم، وعلى الثاني: ما حضرنا هلاكهم، أو: مكان هلاكهم، أو: زمان هلاكهم.

(٢) قرأ جمهور السبعة بضم الميم وفتح اللام، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، وأبو بكر بفتحهما. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

***

(٥١) ـ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ ﴿كَانَ﴾ إن كانت ناقصة فخبرُها ﴿كَيْفَ﴾، وإن كانَتْ تامَّة فـ ﴿كَيْفَ﴾ حال.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرئ بكسر الهمزة على الاستئناف أو خبر محذوف، وقرئ بفتحها[1] على أنَّه خبر أو بدل من اسم ﴿كَانَ﴾، أو خبر له و﴿كَيْفَ﴾ حال، أو يكون التَّقدير: لأَنَّا، وحُذِفَ حرف الجرِّ.

﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالصَّيحةِ.

***

(٥٢) ـ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾: ساقطةً منهدمةً، مِن خَوَى النَّجمُ: إذا سقطَ، أو: خاليةً، مِن الخُوِيِّ، وهي حالٌ عَمِلَ فيها ما دلَّ عليه (تلك).

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾: بظلمهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: فيما فُعِلَ بثمودَ ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتَّعظون.

***

(٥٣) ـ ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ عصيانه.

---

(١) قرأ الكوفيون بفتح الهمزة، والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٦٨).

(٥٤) ـ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ وَلُوطًا ﴾: واذكر لوطاً، أو: وأرسلنا لوطاً؛ لدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ عليه، والأوَّل أنسبُ لِمَا نزلَ أوَّلاً، والثَّاني لِمَا نزلَ مكرَّراً[١].

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من ﴿ وَلُوطًا ﴾ على الأوَّل؛ أي: واذكرْ وقتَ قولِ لوطٍ، وظرفٌ على الثَّاني.

﴿لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ الاستفهام للإنكار والتَّوبيخ.

و﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾: الفِعلة القبيحة، والمرادُ: اللِّواطةُ، أبهم هنا ثمَّ بيَّنها بقوله: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ تقريراً وتنبيهاً على أنَّ معنى الفاحشة بلغَ الغاية فيها حتى صارَ علَماً لها، ثمَّ إنَّ في البيان المذكور تنبيهاً على أنَّ المرادَ مِن الفاحشةِ محلُّها بطريق المجاز، وإتيانُه كنايةٌ عن فِعل اللِّواطةِ.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾: والحالُ أنَّ لكم الأبصار؛ يعني أنَّ قباحة ذلك المحلِّ مِن المحسوساتِ، فوجودُ البصر كافٍ في إدراكها[٢].

***

(٥٥) ـ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ آثرَ الرِّجالَ على الذُّكور ليزدادَ قُبْحُ الإتيان المذكور.

﴿شَهْوَةً ﴾: للشَّهوة، ناظرٌ[٣] إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾، كأنَّه قيل: القَباحة

---

(١) في (ف) و(ك): «والأول أنسب لما ذكر مكررًا».

(٢) في هامش (ف) و(م): «ويجوز أن يكون المراد: أتأتون وأنتم تبصرون ما في ذلك المحل من القذر، فتدبره. منه».

(٣) في (ف): «ناظراً».

هنا في درجةٍ حَقُّ مَن له البصر أن يرغبَ عنه نفرةً، وأنتم ترغبونَ فيه شهوةً(١).

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما خلقَ الأنثى للذَّكر، ولم يخلق الذَّكرَ للذَّكرِ، ولا الأنثى للأنثى، فهو مضادَّةٌ(٢) لله تعالى في حكمتِه.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعلَ الجاهلين بأنَّها فاحشةٌ، مع علمِكُم بذلك، أو أريد بالجهلِ: السَّفاهة والـمَجَانةُ التي كانوا عليها.

وقد اجتمعَ الخطاب والغيبة هنا وفي قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، فغلَّب المخاطَبَ على الغائب لأنَّه أقوى؛ إذ الأصل أن يكون الكلامُ بينَ الحاضرين.

***

(٥٦) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾: ﴿جَوَابَ﴾، واسمُه ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾.

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ أي: لوطاً ومتَّبعيه، تناولَ الأمرُ له ـ عليه السلام ـ دلالةً(٣).

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: يتنزَّهون عن القاذورات، فينكرون هذا العمل القذر، ويَغيظُنا إنكارُهم، تعليلٌ للأمر المذكور على وجهٍ يتضمَّن الاستهزاء؛ لأنَّه على طريقةِ ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) في (ك): «في حق من له البصر عنه نفرة وأنتم ترغبون شهوة»، وفي (ف): «في حق من للبصر عنه نفرة وأنتم ترغبون شهوة».

(٢) في (ف): «فهو مضاد».

(٣) في هامش (ف) و(م): «كتناول الأمر في ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ لفرعون. منه».

(٥٧) ـ ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾.

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ ﴾ الفاء فصيحة ﴿وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ يعني: مِن العذابِ الواقعِ بقومِه.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا ﴾؛ أي: قدرنا كونها استئناف للتعليل.

﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾: مِن الباقينَ في العذابِ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ قد مرَّ تفسيرُه في سورة الأعراف.

* * *

(٥٩) ـ ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ﴾ أمرَ رسولَه عليه السلام بتحميده، ثمَّ بالسَّلام على المصطفَين مِن عبادِه، توطئةً لِمَا يتلوه مِن الدِّلالة على وحدانيته وقدرته على كلِّ شيءٍ.

وهو تعليمٌ لكلِّ متكلِّمٍ[١] في أمرٍ ذي بالٍ بأنْ يتبرَّكَ بهما، ويستظهرَ مكانهما[٢].

أو هو خطاب للوطٍ عليه السلام أنْ يحمدَ الله على هلاكِ كفَّارِ قومِه، ويسلِّمَ على مَن اصطفاهُ اللهُ تعالى ونجَّاه مِن هلكتهم[٣]، وعصمه من ذنوبهم.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ لا خيرَ فيما أشركوه أصلاً حتَّى يُوازنَ بينَه وبينَ مَن

---

(١) في (م): «متعلم».

(٢) في (ك) و(م): «ويستظهر بمكانهما»، وفي (ف): «ويستظهر بمكانه».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «هلكهم».

هو خالقُ كلِّ شيءٍ، وإنَّما هو إلزامٌ لهم وتهكُّم بحالهم؛ ليتنبَّهوا على الخطأ الـمُفرِط والجهل المورِّط، وليعلموا أنَّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزَّائد.

ثمَّ عدَّدَ سبحانه وتعالى الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، فقال:

(٦٠) ـ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ﴾: بل أمْ مَن[1] ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تقريرٌ لهم بأنَّ مَن قدرَ على خلقِ العالم خيرٌ مِن جمادٍ لا يقدرُ على شيءٍ.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: مطراً، وفي قوله: ﴿لَكُم﴾ تنبيهٌ على أنَّ الغيْثَ وإنْ لم يخلُ مِن الضَّرر[2] إلَّا أنَّ المقصودَ مِن إنزالِه النَّفعُ.

﴿فَأَنبَتْنَا﴾ صرفَ الكلام عن الغيبة إلى التَّكلُّم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته، وإيذاناً[3] بأنَّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطُّعوم والأشكال ـ مع حسنِها ـ بماءٍ واحدٍ لا يقدرُ عليه إلَّا هو وحدَه.

﴿بِهِ﴾؛ أي: بالماء.

﴿حَدَائِقَ﴾ الحديقةُ: البستانُ عليه حائطٌ، مِن الإحداق، وهو الإحاطة.

﴿ذَاتَ﴾ لم يقلْ: ذواتِ؛ لأنَّ المعنى: جماعةَ حدائقَ، كما تقول: النِّساء ذهبَتْ.

﴿بَهْجَةٍ﴾: حُسْنٍ؛ لأنَّ النَّاظرَ يبتهِجُ به، ثمَّ رشحَ معنى الاختصاص بقوله:

---

(١) في (ف) و(ك) و(ع): «بل أمن»، وفي (م): «بل من».

(٢) في (ك) و(م): «الضر»، وفي (ي) و(ع): «الغيث».

(٣) في (ف) و(ك): «إيذانا»، والمثبت من باقي النسخ و«تفسير النسفي» (٢/ ٦١٥).

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾: شجرَ الحدائق، ومعنى الكينونةِ الانتفاءُ، أرادَ أنَّ تأتِّيَ ذلك محالٌ مِن غيرِه.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: أغيرُه يُقرَنُ ويُجعَلُ شريكاً له.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، أو: يعدلون عن الحقِّ الذي هو التَّوحيد. و﴿بَلْ هُمْ﴾ بعد الخطاب أبلغُ في تخطئةِ رأيِهم.

***

(٦١) ـ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ فكانَ حكمُها حكمَه.

﴿قَرَارًا﴾: دحاها وسوَّاها للاستقرار عليها.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ ظرفٌ؛ أي: وسطَها، وهو المفعول الثَّاني[1]، والأول ﴿أَنْهَٰرًا﴾، و﴿بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مثلُه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ للأرضِ ﴿رَوَٰسِىَ﴾: جبالاً تمنعُها عن الحركةِ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذبِ والمالحِ ﴿حَاجِزًا﴾: مانعاً أنْ يختلِطا.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّوحيدَ فلا يؤمنون.

***

(٦٢) ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) قوله: (وهو المفعول الثاني): لأنَّ الظرف لا يقع مسنداً إليه، والمفعول الأول لجعل يكون مسنداً إليه.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضْطرارُ: افتعالٌ مِن الضَّرورة، وهي الحاجة المحوِجةُ[١] إلى اللَّجأ[٢]، يقال: اضْطرَّه إلى كذا، والفاعل والمفعول مُضْطَرٌّ[٣]، والـمُضْطَرُّ: الذي أحوجَه مرض أو فقر أو نازلةٌ مِن نوازل الدَّهر إلى اللَّجأ[٤] إلى الله تعالى، أو الـمُذنِبُ إذا استغفرَ، أو المظلومُ إذا دعا.

واللَّامُ للجنسِ لا[٥] للاستغراقِ، فلا يلزم منه إجابةُ كلِّ مُضْطَرٍّ.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: الضُّرَّ أو الجَوْرَ[٦].

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: فيها، وذلك توارُثُهم سُكْناها، والتَّصرُّف فيها قرناً بعدَ قرنٍ، أو أرادَ بالخلافةِ المُلك والتَّسلُّط، وهذا أتمُّ مِن الأوَّلَين وأعمُّ وأجلُّ وقعاً وأهمُّ، ولهذا فُصِل بعدَم التَّذكُّر[٧] وبُوْلِغَ فيه.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ؛ أي: تذكَّرونَ تذكُّراً قليلاً، ويجوز أنْ يُرادَ بالقلَّةِ العدمُ.

***

---

(١) في (ف): «الملجئة».

(٢) اللَّجَأ ـ بفتحتين ـ مصدر لجأ بمعنى: لاذ، وألجأه إلى كذا: اضطره إليه. وجاء في (ك): «اللَّجاء»، والمثبت من باقي النسخ و«تفسير النسفي» (٢/ ٦١٥).

(٣) في (م): «مضطرر».

(٤) في (ك): «اللجاء»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر السابق.

(٥) «للجنس لا» سقط من (م)، و«للجنس» سقط من (ف) و(ك).

(٦) في (ف): «الضراء والجور».

(٧) في النسخ: «التذكير»، والصواب المثبت لأنه هو مصدر الفعل الآتي فاصلة، أما التذكير فمصدر: ذكَّر.

(٦٣) ـ ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾: يرشِدُكم بالنُّجومِ ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليلاً، وبعلاماتٍ في الأرض نهاراً.

والظُّلماتُ: ظلماتُ اللَّيالي، وإضافَتُها للبرِّ والبحر للملابَسةِ، أو مشتبِهاتُ الطُّرُقِ على الاستعارة.

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ مِن البِشارةِ، وقد مَرَّ في سورة الفرقان.

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: قدَّامَ المطرِ.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: تعالى القادرُ الخالقُ عَن مشاركةِ العاجزِ المخلوقِ، تذييلٌ كالنَّتيجة للآياتِ السَّابقةِ.

***

(٦٤) ـ ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إنَّما قيل لهم: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم ينكرون الإعادة؛ لأنَّه أُزيحت عليهم بالتَّمكُّن[1] من المعرفة والإقرار، ولم يبقَ لهم عذرٌ مِن الإنكار.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: بأسبابٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعلُ ذلك.

---

(١) في «تفسير النسفي» (٢/ ٦١٦): (بالتمكين).

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: حجَّتكم على إشراكِكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ معَ الله إلهاً آخر.

* * *

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناءٌ من فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿الْغَيْبَ﴾ ـ وهو ما لم يقمْ عليه دليلٌ ولا اطَّلعَ عليه مخلوقٌ ـ مفعولُه و﴿اللَّهُ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَن﴾.

والمعنى: لا يعلمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا الله.

ثمَّ إنَّ اللهَ يتعالى عن أن يكونَ ممَّن في السماوات والأرض، ولكنه جاء[1] على لغة بني تميم حيث يُجْرُون الاستثناءَ المنقطِع مُجرى المُتَّصل، ويجيزون النَّصبَ والبدلَ في المنقطِع كما في المتَّصل، يقولون: ما في الدَّار أحدٌ إلَّا حمارٌ[2].

نزلت الآية في المشركين حين سألوا رسول الله عليه السلام عن وقتِ السَّاعةِ[3].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾: تقدَّمَ في الأعراف.

﴿يُبْعَثُونَ * بَلِ أَدْرَكَ﴾ أي: انتهى وتكاملَ، مِن أدركَتِ الفاكهةُ: تكاملت نضجاً.

---

(١) يعني: أن الاستثناء منقطع فيجب نصبه، لكن جاء رفعه على لغة بني تميم...

(٢) وضح ذلك الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٧٨) فقال: (يريدون: ما فيها إلاَّ حمارٌ، كأنّ أحداً لم يذكر).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٦٧).

وقرئ: ﴿ادَّارَكَ﴾[1]؛ أي: استَحْكَمَ، وأصله: تَدَارَكَ، فأُدْغِمَتِ التَّاء في الدَّال، وزِيْدَ ألفُ الوصل لِيَمْكُنَ التَّكلُّمُ بها.

﴿عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: في شأنِ الآخرة، والمعنى: أنَّ أسبابَ استحكام العلم وتكامله بأنَّ القيامةَ كائنةٌ لا ريْبَ فيه قد حصلَتْ لهم، ومُكِّنوا مِن معرفته، وهم شاكُّون جاهلون.

وذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ والإضرابات الثَّلاث[2] تنزيلٌ لأحوالِهم، وتكريرٌ لجهلِهم؛ وصَفَهم أوَّلاً بأنهم لا يشعرون وقتَ البعثِ، ثمَّ بأنَّهم لا يعلمون أنَّ القيامةَ كائنةٌ، ثمَّ بأنَّهم يخبطون في شكٍّ ومِرْيةٍ فلا يزيلونه، والإزالةُ مستطاعةٌ، ثمَّ بما هو أسوءُ حالاً وهو العمى، وقد جعل الآخرةَ مبدأَ عماهم ومنشأَه، فلذا عدَّاه بـ (من) دون (عن)؛ لأنَّ الكفرَ بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التَّدبُّر والتَّفكُّر.

وجازَ أنْ يكونَ وصَفَهم باستحكام العلم وتكامله تهكُّماً بهم، وذلك حيث شكُّوا وعَمُوا عن إثباته الذي الطَّريقُ إلى علمِه مسلوكٌ، فضلاً أن يعرفوا وقتَ كونِه الذي لا طريقَ إلى معرفَتِه.

ويجوز أن يكون ﴿أَدْرَكَ﴾ بمعنى: انتهى وفنيَ، مِن[3] قولِكَ: أدركَتِ الثَّمرةَ؛ لأنَّ تلكَ[4] غايتُها التي عندها تُعدم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بقطع الهمزة وإسكان الدَّال من غير ألف، والباقون بوصل الألف وتشديد الدَّال وألف بعدها. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٨).

(٢) في (ف): «الثلاثة».

(٣) في (ك) و(م): «وهو من».

(٤) في (ك) و(م): «ذلك».

وقد فسَّرها الحسنُ بـ: اضمَحَلَّ علمُهم وتدارك، مِن تداركَ بنو فلان: إذا تتابَعوا في الهلاكِ[1].

***

(٦٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾؛ أي: مِن القبور أحياءً؟!

وتكريرُ حرفِ الاستفهام إنكارٌ بعدَ إنكارٍ، ودليلٌ على كفْرٍ مُؤكَّدٍ مُبالَغٍ فيه، والعامل في (إذا) ما دَلَّ عليه ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾، لا نفسُه؛ لأنَّ همزة الاستفهام و(إنَّ) ولامَ الابتداء كلٌّ منها يمنعُه عن العمل فيما قبله.

والضَّمير في (إنَّا) لهم ولآبائهم؛ لأنَّ كونهم تراباً قد تناولهم وآباءَهم، لكنَّه غلبَتْ الحكاية على الغائب، و﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ عطف على الضَّمير؛ لأن المفعول ﴿تُرَٰبًا﴾ جرى مجرى التَّأكيد.

***

(٦٨) ـ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا ﴾؛ أي: البعثَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مِن قبل محمَّدٍ عليه السلام.

قدَّم هنا ﴿هَٰذَآ﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾، وفي (المؤمنين) أُخِّرَ عنه؛ ليدلَّ على أنَّ المقصودَ بالذِّكر هنا البعثُ، وثَمَّ المبعوثُ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٧٩)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٦١١). وخبر الحسن رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٤) بلفظ: (اضمحَلَّ علمُهم في الدُّنيا حين عايَنوا الآخرةَ).

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ما هذا إلَّا أحاديثُهم وأكاذيبُهم.

* * *

(٦٩) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: آخِرُ أمرِ الكافرين، وفي ذكر الإجرام لطف بالمسلمين في ترك الجرائم، كقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤].

* * *

(٧٠) ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجلِ أنَّهم لم يتَّبعوكَ، ولم يُسْلِموا فيَسْلَموا.

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾: في حَرَجِ صَدْرٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: مِنْ مكرهم وكيدهم لك، فإنَّ اللهَ يعصمُكَ مِن النَّاسِ.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: وعدُ العذابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ العذابَ نازلٌ بالمكذِّب[1]؟.

* * *

(٧٢) ـ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) في (ك) و(م): «ذلك».

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: تبعكم، (رَدِفَ) يتعدَّى بنفسه وباللَّام[١]، ومَن وَهَمَ أنَّ تعديتَه باللَّام بتضمين معنى مثل: دنا[٢]، فقد وَهِمَ؛ لأنَّ ذلك المعنى حاصل لـ﴿رَدِفَ﴾، ثمَّ إنَّ تعديةَ دنا وقرب بـ(من) لا باللَّام[٣].

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استعجلوا العذابَ الموعودَ، وهو عذابُ يومِ بدرٍ.

و(عسى) و(لعلَّ) و(سوفَ) في وعد الملوك ووعيدهم يدلُّ على صِدْقِ الأمر وجِدِّهِ، وعلى ذلك جرى وعدُه تعالى ووعيدُه.

***

(٧٣) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ أي: إفضالٍ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بترك المعاجلَة بالعذابِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: أكثرهم لا يعرفون حقَّ النِّعمة فيه ولا يشكرونه، بل يستعجلون لجهلهم وقوعَ العذابِ.

***

(٧٤) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾: ما تُخفيه ﴿صُدُورُهُمْ﴾ قال الرُّماني: الإكنانُ: جعلُ الشَّيء بحيث لا يلحقُه أذًى لمانعٍ يصدُّه عنه.

---

(١) في هامش (ف): «ذكر في الأساس ويوافقه ما في الصحاح. منه».

(٢) أي: بتضمين معنى فعلٍ يتعدى باللام مثل الفعل المذكور. والمقصود بالتوهيم هو البيضاوي، لكن دافع عنه الشهاب بما سنذكره في التعليق الآتي.

(٣) قال الشهاب متعقباً: وتضمينه معنى دنا لأنه يتعدى بمن وإلى واللام كما في «الأساس»[(مادة: دنو)]، فمن اعترض عليه بأنه يتعدى بمن فقد سها، كسهوه في أنّ ردف بمعنى دنا فلا يصح أن يضمن معناه. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٥٧).

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: يُظهِرون، فليس تأخيرُ العذابِ لخفاءِ حالِهم، ولكن له وقتٌ مقدَّرٌ[١].

***

(٧٥) ـ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سُمِّيَ الشَّيءُ الذي يغيبُ ويخفى: غائبةً وخافيةً، والتَّاء فيها كالتَّاء في العافية والعاقبة[٢]، ونظائرهما: الرَّميَّة والذَّبيحة والنَّطيحة في أنَّها[٣] أسماءٌ غيرُ صفاتٍ، ويجوز أن يكونا صفتَيْن، وتاؤهما للمبالغة كالرَّاوية[٤].

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّنٍ أو مُبيِّنٍ مَا[٥] فيه لِمَن يطالِعُه. والمرادُ مِن الكتاب: اللَّوحُ.

***

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(١) في هامش (م) و(ي): «إنما أخر ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لنكتة نذكرها في تفسير سورة يس. منه».

(٢) أي: هي للنقل إلى الاسمية، فتاؤها لا تدلُّ على تأنيث ما تُطلق عليه. وانظر التعليق الآتي.

(٣) في (ي) و(ع): «أنهما».

(٤) وتوضيح الكلام: أن ﴿غَآئِبَةٍ﴾ يجوز أن تكون صفة منقولة إلى الاسمية سمي بها ما يغيب ويخفى، والتاء فيها للنقل كما تقدم، ويجوز أن تكون صفة غلبت في هذا المعنى، فكثر عدم إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت، وإن لم تنقل إلى الاسمية كمؤمن وكافر، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحظ لها موصوف تجري عليه كالراوية للرجل الكثير الرواية، فهي تاء مبالغة. والفرق بين المغلب والمنقول على ما قال الخفاجي: أن الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكر بخلاف الثاني. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٥٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥١).

(٥) في (ك) و(م): «لما».

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يبيِّنُ لهم، والقَصصُ: كلامٌ يتلو بعضُه بعضاً فيما ينبئ عن المعنى.

﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتَّشبيه والتَّنزيه، وأحوالِ الجنَّة والنَّار، وعُزَيرٍ والمسيح.

والاختلافُ: ذهابُ كلِّ واحدٍ إلى خِلاف ما ذهبَ إليه صاحبُه.

وهذا تحريكٌ للمشركين على اتِّباع القرآنِ؛ فإنَّه لَمَّا كان فيه بيانٌ لأهل الكتاب، وهم يرجعون إليهم في كثير مِن أمورِهم، فكانَ حقَّهم أن يرجعوا إليه؛ لأنَّه مرجِعُ مرجعِهم، وكان منزَّلاً على مَن(١) بُعِثَ منهم.

* * *

(٧٧) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّهم هم المنتفعون به.

* * *

(٧٨) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ بينَ مَن آمنَ بالقرآن وبينَ مَن كفرَ.

﴿بِحُكْمِهِۦ﴾؛ أي: بعدله؛ لأنَّه لا يقضي إلَّا بالعدل، فسمي المحكوم به حُكماً.

أو: بحكمته، ويدلُّ عليه قراءة: (بِحِكَمِهِ)(٢) جمع حِكمةٍ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُردُّ قضاؤُه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمَن يُقضى له، وبمَن يُقضَى عليه.

---

(١) «من» من (ك).

(٢) نسبت لجناح بن حبيش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١).

(٧٩) ـ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾: فلا تُبالِ بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ علَّلَ[١] التَّوكُّلَ بأنَّه على الحقِّ الأبلج، وهو الدِّين الواضح، وفيه بيانُ أنَّ صاحب الحقِّ حقيقٌ بالوثوق بحفظِه[٢] على اللهِ ونصرِه.

***

(٨٠) ـ ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ تعليلٌ آخر للأمرِ بالتَّوكُّل من حيثُ إنَّه يقطع طمَعه مِن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً، وإنَّما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعِهم باستماعِ ما يُتلَى عليهم، كما شُبِّهوا بالصُّمِّ في قولِه:

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ثمَّ أكَّد حالَ الأصمِّ بقولِه:

﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ لأنَّه إذا تباعدَ عن الدَّاعي ـ بأنْ تولَّى عنه مدبراً ـ كانَ أبعدَ عن إدراك صوتِه.

***

(٨١) ـ ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٨٤). وقوله: «لا يدركها...» رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعاً، قول ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح.

(٢) جزء من الحديث السابق.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ الهدايـة لا يلزمهـا الاهتداء، دلَّ على ذلـك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فلا جـرمَ زِيْدَ قولُه:

﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ حتى يكون المنفيُّ الهدايةَ المنجيةَ عن الضَّلالة، لا مُطلَقَ الهدايةِ؛ لأنَّها غيرُ ممتنعةٍ في حقِّ العُمي.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾: مـا يُجـدي إسـماعُك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: إلَّا الذين يصدِّقون أنَّ القـرآنَ كلامُ الله تعالـى؛ إذ حينئـذٍ يُثْبِـتُ نبوَّته عليه السـلام فيَقْبَـلُ قولَه، فيجدِي إسـماعُه نفعاً.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: مخلِصون، من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ أي: جعله سالماً لله خالصاً له.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سـمى معنـى القـول ومـؤدَّاه ـ وهـو مـا وُعدوا مِـن قِيامِ السَّـاعة وعذابـه ـ بالقـول. ووقوعُـه: حصولُـه، والمـراد: مشـارفةُ السَّـاعةِ وظهورُ أشراطِها.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ هي الجسَّاسة، في الحديث: «طولُها ستُّون ذراعاً، ولها أربعُ قوائم وزغبٌ وريشٌ وجناحان، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هاربٌ»(١).

---

(١) انظـر: «تفسـير الثعلبـي» (٧/ ٢٢٢). ورواه ابـن أبـي حاتـم فـي «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٦)، لكـن السـائل والـراوي عنده هـو أبـو داود نفيع الأعمـى، وهـو متـروك. كمـا فـي «التقريـب»

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مِـن أرض مكَّـة؛ رُوي أنـه عليه الصلاة والسـلام سُـئِلَ عن مخرجهـا، فقـال: «من أعظم المسـاجد حرمةً علـى الله»[(١)] يعني: المسـجدَ الحرامَ.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وقرئ: (تَكْلِمُهم)[(٢)]، وقال أبو الجوزاء: سألْتُ عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أو (تَكْلِمُهم)؟ فقال: كلُّ ذلك تفعلُ؛ تكلِّمُ المؤمنَ وتَكْلِمُ الكافرَ[(٣)].

وقيـل: تكلِّم بالعربيَّة وتقـول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: خروجها وسـائر أحوالِها فإنَّهـا مِـن آيـاتِ اللهِ تعالـى ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: لا يتيقَّنـون، وهـو حكايةُ معنـى قولها، أو حكايتُهـا لقـول الله تعالى، أو علَّـةُ خروجها[(٤)].

وقرئ: ﴿إِنَّ﴾ بالكسر[(٥)].

* * *

(٨٣) - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

ثمَّ ذكرَ قيامَ السَّاعةِ فقالَ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ أي: واذكر يومَ نجمعُ مِن كلِّ أمَّة مِن الأمم زمرةً. و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ أمَّةَ كلِّ نبيٍّ وأهلَ كلِّ قرنٍ شامل للمصدِّقين والمكذِّبين.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٢٢). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٦)، لكن السائل والراوي عنده هو أبو داود نفيع الأعمى، وهو متروك. كما في «التقريب»

(٢) أي: أو هذا القول هو علة لخروجها على حذف الجار؛ أي: لأن الناس.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٢٢). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٦)، لكن السائل والراوي عنده هو أبو داود نفيع الأعمى، وهو متروك. كما في «التقريب»

(٤) أي: أو هذا القول هو علة لخروجها على حذف الجار؛ أي: لأن الناس.

(٥) قرأ الكوفيون بفتح الهمزة، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٩).

و(من) في قوله: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ﴾ للتَّبيين.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الـمُنزَّلة على أنبيائِنا.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُحبَس أوَّلُهم على آخرِهم حتى يجتمعوا، ثمَّ يساقونَ[١] إلى موضع الحسابِ، وهذه عبارةٌ عَن كثرة العَدَدِ، وكذا الفوجُ عبارةٌ عن الجماعة الكثيرة.

***

(٨٤) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾: حضروا موقفَ الحسابِ والسُّؤالِ ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديداً: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ المنزَلةِ على رُسُلي[٢].

﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال، كأنَّه قال: أكذَّبتم بآياتي باديْ الرَّأي مِن غيرِ فكرٍ ولا نظرٍ يؤدِّي إلى إحاطة العلم بكُنْهِها، وأنَّها حقيقةٌ[٣] بالتَّصديق أو بالتَّكذيب.

أو للعطفِ؛ أي: أجمعتُم[٤] بينَ التَّكذيب وعدم إلقاءِ الأذهان لتحقيقها.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أم أيَّ شيءٍ كنتم تعملونه بعد ذلك؟ وهو للتَّبكيت إذْ لم يفعلوا غير التَّكذيب من الجهل، فلا يقدرون أنْ يقولوا: فعلنا غير ذلك.

---

(١) في (ف) و(ك): «يساقوا».

(٢) في (ف): «رسولي».

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «حقيق».

(٤) في (ك): «جمعتم».

وإنَّما جازَ دخول ﴿أَمَّ﴾ على (ما) الاستفهاميَّة لهذه النُّكتة؛ فإنَّها خرجَتْ عن حقيقة الاستفهام إلى البَتِّ بالحكم، لا بالمعادِل بل بالأوَّل.

* * *

(٨٥) ـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾: أُحِلَّ بهم العذابُ الموعودُ بسبب ظلمِهم، وهو التَّكذيب.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ فيشغلُهم عن النُّطق والاعتذار، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

* * *

(٨٦) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ليتحقَّقَ لهم التَّوحيدُ، ويرشدَهم إلى تجويزِ الحشر وبعثةِ الرُّسل.

﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بالنَّومِ والقَرارِ.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ جعلَ الإبصار للنَّهار ـ وهو لأهله ـ للمبالغة فيه بجعلِ الإبصار حالاً مِن أحوال المجعول، بحيث لا ينفكُّ عنها، وهذا من باب ما حُذِفَ مِن أحد المتقابلَيْن ما أُثْبِتَ في الآخر، فالتَّقدير: جعلنا اللَّيل مظلماً لتسكنوا فيه والنَّهار مبصراً لتتصرَّفوا فيه.

ومَن غفل عن هذا قال: والتقابل مراعًى مِن حيث المعنى؛ لأنَّ ﴿مُبْصِرًا﴾ بمعنى[١]: ليُبصروا فيه طُرُقَ التَّقلُّب في المكاسب.

---

(١) في (ي) و(ع): «لأن معنى مبصراً».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لدلالتها على الأمور الثَّلاثة؛ لأنَّ المعنى: ألم يعلموا أنَّا جعلنا اللَّيل والنَّهار قِواماً لمعاشهم في الدُّنيا؛ ليعلموا[1] أنَّ ذلك لم يُجعَلْ عبثاً، بل محنة وابتلاءً، ولا بدَّ عندَ ذلك من ثوابٍ وعقابٍ، فإذا لم يكونوا في هذه الدَّار فلا بُدَّ مِن دارٍ أخرى للثَّواب والعِقابِ.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصُّوا بتلك الآيات لاختصاصِ الانتفاعِ بها بهم.

***

(٨٧) - ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: واذكر يومَ ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾: هو قرنٌ، والنَّافخُ إسرافيل عليه السلام، روى أبو هريرة أنَّه يَنفخُ ثلاثَ نفخاتٍ: الأولى نفخة الفزع، ثم بعده بأربعين يوماً نفخة الصَّعق[2].

---

(١) في (ك): «لعلموا».

(٢) رواه إسحاق بن راهويه (١٠)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٨) وهو جزء من حديث طويل. قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية: (هذا حديث مشهور وهو غريب جدّاً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة. تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة... وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة. وأما سياقه، فغريب جدا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقا واحدا، فأنكر عليه بسبب ذلك).
قلت: والذي في الصحيحين عن أبي هريرة أنهما نفختان بينهما أربعون، دون تعيين التمييز، رواه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥). ولم يرد في التعيين خبر يحتج به.

فما قِيلَ: إنَّه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نُفِخَ في البوق؛ ليس بذاكَ.

﴿فَفَزِعَ﴾ الفَزَعُ والجَزَعُ أخوان، لكنَّ الفَزَع ما يعتري من الشَّيء المخيف، والجَزَعَ ما يعتري من الشَّيء المؤلم.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الهول، وعبَّرَ عنه بالماضي للإشعارِ بصحَّة وقوعِه وأنَّه كائنٌ لا محالة، ولا حاجة إلى هذا الإشعار في الأوَّل لأنَّه منشأ الفَزَعِ، فالقَطْعُ بوقوعِ هذا يقتضي القَطْعَ بوقوعِ ذلك.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّه[1] لا يفزَع[2]، بأنْ ثبَّتَ اللهُ قلبَه، قالوا: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل وقيل[3].

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: حاضرون الموقف بعد النَّفخة الثَّانية، أو راجعون إلى أمرِه.

﴿دَٰخِرِينَ﴾: صاغِريْنَ.

* * *

(٨٨) - ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ حالٌ مِن المخاطَب.

﴿جَامِدَةً﴾: واقفةً ممسكةً[4] عن الحركةِ، مِن جمدَ في مكانِه: إذا لم يبرحْ.

---

(١) في (ف) و(ي) و(ع) و(م): «لأنه».

(٢) في (م): «يقرع».

(٣) «وقيل» زيادة من (ك) و(ي) و(م).

(٤) في (ف) و(ك) و(م) زيادة: «في مكانِه». والمثبت من (ع) و(ي)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٦٢٣)، =

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾؛ أي: مرًّا مثلَ مرِّ السَّحاب، والمعنى: أنَّكَ إذا رأيْتَ الجبالَ وقتَ النَّفخةِ ظننْتَها ثابتةً في مكانٍ واحدٍ [لعظمها][1]، وهي تسيرُ سيراً سريعاً كالسَّحاب إذا ضربَتْه الرِّيح، وهكذا الأجرامُ المتلاصقةُ المتكاثرةُ العددِ إذا تحرَّكَتْ لا تكاد تبينُ حركتها.

﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ عملَ فيه ما دلَّ عليه: ﴿تَمُرُّ﴾؛ لأنَّ مرورَها كمرِّ السَّحاب مِن صنعِ اللهِ، فكأنَّه قيل: صَنَعَ اللهِ ذلك، وذُكرَ اسمُ اللهِ لأنَّه لم يُذْكَر قبلُ.

﴿الَّذِي أَتْقَنَ﴾؛ أي: أحكمَ صُنْعَهُ، ولقد أصابَ عبارةُ[2] الصُّنعِ والإتقانِ محزَّهما[3]، وذلك أنَّ بقاءَ صورةِ الجبالِ بعدَما تخلخَلَتْ وصارَتْ كالعِهنِ المنفوشِ دلَّ على كمالِ الإتقانِ مِن جهةِ الصُّنعِ، وهو تركيبُ الصُّورةِ في المادَّةِ.

وهذا الإتقان ينتظِمُ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ قويًّا كان تركيبُه أو ضعيفاً.

﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[4] عالمٌ بظواهرِ الأفعالِ وبواطنها، فيكافئهم على حسب ذلك.

* * *

= ولفظ البيضاوي (٤/ ١٦٩): ثابتة في مكانها.

(١) من «تفسير النسفي» (٢/ ٦٢٣).

(٢) في (م) و(ي): «عبارتنا».

(٣) في (ع) و(ي): «محزها».

(٤) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر من رواية هشام، وقرأ باقي السبعة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٩).

(٨٩) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

ثـمَّ لخَّصَ ذلك بقولِـه: ﴿مَن جَآءَ﴾ يومَ القيامة ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قالَ أكثرُ المفسِّـرين: الحسـنةُ هاهنـا كلمةُ الإخـلاص، والسَّـيئةُ ضدُّها وهو الشِّـركُ، لأنَّه قـالَ في حقِّها: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾.

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: خيرٌ حاصلٌ مِن جهتِها.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾: شـديدٍ؛ أي: مِـن فـزعٍ شـديدٍ مفـرطِ الشِّـدَّةِ، وهو خـوفُ النَّارِ، أو: مِـن فـزعٍ مّـا وإنْ قَلَّ.

وقرئ بالإضافة إلى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[1] لأنَّه جعل (يوم) مع (إذ) كالاسم الواحد، والمرادُ: يومُ القيامةِ.

﴿ءَامِنُونَ﴾ أمِنَ تعدَّى بالجارِّ وبنفسِه، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ﴾ يُقالُ: كبَّه وأكبَّه: إذا نكسَه.

﴿وُجُوهُهُمْ﴾ أنفسهم، يُعبَّر عن الجملةِ بالوجه كما يُعبَّرُ بالرَّأس والرَّقبة عنها[2].

---

(١) بالإضافة وفتح الميم، وهي قراءة نافع في المشهور عنه، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتنوين وفتح الميم، وباقي السبعة بالإضافة وكسر الميم. قال ابن مجاهد: (ولا يجوز مع التنوين إلَّا فتح الميم، فإذا لم تنون جاء الفتح والكسر). انظر: «السبعة»، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٢) قوله: «يعبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها» في (ف) جاءت بعد قوله: «في النار».

﴿فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ألقوا على رؤوسهم فيها[1]، ويقال لهم تبكيتاً عندَ الكبِّ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدُّنيا مِن الشِّركِ والمعاصي.

* * *

(٩١) ـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ مكَّة خصَّها مِن بينِ البلادِ بإضافة اسمه إليها؛ لأنَّها أحبُّ بلادِه إليه وأعظمُها عندَه، وأشار إليه بقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارةَ تعظيمٍ لها وتقريبٍ دالًّا على أنَّها موطنُ[2] نبيِّه عليه السلام ومَهبِطُ وحيِه.

﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾: جعلها حَرَماً آمناً ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خَلقاً وملكاً.

وصفَ ذاته بالتَّحريم الذي هو خاصُّ وصفِها، وجعلَ دخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ ربوبيَّته وملكوتِه كالتَّابعِ لِدُخولِها تحتَها، ولا خفاءَ في أنَّ إجراءَ الوصفِ على الله تعالى تعظيمٌ لشأنِ الوصف ولشأنِ ما يتعلَّق به الوصفُ، وزيادةُ اختصاصٍ له بمَن أُجْرِي عليه الوصف، وجعل ذلك كالمسلَّم المفروغ عنه، ولا كذلك لو قيل: (التي حرَّمها) ووُصِفت البلدة تخصيصاً أو مدحاً.

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: المنقادِينَ له.

* * *

---

(١) «أي: ألقيَ على رؤوسهم فيها» سقطت من (ك) و(ف)، ووقع في (ع) و(م) و(ي): «ألقي»، والمثبت من هامش (م)، وفيه: «لعله: ألقوا»، وهو الموافق لما في «تفسير النسفي» (٢/ ٦٢٤).

(٢) في (ك) زيادة: «بيت».

(٩٢) - ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾ مِن التِّلاوة أو مِن التُّلُوِّ؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ١٠٩].

أمرَ الرَّسول بأنْ يقولَ: أُمِرْتُ(١) أنْ أخصَّ اللهَ تعالى وحدَه بالعبادةِ، ولا أتَّخذَ له شريكاً كما فعلَتْ قريشٌ، وأنْ أكونَ مِن الحنفاءِ الثَّابتين على مِلَّةِ الإسلام، وأنْ أتلوَ القرآن لأعرِفَ الحلالَ والحرامَ وسائرَ الأحكام، وما يقتضيه الإسلام.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتِّباعِه إيَّايَ في ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ فمنفعةُ اهتدائِه راجعةٌ إليه لا إليَّ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتي. وحذفَ جواب هذا لدلالة مقابِلِه عليه؛ أي: فمضرَّة ضلاله راجعةٌ إليه لا إليَّ.

ولَمَّا حذفَ ذلك أُقِيمَ تعليلُه مقامَه، وهو قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: وما أنا إلَّا رسولٌ منذرٌ، وما على الرَّسولِ إلَّا البلاغ.

***

(٩٣) - ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثمَّ أُمِرَ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى على نعمة النُّبوَّةِ، أو على التَّوفيقِ للعلمِ والعملِ به(٢).

---

(١) في (ف): «وأمرت».

(٢) «به» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرةَ في الدُّنيا، أو في الآخرة.

﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾: فتعرفونَ أنَّها آياتُ اللهِ تعالى، ولكنْ حينَ لا تنفعُكُم المعرفَةُ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يغرَّنَّكُم تأخيرُ العقوبةِ؛ فإنَّه إمهالٌ لا إهمالٌ.

* * *